

مهرجان القراءة للجميع

الأعمال الإبداعية

مكتبة
الأسرة
1999

الأبواب المغلقة

أمين يوسف غراب



لوحة للفنان : خالد عبد الرازى



الهيئة المصرية
العامة للكتاب

الأبواب المغلقة

الأبواب المغلقة

أمين يوسف غراب



مهرجان القراءة للجميع ٩٩
مكتبة الأسرة
برعاية السيدة سوزان مبارك
(سلسلة الأعمال الإبداعية)
الأبواب المغلقة
أمين يوسف غراب

| | |
|----------------------------------|----------------------|
| الجهات المشاركة: | |
| جمعية الرعاية المتكاملة المركزية | |
| وزارة الثقافة | |
| وزارة الإعلام | الغلاف |
| وزارة التعليم | والإشراف الفني: |
| وزارة التنمية الريفية | الفنان: محمود الهندي |
| المجلس الأعلى للشباب والرياضة | المشرف العام: |
| التنفيذ : هيئة الكتاب | د. سمير سرحان |

على سبيل التقديم

وتمضى قافلة «مكتبة الأسرة» طموحة منتصرة كل عام، وها هي تصدر لعامها السادس على التوالي برعاية كريمة من السيدة سوزان مبارك تحمل دائماً كل ما يثرى الفكر والوجدان ... عام جديد ودورة جديدة واستمرار لإصدار روائع أعمال المعرفة الإنسانية العربية والعالمية فى تسع سلاسل فكرية وعلمية وإبداعية ودينية ومكتبة خاصة بالشباب. تطبع فى ملايين النسخ الذى يتلفها شبابنا صباح كل يوم .. ومشروع جيل تقوده السيدة العظيمة سوزان مبارك التى تعمل ليل نهار من أجل مصر الأجل والأروع والأعظم.

د. سمير سرحان

الإهداء

إلى « ع » وهي عين

أمين يوسف عراب

تحية

إلى أولئك الذين لم يجدوا على مائدة الحياة سوى طبق واحد فغمسوا فيه لقمة العيش . . .

فتلوث الطبق . وتلوثت اللقمة ، وتلوث أيضاً الفم الذى مضغها .
إلى أولئك جميعاً ، وأعنى بهم الذين كانت حياتهم فى هذه الدنيا قدراً مقدوراً ، أبعث بتحيتى و . . تعزيتى .

أمين يوسف غراب

تخرجت في كلية الحقوق . ونلت إجازة الدكتوراه في القانون . وكان موضوع الرسالة التي تقدمت بها « الإنسان والدوافع النفسية للجريمة » ولم أستشعر في دراستي أى ضيق أو تعب ، برغم ضخامة الجهد الذى أقوم به . بل العكس ، كنت أجد لذة لا تكاد تعدلها لذة أخرى . فقد كنت منذ الصغر أحب دراسة القانون . ويحاولى تعمق مواده ، ودراستها . وفهم أحاسيس المشرع عندما يتعمق الجريمة ويحدد نوعها ويدرس نفسية المجرم . ولماذا مثلاً تختلف عقوبة القتل العمد الذى يسبقه الترصد عن القتل المفاجئ في معركة مثلاً ، أو في الذود عن عرض ، مع أن نية القتل لحظة ارتكاب الجريمة واحدة ، هذه عزم أكيد على القتل ، وتلك أيضاً عزم مؤكد على القتل ، حتى وأنا طفل كان يحاولى أن أفكر في ذلك ، إذا رأيت الصبية الذين ألعب معهم في الشارع يتشاجرون بعضهم مع بعض ، أو أتشاجر أنا مع واحد منهم ، وكثيراً ما كنت أسأل نفسي : لو كنت أنا مكان هذا الصبي الذى ضربنى وأسأل دمائى ، فهل كنت فعلت ما فعلت وهل من أجل هذا السبب التافه ، إننى مثلاً أخذت الكرة منه وقذفت بها بعيداً ، أستحق أن أضرب بهذه القسوة حتى تسيل دمائى ؟

هكذا كثيراً ما كنت أسأل نفسي مثل هذا السؤال ، وكثيراً ما كان يجيئني الجواب : لا ؛ إذن لماذا فعل هذا الطفل ما فعل ؟ ولماذا ضربني بهذه الوحشية حتى أسال دمائي ؟ وسريعاً ما كان يجيئني الجواب شافياً . . إما أن أمه مثلاً على خلاف مع أمي ، أو أنه مثلاً ابن الخوذي ، أو ابن البواب ، وهو فقير ومعوز ورث الثياب ، وأنا ابن باشا وثرى ، وثيابي نظيفة ، وأرتدى فاخرها دائماً ، إذن هناك دوافع نفسية للجريمة ، غير الدوافع المادية التي ترتكب من أجلها .

ولعل تفكيري في ذلك وأنا بعد طفل ، ظل يلزمني فيما بعد ، وهو الذي جعلني أتقدم برسالة في نفس الموضوع « الإنسان والدوافع النفسية للجريمة » .

ولما تخرجت ، استطعت بفضل مؤهلي ، وأسرتي ، أن أحصل على وظيفة كبيرة ، فقد كانت الوظائف إذ ذاك ، وفقاً على أبناء الأسر الكبيرة ، وليست على أصحاب المؤهل فقط . وكنت من حسن الحظ أنتمى إلى أسرة كبيرة فعلاً ، فقد كانت أمي تركية الأصل ، وكان جدها لأبيها من الذين حكموا مصر فترة من الزمن . وكان أبي برغم أنه نشأ في أسرة فقيرة في الريف ، وكان يعمل في صدر شبابه ناظراً للزراعة في أحد التفتيش التي كان يملكها جدي لأمي . إلا أنه استطاع بفضل ذكائه وألمعيته ومهارته الفائقة في تعرف نفسيات البشر أن يشق طريقه سريعاً . ويصبح من أثرياء أهل الريف ويتزوج من أمي ، التي كان زواجه منها

فاتحة خير كثير له بعد ذلك ، وأن يظفر برتبة الباشوية وأن يصبح عضواً
في البرلمان . ٢٢

ولذلك عندما تخرجت ، وعينت في سلك النيابة العامة ، نُظر إلى
بعين الاعتبار ، ولما عرف عني ميلى إلى تعمق البحث في أصل الجرائم وحب
المعرفة في بواعثها وأسباب ارتكابها ، كان يحال إلى بعض الجرائم الهامة
التي ترتكب ، وحدث أن وقعت في ذلك الحين بعض الجرائم الكبرى ،
السياسية وغير السياسية . التي هزت البلاد في ذلك الحين ، وكان الوصول
إلى معرفة مرتكبيها أمراً عسيراً جداً ، ولكن بشيء من الصبر ، والخط ،
استطعت أن أمسك منها بأول الخيط ، وما دامت أصابعك قوية ،
وأناملك حساسة ، فلن يفلت منها الخيط أبداً ، وبذلك استطعنا أن نملك
بالخناة ، وأن نحمد تلك النار التي كاد لحيها يستعر في ذلك الوقت ، وقد
أفادنى هذا كثيراً . ووطد مركزى إلى حد كبير ، وفرح له أبى ، فليس
أحب إلى الأب من أن يرى ابنه ناجحاً .

وظلت كذلك إلى أن حدث ذات يوم ، أن وقعت جريمة قتل
غامضة في حي المنيرة ، إذ وجدت سيدة ثرية في الأربعين من عمرها
قتيلة في منزلها . وقد حدثت الجريمة في منتصف الليل ، في غرفة الصالون
في البيت ، إذ أطلق عليها الجاني ثلاث رصاصات على مسافة عشرة
سنتيمترات ومن مسدس براونج عيار (٧) فهتكت الرصاصات الثلاث
فروة الرأس وحطمت الجمجمة ونفذت إلى المخ وحدثت الوفاة في الحال .

كما جاء في تقرير الطبيب الشرعى .

وقد كان للحادث أثره السيئ في النفوس . فقد وقع في إحدى العمارات الكبيرة الآهلة بالسكان وذهبت صحبته سيده متقدمة في السن وقورة اشتهرت بالسمعة الحسنة ، والخلق الطيب وعمل الخير ، ولذلك اتجه تفكيرى في الحال إلى أن الجريمة ارتكبت بسبب السرقة ، وسبب ذلك أن المحنى عليها ثرية ، وتملك مالا وفيراً ، تحتفظ بأكثره عندها في البيت كما تملك الكثير من الحلى الثمينة من الملبس والذهب وبعض التحف الغالية ، غير أنه ثبت من المعاينة وفحص محتويات البيت فحصاً دقيقاً ، أن شيئاً من هذا كله لم يمس ، حتى كيس نقودها الصغير وجد بجانبها فوق المقعد الذى كانت تجلس إليه وقت ارتكاب الحادث . ووجد كما هو لم يمس ، برغم أنه كان بداخله ما يزيد على الخمسين جنيهاً ، وبذلك انتفت الفكرة التى كانت تخامرني في أول الأمر . وهى أن الجريمة قد ارتكبت من أجل السرقة . وبدا الموقف يزداد غموضاً ، والظلام ينجم حلكته فوق هذه الجريمة الغامضة ، ولا سيما بعد أن انقطع ذلك الحيط الرفيع الذى كنت قد بدأت أمسك أحد طرفيه ، وهو الخادم التى كانت تعمل في خدمة المحنى عليها ، والوحيدة التى كانت تقيم معها في البيت ، والى مرضت قبل الحادث بأيام ونقلت إلى المستشفى ، ولما ذهبت إلى سؤالها هناك اتضح أنها في حالة إغماء شديد . فأرجأت سؤالها .

وفي اليوم التالى وردت إشارة من المستشفى تفيد بأنها قد فارقت



الحياة ، إثر أزمة قلبية كانت تنتابها من حين إلى حين ، ولما انقطع هذا الحيط هكذا سريعاً ، وكنت أعتبره البصيص من النور الذى ستهتدى به لتبديد هذه الظلمة التى تكتنف الحادث . بدأت أمسك بنحيطين جديدين تكشف عنهما التحقيق . فقد ثبت من أقوال بواب العمارة التى كانت تقطعها القتيلة ، وأقوال الذين كانوا يجاورونها فى السكن . وبائعى اللبن والخبز ، أنه كان يتردد على المحبى عليها فتاة فى السابعة والعشرين من عمرها جميلة جمالا ملحوظاً ، ذات شعر أسود داكن وعيون زرقاء واسعة ، طويلة فارعة الطول . وكانت تلفت النظر بأناقتها . وكانت — أى القتيلة — تحب هذه الفتاة حباً جنونياً . وتكاد تلازمها دائماً ، أما اسم الفتاة ، أو أين تقيم أو تعمل . فلم يعرفه أحد ولم يمكن الاهتداء إليه ، أما الثانى فهو ريفى كهل فى الستين من عمره . وكان يتردد عليها قليلا جداً ، كل عدة شهور تقريباً . عندما يأتى إليها بريع الضيعة التى تملكها المحبى عليها فى الريف . والذى يتولى هو بالنيابة عنها الإشراف على شئونها .

وبعد هذه المعلومات الجديدة . بدأ تفكيرى يتجه اتجاهاً آخر ، وهو أن الجريمة وقعت فعلا بسبب المال أو الميراث ، وأن لهذا الرجل دخلا فى الأمر من غير شك ، ولذلك لم أشأ أن أقبض عليه أو أستدعيه للسؤال ، حتى لا يرتب أجوبته سلفاً ، أو يجد فرصة لنسج خيوط الأضاليل ، كما يحدث فى مثل هذه الحال . وانتقلت إلى ضيعة القتيلة فى الريف ، وسقطت فجأة على الرجل ، وعلى حسابات الضيعة ، وعلى بعض الذين على صلة

بالرجل من أقاربه أو أصدقائه . وقد ساعدني في ذلك أبي وسطوته الكبيرة في الريف ، ومجاورة مزارعه لضبيعة القتيلة . وقد بذلت في هذا جهداً كبيراً ، حتى إنني مكثت ثلاثة أيام ، وثلاث ليال لم أنم ، ولم أبدل ملابسي . فقد كنت أواصل التحقيق في الليل والنهار . ومع ذلك لم أظفر بطائل ، ولم أرخيطة واحداً أمسك به ، برغم مئات الصفحات التي استغرقتها في التحقيق . أو شيئاً يبعث حتى مجرد الشك ، فقد كانت الأمور جميعاً تسير سيراً حسناً ، في الضبيعة وفي حساباتها ، وليس من وريث للقتيلة من قريب أو بعيد . حتى يرتكب مثل هذه الجريمة البشعة . حتى عم دسوقي الذي ظنته في أول الأمر له دخل في الموضوع ، حتى هذا الرجل الريفى الكهل ، اتضح أنه برىء ، وأنه غير ما كنت أظن ، فقد وجدته رجلاً محطماً ، زاده الحادث تحطيماً ، وكادت عيناه تفيضان حزناً على القتيلة ، وقد ثبت من التحقيق أنه يحمل قلباً طيباً فعلاً ، وضميراً يقظاً ، فقد اعترف الرجل بمبلغ كبير من المال كان في ذمته للفقيده ، ولم يثبت هذا المبلغ في الدفاتر . ولم يعرف به أحد في الوجود غير القتيلة نفسها . وكان يمكنه إغفاله لو أنه أراد أن يغفل حساب ضميره . وكان هذا الرجل فعلاً يحمل نفساً رقيقة تفيض بالخير والحنان وحب الناس جميعاً . وكنت ألاحظ ذلك من اهتمامه بأمرى بالذات وعطفه على ، وتألمه من الجهد الذي أبدله ، وكان يقدم لى من الحين إلى الحين بعض الطعام بيده ، ويرجوني من حين إلى آخر أن أريح نفسي قليلاً ، ولما

انتهى التحقيق ولم يسفر عن نتيجة ، تقدم الرجل منى وراح يسدى إلى بعض النصح ، وأهمها أن لا أتعب نفسي أو أرهقها ، ولما قلت له إنه الواجب هو الذى يملى علينا هذا ، قال الرجل بلهجته الريفية التى ما زال جرسها يرن فى أذنى إلى اليوم وهو ينظر إلى ويديم النظر :

— أحياناً فى هذا الزمن يكون غير الواجب هو الواجب .

فاندهشت لهذا القول وسألته : ماذا يقصد ؟

فقال وصوته يختنق ، والدموع تملأ عينه :

— أقصد أن الست زينب عبد العال رحمها الله ، التى عاشت

حياتها للخير والصلاة ، والحج إلى بيت رسول الله ، تموت قتيلة ، والقاتل يعيش طليقاً يمرح فى دنياه . .

فتأثرت فعلاً بهذا القول ، وتركتة وانصرفت ، ولم ينس الرجل الطيب وهو يودعنى أن يشد على يدى مصافحاً ، وهو يحملنى التحية إلى أبى ، ولما سألته هل يعرفه . : قال فى ابتهاج والفخر ملء إهابه :

— وهل فى المديرية جميعها من لم يعرف سعادة الباشا الوالد ؟

وتركتة وانصرفت ، وفى قلب السيارة راحت أناملى تعبت فى دوسيه القضية ورحت أتصفح بعض أوراق التحقيق فإذا بها جميعها سوداء ليس فيها حتى منفذ واحد يستطيع أن يهدينى إلى شىء ، فشعرت بكثير من الضيق وأحسست لأول مرة فى حياتى بمرارة الإخفاق ، وتذكرت تلك الحملة التى أكرهها كرهاً شديداً التى أتخيلها أمامى فوق دوسيات بعض

القضايا أشبه بحفنة من الثعابين الكبيرة السوداء تكاد تغرس أنيابها في مشاعري وفي أحاسيسي ، بل في كياني كله وهي « يحفظ التحقيق ، وتقيد الحناية ضد مجهول » ، وعز علي كثيراً أن أضطر في النهاية إلى كتابة هذه الحملة التقليدية ، التي يضطر إليها دائماً المحقق العاجز ، وانتابني ضيق شديد حتى إنني لما عدت إلى بيبي في القاهرة لم أنم وظللت قلقاً برغم الإرهاق الشديد الذي كنت أحس به ، وقد لاحظ أبي ذلك ، وكان يعرف حرصي الشديد على قضاياي . . . ومتاعبي في سبيل تبديد الظلمات التي تكتنف بعضها . وما هي الآلام التي أعيش فيها كلما غم عليّ ، وأحسست بعجزى عن الوصول إلى نتيجة ، ولذلك راح يهون عليّ ، ويجلس معي ما يزيد علي الساعتين ، نقلب الأمر ونستعرض ظروفه معاً ، ونضرب أخماساً في أسداس كما يقولون . وكلما لاحت لي بارقة أمل ، كان النور يتألق في عيني كل منا ، إلا أن هذا النور وأسفاه كان يعود سريعاً فيتلاشي ، كلما استعرضنا ظروف الحادث مرة أخرى ، أو استرجعت أقوال من سمعت أقوالهم ، وظللنا كذلك حتى ضاق أبي ذرعاً هو الآخر ، فتركني وانصرف لينام ، وهو يقول لي بعد أن أشفق علي ورثي لحالي :

— إذا مات الفارس يوماً ، فليس من الحتم أن ينفق الجواد .

* * *

وظل الحال كذلك عدة أيام ، كدت خلالها لا أفكر في هذه القضية التي قل اهتمامي بها فعلاً ، وكدت أنساها ، وشغلتنى عنها شواغل

أخرى كثيرة . ولولا بعض الإجراءات التقليدية التي كانت باقية على استيفاء التحقيق فيها من ناحية الشكل ، لمددت يدي وذيلت صفحات هذه القضية التي تضخمت أمامي بتلك الحملة الكريهة إلى نفسي والتي تشبه حفنة من الثعابين تماماً ، ولولا أنني انقطعت عن العمل لمدة يومين ، بسبب وعكة ألت بي وجعلتني أأزم الفراش لمدة ثلاثة أيام ، لكنت أتممت بقية الإجراءات في هذه القضية ، وحولتها للحفظ فعلاً ، غير أنه حدث فجأة حادث غريب جعل قلبي يكاد يقفز فرحاً ، فقد حضر إلى مكنتي أحد ضباط المباحث الجنائية ، ومعه عبد الفضيل بواب العمارة التي وقعت فيها الجريمة ، وأنهى إلى أنه قد عرفت شخصية الفتاة المجهولة التي كانت تتردد على المحبني عليها في بيتها . والتي أدلى بأوصافها عبد الفضيل بواب العمارة في التحقيق ، وأنها — أي الفتاة — تدعى « زينات شوقي » وتعمل راقصة في ملهى في الهرم ، وأنها تقيم في المنزل رقم ١٧ بشارع علوي بالدقي ، وقد ثبت من التحريات أنها تقيم وحدها في المنزل المذكور ، ولا يتردد عليها أحد ، وأن هذه المعلومات جميعها قد عرفت عن طريق صورة للفتاة ، شاهدها عبد الفضيل في إعلان من إعلانات الملهى المذكور . وبرؤيته لها رؤية العين تأكد من أنها هي نفسها الفتاة التي كانت تتردد على المحبني عليها ، والتي ورد ذكرها في التحقيق ، وما إن استمعت إلى هذه المعلومات جميعها ، حتى أمرت بالقبض عليها فوراً وإيداعها السجن على ذمة القضية ، وقد اتجه تفكيرى

في الحال اتجهاً آخر ، راقصة وتعمل في ملهى ليلي ، وصديقة للمجنى عليها ، وتتردد عليها في بيتها ، بل تبيت معها في البيت نفسه كما قال ذلك بواب العمارة ، فكرت في هذا كله وفي شيء آخر ورد في المعاينة وفي تقرير الطبيب الشرعي ، ولم أفطن إليه أو أهتم به في حينه ، وهو أن ثوب القتيلة ، وجد أثناء وقوع الحادث ، وبه آثار تمزيق من قبل ، وهذا كله إن دل فعلى أن الحادث لم يكن بسبب السرقة ، كما فكرت في أول الأمر ، وأن الطهر وطيبة الخلق والسمعة الحسنة التي كانت تتحلى بها المجنى عليها ، كما ورد على لسان الشهود ، كل ذلك لم يكن لإستاراً تختفى خلفه بعض الجرائم الخلقية ، وبذلك بدأت القضية أمامي تتجه فعلاً اتجهاً آخر . ومكثت ثلاثة أيام قضيتها في الإسكندرية لإتمام بعض الإجراءات في إحدى القضايا هناك . ولما عدت ، استدعيت الفتاة من السجن ، ولما مثلت أمامي ، وجدت أوصافها فعلاً ، كما ذكر البواب في أول التحقيق . . شعر أسود داكن . . وعيون زرقاء . . واسعة . . وقوام فارع طويل . . وبشرة كلون العاج الذي لفحته شمس الشرق ، فأحالته إلى ما يشبه لون سنابل القمح ، غير أن هذا الجمال الرائع ، وهذه الفتنة التي لا نظير لها كان يلفها خمار أسود رقيق من الحزن ، بحيث جعل هذا الوجه الجميل الرائع أشبه تماماً بالمصباح المنطفئ ، والعيون الزرق الواسعة يبدو لك بياضها وهو يلتصع خلف الأهداب الطويلة المنسدلة عليها كما تلمع مترنحة ذبالة السراج الذي نصب زيتته ، ولاحظت أنها في حالة

إعياء شديد بحيث لا تكاد تقوى على الوقوف ، فأذنت لها بالجلوس
فهاوت على المقعد حتى كادت تسقط من عليه . فسألتها : هل هي
مريضة . . فعرفت أنها بجائحة .. وأن لها ثلاثة أيام لم تتناول طعاماً ،
لأنه ليس لها أحد يسأل عنها أو يعنى بها وحتى الذين كانت تعمل عندهم
فى الملهى ، تنكروا لها بمجرد القبض عليها ، وأنها لم تحضر نقوداً معها
لتشترى طعاماً وأن الطعام الذى قدم لها فى السجن عافته نفسها ولم تأكله .
فأشفقت عليها وأحضرت لها طعاماً فى الحال وأرجأت معها التحقيق إلى
اليوم الثانى .

في الصباح استدعيت الفتاة إلى مكتبي ، وكانت قد تماكنت قواها إلى حد كبير . ودبت في أوصالها الحياة وفي جمالها الفتنة . كما تمشيت في وجهها خيوط من إشراق . وغدا تماماً كطلعة الفجر عندما ينفس نوره في الكون حتى إنني دهشت كثيراً من الفرق الكبير بين أمس واليوم . وزادت دهشتي عندما بدأت التحقيق معها وفرغت من تلك الأسئلة التقليدية الأولى : اسمك . . . وسنك . . . وعملك . . . وأين تقيمين . . . وبدأت أدخل في الموضوع وسألتها :

— هل تعرفين المحبى عليها . . . زينب عبد العال الشوباشي ؟
أقول كانت دهشتي بالغة عندما أجابت في صراحة متناهية ،
واطمئنان زائد :

— أجل أعرفها . . . وأعرفها جيداً . . . فقلت :
— هل كنت تترددين عليها في بيتها ؟
— كثيراً جداً . . . وأحياناً كنت أبيت عندها أيضاً !
— متى تعرفت على المحبى عليها ؟
— هي التي تعرفت عليّ .

— كيف ؟

— فى الصيف الماضى كنت أعمل فى ملهى صيفى .. وهو باخرة على النيل .. وذات ليلة بعد أن انتهيت من رقصى .. حضر إلى " جمعة ..

— ومن جمعة ؟

— خادم فى الملهى .. وقال إن سيدة تريد مقابلتك ..

— هل كان معك أحد فى تلك اللحظة ؟

— كنت فى غرفتى أبذل ملابسى .. ولما سألته من هى ؟ .. وماذا

تريد ؟ .. أفهمنى بأنها سيدة يبدو عليها أنها وقورة ومن أسرة كبيرة وأنها

من رواد الملهى ، وتتردد عليه من حين إلى آخر . ولما جاءت إلى " فى

غرفتى .. أجلستها ، وطلبت لها زجاجة كوكاكولا .. وقالت لى : إنها

تعودت أن تتردد على هذه الباخرة بين الحين والحين لترجىة الفراغ ، وإنها

منذ أن شاهدتنى أعجبت بى وبرقصى . إذ لاحظت أنى لا أجلس مع

أحد .. ولا أتصل بأحد ، وأنها شعرت نحوى بعاطفة وحب . ولذلك فهى

تدعونى على فنجان شاي بيته .

— ووافقت ؟

— لا ..

— لماذا ؟

— فى الحقيقة ترددت .. لأن الناس قد تعودوا أن لا ينظروا للراقصة

كفنانة .. وإنما كامرأة تعرض جسمها عارياً على الناس .. وأنها صيد

من السهل اقتناصه . .

— وهل أنت كذلك ؟

فصمت ولم تجب ، وعلت وجهها غمامة كتلك التي تزحف فوق وجه القمر وتغطيه ، وقالت :

— أتصدقني لو قلت لا ؟

وشعرت بحرج شديد من هذا السؤال الذي لا دخل له في الموضوع ، وقلت معذراً ، أو محاولاً الاعتذار :

— أقصد هل الراقصة كذلك فعلاً ؟

فتمتعت بصوت خفيض جداً ، وهي تنظر إلى الأرض :

— أرجو أن تسألني عن نفسي فقط .

فأغفلت السؤال وقلت :

— وهل كان مظهر المجنى عليها يوحى بترددك في قبول دعوتها ؟

— لا . . أبداً أبداً . . وإنما ترددت لأن بعض السيدات أحياناً

يتخذن مظهر الوقار والحشمة والتظاهر بالتقى وسيلة لغايات معينة ، ولكنها

لما ألحت . . وعدتها بذلك . . وأعطتني عنوان مسكنها . . وانصرفت . .

وأحسست وهي تنصرف بعد استجابتي لرغبتها أنها فرحت كثيراً . . إذ

تهلل وجهها حتى انشقت عيناها عن إشراقة نور أضاءت كيانها كله . .

مما جعلني أتشكك في الأمر ثانية ولم أذهب إليها في الموعد . . وبعد

يومين اثنين . . تصادف أنني مرضت فيهما ولم أذهب إلى الملهى . .

جاءتنى هى الى بيتى . .

— هل كانت تعرف عنوان بيتك ؟

— لا . . وهذا مما أدهشنى أول الأمر . . ولكنى عرفت منها أنها لما

لم تجدنى فى الملهى فى اليومين الماضيين سألت عن عنوانى فأملأه عليها بجمعة
الخدام . . وهو الذى أخبرها بمرضى . .

— ألم تزدد شكوكك . . بعد أن وجدت منها هذا الاهتمام الزائد . .

الذى لامبرر له ؟

— فعلا . . ولكن عندما توطدت علاقتى بها ، تبددت شكوكى

جميعاً . . إذ وجدتها لى أكثر من أم . . وكانت هى تقول ذلك دائماً . .

— ماذا كانت تقول ؟

— كانت تقول بأنها وحيدة . لا أخ ولا زوج . ولا ابن أو ابنة . .

وأنها تود لو تتخذنى ابنة لها . ولعل هذا التشابه فى الحرمان والوحدة هو

الذى حببنى فيها ، وجعلنى أنزلها من نفسى منزلة الأم تماماً . .

وكنت قد نسيت أن أوجه لها سؤالاً هاماً . . . فقلت :

— مع من تقيمين فى بيتك ؟

— وجدى .

— من أى بلد أصلاً ؟

— القاهرة .

— وأين تقيم أسرتك ؟

- أبي مات قبل أن أراه . . وأمي تزوجت وأنا طفلة . . وتقيم مع زوجها في الصعيد . . في قرية تسمى البدارى .
- ولماذا لم تأخذك معها . . بعد أن تزوجت ؟
- قالت إن زوجها رفض أن ينفق عليّ . .
- كم كانت سنك في ذلك الحين ؟
- سبع سنوات ؟
- ولن تركتك أمك في القاهرة بعد أن رحلت عنها مع زوجها ؟
- ليس لأحد . .
- فصمت لحظات ، ثم قلت :
- وكيف نشأت إذن ؟
- هذا تاريخ لا أذكره ، وإنما الذى أعرفه هو أننى اشتغلت خادمة عند « عالمة » في شارع محمد على تدعى « الست بهية » وهى التى علمتنى الرقص . .
- ألم تتردد عليك أمك طوال هذه المدة ؟
- بعد أن عرفت كراقصة ، كانت تتردد على من حين إلى آخر . .
- لتأخذ منى بعض النقود .
- أين كانت تقيم أمك في القاهرة ؟
- في حارة درب المرعشلى . . في القلعة . .
- وما اسمها ؟

- نظيرة أحمد البسيوني . .
- وما اسم زوجها ؟
- لا أعرف . .
- ألم يحضر لزيارتك مع أمك مرة من المرات ؟
- لا . . ولم أره منذ تزوج من أمي . . ونرح معها إلى الصعيد . .
- وراودني شك في هذه المعلومات . . فتناولت ورقة وكتبت فيها اسم الأم وعنوانها ، وذيلتها بأمر القبض عليها وترحيلها فوراً إلى القاهرة ، ولاحظت أثناء ذلك أن الفتاة تختلس النظر إلى يدي وما أكتب فسألتها :
- هل تقرئين وتكتين ؟
- نعم .
- هل ذهبت إلى المدرسة ؟
- لا .
- كيف إذن تعلمت القراءة والكتابة ؟
- علمتني الست بهية عليها رحمة الله .
- سمعتك من لحظات تنطقين كلمة بالإنجليزية . . . فهل تعلمت الإنجليزية أيضاً ؟
- تعلمت منها بعض كلمات . . حينما كنت أعمل في مرقص ليلي ، يؤمه بعض الجنود الإنجليز أيام الحرب . .
- فنظرت إليها سريعاً ، ولا أدري لماذا تغيرت نظرتي إليها هذه المرة ،



ولا أدري أيضاً لماذا وجهت إليها هذا السؤال على الفور :

— هل أنت متزوجة ؟

— لا ..

— وهل سبق أن تزوجت ؟

— لا .

— هل ...

ولكنها لم تجعلني أتم السؤال وقالت بصوت خفيض جداً وهي تنظر

إلى الأرض :

— إنني عذراء .

ولعل هذا الجواب الأخير كان أبرز الأجوبة وأدعاهها إلى الشك في كل أقوالها . ولكي أضع شكوكي هذه جميعاً موضع اليقين مددت يدي وتناولت ورقة من أمامي ، وطلبت إحالتها على الكشف الطبى ... وكأنها أدركت قصدى .. فتألمت في حزن، لأنها قالت وكأنها جواد جريح يتألم :

— وما دخل هذه الأسئلة الأخيرة فيما استدعيتني من أجله ؟

— أليس من حقى أن أعرف ؟

— تعرف ماذا ؟

— السر الحقيقى الذى ربط بينك وبين المحبى عليها ؟

— أفهم من ذلك أنك ترتاب فى صلتى بها ؟

— ولم لا ..

فقلت وقد علت وجهها فجأة سحابة قائمة السواد ، وقد ارتفع صوتها لأول مرة ، شأن من يكاد يخرج عن طوره :

— لو أن الأمر كما تظن لما قطعت علاقتي بها نهائياً قبل الحادث بعشرين يوماً ..

فأحسست على الفور أنني وضعت يدي على شيء . ولذلك تماسكت حتى لا تهزني الفرحة ، وقلت وأنا أدور من بعيد حول ما أريد :

— إذن أنت تعلمين بالحادث في حينه ؟

— قرأت عنه في الصحف ..

— ولماذا لم تتقدمي للإدلاء بأقوالك ؟

— أي أقوال ؟

— بأنك على الأقل تعرفين المجنى عليها .. وقرأت أنه جاري البحث

عن فتاة تنطبق عليها أوصافك ..

— لم أقرأ هذا .. ولم تشر إليه الصحف .

— ولكنك قرأت نبأ مقتلها ..

— ولو قتل أحد .. فهل على جميع الذين يعرفونه أن يتقدموا

ليقولوا إننا كنا نعرف القاتل ؟

وأحسست بما في الجواب من سخرية ، ولكنني تغاضيت ، وقلت :

— ولكن علاقتك أنت بها لم تكن عادية كما جاء في أقوالك ..

— أى أقوال ؟

— إنها كانت لك بمثابة الأم ..

فأرسلت تنهدة طويلة .. وقالت بصوت خفيض .. وكأنها تزدد

توجعاً :

— ولا أنكر أننى فرحت . بذلك كثيراً .. وكانت سعادتى به

لا تقدر .. حتى إننى فعلاً اعتبرتها أمى . وأودعتها كل أسرارى ، وصدقت

كل ما كانت تقوله لى .. .

— ماذا كانت تقول لك ؟

— إنه لا ذرية لها .. وإنها تعتبرنى ابنة لها .. وإنها مستعدة أن تهب

لى ماتملك حتى ضيعتها الصغيرة التى تملكها فى الريف ، فقط أترك

مهنة الرقص وأعيش معها فى بيت واحد .

— لماذا لم وافقنى ؟

— لم أنشأ أن أكون عبثاً على .. أو تنفق على سيدة ليست لى

بها صلة قرابة أو رحم .

قالت ذلك وصمتت فى حزن شديد حتى إن بعض الدموع كادت

تنفطر عن عينيها .. فانهزت فرصة هذه الآلام التى تعتمل فى نفسها ..

ووجهت إليها هذا السؤال :

— تقولين إنك انقطعت عنها نهائياً .. قبل الحادث بعشرين يوماً ..

فما هى الأسباب ؟

— ارتبت في أمرها .

— كيف ؟

— فاجأتها ذات ليلة . . ورجل يتسلل في الظلام من مخدعها . .
فتماسكت حتى لا أشعرها بأهمية هذا الاعتراف الذي يكاد يكون
نقطة تحول في القضية . . وقلت :

— هل أنت متأكدة من أقوالك ؟

— نعم . .

— أليس من الجائز أنك تخيلت ذلك في الظلام ؟

— لقد أشعلت النور . . ورأيت رؤيته العين . .

— هل كنت معها في البيت في هذه الليلة ؟

— لا .

— أين كنت ؟

— في الملهى . .

— هل كنت على موعد معها ؟

— لا .

— إذن لماذا ذهبت إليها ؟

— كنت متعودة أن أتردد عليها في أى وقت . . في النهار . . ولكنى

لم أعود أن أذهب إليها في الليل ، إذا ذهبت . . إلا في وقت متأخر
جدًّا . . أى بعد أن أخلص من عملي الليلي في الملهى .

— متى كان عمالك الليلى ينتهى تقريباً ؟

— بعد الساعة الواحدة صباحاً ..

— كل ليلة ؟

— كل ليلة ..

— ومتى ذهبت إليها فى تلك الليلة ؟

— حوالى العاشرة مساء ..

— أنت تقولين إن عمالك لا ينتهى الا بعد منتصف الليل ..

— فى هذه الليلة ذهبت إلى الملهى كالعاده ، فوجدتهم قد أتوا

براقصة جديدة لتعمل معى ، فكانت مفاجأة لى .. واعتبرت هذا ماساً

بكرامتى ، فركت الملهى وانصرفت ، ولم أشأ أن أذهب إلى بيتى فذهبت

إليها .

— كم كانت الساعة على وجه التحديد عندما ذهبت إليها ؟

— العاشرة والنصف أو الحادية عشرة .

— وما الذى حدث بالتفصيل ؟

— شاهدت رجلاً يتسلل من مخدعها كما قلت ..

— كيف شاهدته ؟

— أنا صعدت فى المصعد كالعاده ، وعندما بلغت باب المسكن ..

أخرجت المفتاح من حقيبتى وفتحت الباب .

— هل كان معك مفتاح للمسكن ؟

- نعم .
- ولماذا ؟
- هي التي أعطتني إياه ، لكي أدخل وأخرج في أى وقت أريد . .
- ولما فتحت الباب ؟
- وجدت البهو مظلماً كالعادة ، فظننتها نائمة ، لأنها كانت
مودة أن تبكر في النوم . . ولكن ما إن أشعلت النور ، حتى سمعت
حركة غير عادية في غرفتها . . ولاحظت أن نور الغرفة قد أطفئ . . .
تجهت إلى الغرفة وفتحت بابها ، وما إن تقدمت خطوة واحدة حتى
رأيت رجلاً أمامي في الظلام فصرخت وكاد يغمى عليّ .. وانتهر هو
لهذه الفرصة وخرج سريعاً وهو يحاول إخفاء وجهه بجريدة كانت في يده .
- وأين كانت هي ؟
- لما أشعلت نور الغرفة وجدتُها جالسة على مقعد بجانب السرير . . .
- وماذا كانت ترتدى من الثياب ؟
- قميص النوم . .
- فقط ؟
- وشالا أسود كانت متعودة دائماً أن تضعه على رأسها وكتفها . .
- هل وضعت الشال عندما رأتك . . أو كانت تضعه على رأسها
- من قبل ؟
- لا أستطيع أن أحدد . .

— وماذا قالت لك ؟

— كانت مرتبكة جداً .. بحيث إنها لم تستطع أن تنطق

— ألم تسألها . . عن سبب وجود هذا الرجل ؟

— لا .

— لماذا ؟

— لأن هناك بعض الأسئلة يستطيع الإنسان أن يعرف الجواب

عنها سلفاً . .

— هل أفهم من ذلك أنك اقتنعت فعلاً :

— مادامت قد ماتت فامغفر لها الله . .

— ألم يدر أى حديث بينك وبينها فى هذا الشأن ؟

— لا .

— ألم تؤنبها على هذا الفعل ؟

— كانت المفاجأة مذهلة بالنسبة لى فلم أنطق . .

— تقولين بأنك رأيت الرجل رؤية العين . . فما هى أوصافه ؟

— كل الذى أذكره . . أنه طويل القامة . . أشيب الشعر . .

يضع فوق رأسه طربوشاً طويلاً . . ويرتدى بذلة أنيقة سوداء اللون ذات

خطوط بيضاء رفيعة . . ولونه يميل إلى السمرة . .

— كيف شاهدت لونه وأنت تقولين إنه كان يضع جريدة على

وجهه . . ؟

— شاهدت يده ونصف وجهه وهو يستدير سريعاً ليخرج من الباب .

— تقولين بأن الغرفة كانت مظلمة . . فكيف شاهدت ذلك ؟
 — لما فتحت الباب . . أضواء النور الذى فى البهو . . مدخل الغرفة . .
 — هل قال لك شيئاً ؟
 — إنه لم ينظر إلى . . .
 — وأنت ألم تقولى له شيئاً ؟
 — كنت فى حالة ذهول . .
 — إذا عرض عليك . . فهل تستطيعين أن تتعرفى عليه ؟
 — ربما . .

— ألم تشاهديه قبل هذه المرة يتردد على البيت ؟
 — لا . . لا . . أبداً . . أبداً . . لا هو ولا غيره . .
 — هل كانت الخادمة فى البيت وقت دخولك ؟
 — لا . . لأننى التقيت بها عند خروجى واقفة أمام المصعد . .
 — أين كانت ؟
 — لا أدرى . .
 — ألم تتحدثى إليها بشىء ؟
 — كان احتقارى لها هى الأخرى زائداً . . فلم أنظر إليها وانصرفت . .
 — ألم ترردى عليها بعد هذا التاريخ ؟

— إطلاقاً ..

— ألم تتصل هي بك ثانية ؟

— حاولت كثيراً وأرسلت لي عم دسوقي أكثر من مرة .. ولكني

رفضت ..

وكانت مفاجأة لي أن تذكر هذا الاسم .. فقد كنت حتى هذه اللحظة أعرف أنها لا تعرفه .. وقد أنكر هو في التحقيق معرفته بها إنكاراً باتاً .. وأدهشني ذلك .. وبدأت أرى خيطاً جديداً يتراقص أمام عيني .
ولذلك قلت متجاهلاً :

— من هو عم دسوقي ؟

— رجل من الأرياف كان يتردد عليها .. وكان خولي زراعتها كما

قالت لي ..

— هل شاهدته يتردد عليها ؟

— كثيراً ..

— وهل كان يتحدث إليك ؟

— أحياناً .. وكانت تستريح إليه .. فحينئذ كان لطيفاً ومرحاً لي

كثيراً .. وأذكر أنني مرة طلبت منه أذرة خضراء فأرسلها لي بعد

يومين .. ومعها بعض الفطير والزبد ..

— أرسلها لك في بيتك .. أم في بيت اخي عليها ؟

— في بيت اخي عليها ..

- ما هي أوصاف هذا الرجل ؟
- كهل في الستين من عمره تقريباً . . طويل اللحية والشارب . .
- عينان ضيقتان . . وعلى أذنه اليسرى قطع أفقى . .
- فاندهشت لدقة هذه الأوصاف وقلت :
- هل كان يعرف عنوان بيتك ؟
- بدليل أنه جاءني ثلاث مرات . .
- لماذا جاء إليك في المرات الثلاث ؟
- ليحاول أن يستعيد صداقتي بها ثانية . .
- وماذا قلت له ؟
- رفضت طبعاً . .
- ألم يسألك عن السبب ؟
- سألتني . .
- وهل قلت له السبب الحقيقي ؟
- خجلت . .
- ماذا قلت له إذن ؟
- قلت له إنني راقصة . . وإن الناس تعودوا أن ينظروا إلى الراقصات
- نظرة غير مشرفة . . وإنها سيدة كريمة ومحافضة، وإن ترددى عليها قد
- يسىء إليها . .
- ولماذا قلت له هذا ؟

- لأننى كنت أشفق عليها فعلاً . . .
- برغم الذى حدث وشاهدته بعينك . . .
- فصمتت ولم تجب . . . ولما أعدت السؤال . . . قالت بصوت مختنق :
- لقد كنت أحبها فعلاً . . .
- وماذا قال لك ؟
- حاول أن يقنعنى فلم أقنع .
- متى كانت آخر مرة ذهب فيها إلى بيتك ؟
- قبل الحادث بأسبوع واحد . . . وكان يوم الجمعة على ما أذكر .
- هل أنت متأكدة من أن اليوم كان يوم الجمعة ؟
- نعم . . . لأنه كان يحضر دائماً يوم الجمعة . . .
- لماذا يوم الجمعة بالذات ؟
- كان يقول لى بأنه يصلى الجمعة دائماً فى مسجد الحسين .
- فزادت دهشتى وقلت وأنا أشعر بأننى وصلت إلى شىء :
- قال دسوقى على حسنين فى التحقيق . . . إنه لم يتعرف عليك ولم يرك فى بيت المجنى عليها أبداً . . .
- هو قال ذلك ؟
- أجل .
- غريبة .
- ما هو سبب إنكاره ؟

- لا أعرف .
- هل كانت علاقته بالمجنى عليها طيبة ؟
- جداً ..
- ألم تلاحظي شيئاً على هذه العلاقة ؟
- من أى ناحية ؟
- أى ملاحظة ..
- لم تكن أكثر من علاقة خادم بمخدومه .
- هل كانت المجنى عليها تثق فيه ؟
- إلى حد أنها كانت لا تتصرف أى تصرف إلا بمشورته .
- مثل ؟
- مثلاً .. غضبت يوماً على الخادم التى تعمل عندها .. وأرادت طردها .. ولكنها لم تفعل لأن عم دسوقى لم يوافق على طردها ..
- ما السبب فى أنها كانت تأخذ بقوله إلى هذا الحد ، وهو لا يخرج عن أنه خادم عندها كما تقولين ؟
- إخلاصه لها .
- وهل كان مخلصاً لها فعلاً ؟
- كان لها أكثر من أب .. وأكثر من شقيق .

وحاولت أن أسألها بعض أسئلة أخرى ولكنها كانت متعبة ومرهقة
إلى حد كبير . . فاكتمت بهذا القدر . . وشعرت بشيء من الاطمئنان
لهذه النتائج التي وصلت إليها وإن كانت جميعاً ما زالت في عالم الغيب ..
وأرجأت التحقيق إلى الغد . . ولكنى في الغد انشغلت بالمرافعة في إحدى
القضايا . .

بعد يومين استأنفت التحقيق في هذه القضية . . فاطلعت على نتيجة الكشف الطبي على الفتاة . . وكم كانت دهشى بالغة . . عندما جاء تقرير الكشف الطبي مؤيداً لصحة أقوالها وأنها عذراء فعلاً كما قالت في التحقيق . . وقد جعلنى هذا أراجع أقوالها مرة أخرى . وأنظر إليها بعين الاعتبار . . كما جعل نظرتى إليها تتبدل ، ولا أنكر أننى شعرت نحوها بكثير من العطف والتقدير .

وكانت أمها قد تم القبض عليها ، وترحيلها إلى القاهرة . فاستدعيتها . . ولما مثلت أمامى . وجدتها عجوزاً ذات سحنة نحاسية صدئة . . وجه متغضن . . ترتسم فوقه عدة تجاعيد سوداء . . ثم عن الشر . . كما تم نظراتها الصفراء الشاحبة التى تنبعث من عينيها الضيقتين عن الغلظة والقسوة والأنانية . . مما جعلنى أستشعر الضيق أو هكذا أحسست بمجرد أن وقعت عيني عليها . . ومع أنها كانت تبكى . . وكانت فعلاً في حالة ذعر شديد . . إلا أن هذا لم يقلل من أهمية خطرها في نظرى . . ولذلك عاملتها في أول الأمر بشيء من الغلظة . . وبعد أن أجابت على بعض الأسئلة الأولية التى يتطلبها التحقيق . . وجهت إليها السؤال التالى :

— منذ متى تقيمين في البدارى ؟

- من خمس عشرة سنة .
- أين كنت تقيمين قبل ذلك ؟
- في درب المرعشلى بالقلعة . .
- مع من كنت تقيمين ؟
- مع زوجى الأول . .
- هل كنت متزوجة قبل زوجك الحالى ؟
- نعم . .
- ولماذا انفصلت عنه ؟
- مات . .
- ماذا كان يعمل ؟
- عريجي كارو . .
- وبعد موته ؟
- كنت أشتغل خادمة في بعض المنازل . .
- ما هو آخر بيت كنت تعملين به ؟
- بيت المرحوم حسن الشربتلى . .
- أين يقع هذا البيت ؟
- خلف سراى الهياتم في شارع الخليج . .
- ولماذا تركت الخدمة ؟

— لما تزوجت زوجى الثانى . . وذهبت معه إلى البدارى . . وتركت القاهرة نهائياً ..

— ماذا كان يعمل زوجك الثانى؟

— بائع فاكهة متجول . .

— ولماذا ترك هذه التجارة؟

— ورث عن أمه نصف فدان .. فترك التجارة .. وفضل أن يعمل فلاحاً ..

— هل أنجبت من زوجك الأول؟

— لا ..

— ومن زوجك الثانى؟

— ولا من زوجى الثانى .

فنظرت إليها وقلت :

— أنت لك ابنة تدعى زينات شوقى . . وتعمل راقصة فى بعض

الملاهى الليلية . . وتقيم فى القاهرة ..

— ليست ابنتى . . وأنا لم أنجب طول حياتى . .

وكنت لحظتها أشعل سيجارة .. فكادت تسقط من فى .. ولكنى تماسكت

سريعاً حتى لا أجعلها تشعر بدهشتى من هذه المفاجأة الغريبة .. وقلت :

— ولماذا تدعى هى ذلك ؟ !

— هى فعلاً تظن أننى أمها .

— تظن أنك أمها ؟

— نعم . .

— وما الذى جعلها تظن ذلك ؟

— لأنها نشأت لا تعرف لها أمّاً . . فقلت لها أنا أمك . . وأيضاً الذين كانوا يعرفون حقيقتها . . طلبوا منى أن أقول لها ذلك . .

— من هم ؟

— سيدة لا أعرفها جاءتني فى اليوم الثانى من عثورى عليها . .

— عثورك على من ؟

— على نعمة . .

— من نعمة ؟

— كان اسمها نعمة . . وأنا التى سميتها بهذا الاسم . . أما زينبات فهو اسم الشهرة بعد أن اشتغلت راقصة .

— أين عثرت عليها ؟

— لقيطة ملقاة فى الطريق . .

— اذكرى الذى حدث بالضبط . .

— كنت فى ذلك اليوم أقطع الطريق من القلعة إلى شارع الخليج حيث البيت الذى أخدم فيه . . وعند أول شارع درب الحماميز . . وبعوار سبيل المحمدى . . سمعت صوت بكاء طفل فالتفت فوجدت طفلة مولودة حديثاً . . وقد لفت فى ثياب بيضاء نظيفة . . فحملتها وعدت بها إلى البيت . .

- هل شاهدك أحد ؟
- لا . .
- كم كانت الساعة في ذلك الوقت ؟
- حوالي السادسة صباحا . .
- وما الذى جعلك تستيقظين في هذا الوقت ؟
- كنت دائماً أذهب إلى البيت الذى أخدم فيه في مثل هذا الوقت .
- ولماذا لم تبلغى عنها ؟
- لأننى لم أنجب . . وكانت أمنيى أن يكون لى طفل أو طفلة . .
- ولذلك اعتبرتها نعمة بعث بها الله إلى . . وقد سميتها نعمة فعلا . .
- وماذا قال لك زوجك ؟
- كان زوجى قد مات . . وكنت أقيم بمفردى في ذلك الحين . .
- قلت إن الذين كانوا يعرفون حقيقتها طلبوا منك تبنيها . . فمن هم ؟
- في نفس اليوم الذى عثرت عليها فيه . . جاءتنى سيادة لا أعرفها
- وقالت لى إنها صديقة لأم هذه الطفلة . . وإن الله قد أمر بالستر . .
- وطالبت منى أن أعنى بتربية الطفلة . . وسوف تدفع أجر تربيته والعناية به . .
- في أى وقت من النهار جاءت إليك ؟
- بين المغرب والعشاء . .
- أين جاءت إليك ؟
- في بيتى . .

- وكيف عرفت بيتك ؟
- قالت لى إنها كانت تتبعنى وأنا أحمل الطفلة ..
- هل لا حظت أن أحداً كان يتبعك فعلاً ؟
- لا ..
- ألم تشككى فى أقوالها ؟
- بل صدقتها .. وإلا فكيف عرفت هى بيتى فعلاً ؟
- ما هى أوصاف هذه السيدة التى جاءت إليك ؟
- سيدة وقورة .. يبدو عليها من ثيابها وحشمتها أنها من أسرة كبيرة ..
- كم سنها على وجه التقريب ؟
- شابة فى الثلاثين أو فى الخامسة والثلاثين .. طويلة .. ممتلئة
- الجسم إلى حد ما .. واسعة العينين .. ولونها يميل إلى السمرة .. وشعرها
- أسود فاحم السواد ..
- وكانت هذه الأوصاف تنطبق إلى حد كبير على المحبى عليها، فقلت :
- جميلة ؟
- طبعاً ست وجميلة .. ولولا حزنها وبكاؤها لكانت كالقمر تماماً ..
- لماذا كانت تبكى ؟
- لا أعرف ..
- ألم يجعلك هذا تشكين فى أنها هى أم الطفلة ؟

- فعلا شككت في هذا وسألتها ولكنها أنكرت ..
- ماذا قالت لك ؟
- قالت لي إنها حزينة لأن أم الطفلة قريبة لها ..
- وهل صدقت هذا ؟
- الحقيقة صدقت .. لأن مظهرها لم يكن ليبدل على أنها من الستات إياهن ..
- ماذا تقصدين بالستات إياهن ؟
- أقصد اللواتي يحملن سفاحاً .. ويلقن بأبنائهن في الطرقات ..
- ما اسم هذه السيدة :
- سألتها عن اسمها .. ولكنها أنكرته على ..
- لماذا أنكرته عليك ؟
- كانت دائماً تقول .. إن الله حلیم ستار ..

لست أدري لماذا عاودنى الشعور بخطورة هذه المرأة التى تقف أمامى ، أو بمعنى آخر ، خطورة هذه الأقوال التى تلى بها . ولذلك نظرت إليها ثانية ، ولما تمعنت فى وجهها ورأيت ظلال الحشونة التى ترسم عليه أكثر وضوحاً ، صمت لحظات ثم قلت :

— أين كانت تقيم ؟

— لا أعرف .

— ألم تذكر لك عنوانها ؟

— طبعاً لا .

— ألم تحاولي سؤالها مرة أخرى ؟

— مادامت قد أنكرت على حتى اسمها . . فبطبيعة الحال لن تذكر

لى عنوانها .

— وأنت ألم تحاولي معرفة عنوانها ؟

— حاولت مرة واحدة . . ولكنى أخفقت .

— ما هى المحاولة التى قمت بها ؟

— عندما جاءت إلى بعد ذلك بأسبوعين . . انصرفت . . فتتبعتها

خلسة . . ولكنها بعد أن خرجت من الحارة ، وبلغت ميدان القلعة ركبت

سيارة . . واختفت .

- هل كانت هذه السيارة تنتظرها ؟
- لا أعرف .
- السيارة كانت أجرة .. أم ملاكى ؟
- الوقت كان ليلاً .. وأنا لا أفرق بين الأجرة والملاكى ..
- هل لاحظت أن أحداً كان فى السيارة غير السائق ؟
- أنا كنت خلف السيارة .. فلم أر أحداً ..
- ماذا كنت تقصدين من معرفة عنوان بيتها ؟
- قلت إذا انقطعت عن المجيء إلى .. ذهبت أنا إليها ..
- تذهبين إليها لماذا ؟
- لأخذ النقود التى اتفقت معى عليها ..
- كم هو المبلغ الذى اتفقت معك عليه ؟
- ثلاثة جنيهات فى الشهر ..
- كم أعطتك فى أول مرة ؟
- خمسة جنيهات ..
- لماذا أعطتك هذا المبلغ .. وقد اتفقت معك على ثلاثة فقط ..
- هى أعطتنى هذا المبلغ ..
- هل تذكرين تاريخ اليوم الذى عثرت فيه على الطفلة .. والذى جاءتك فيه هذه السيدة ؟
- لا .. لا أذكر ..

- تذكري ..
- إنها سنوات طويلة ..
- هل استخرجت شهادة ميلاد للطفلة ؟
- لا ..
- لماذا وأنت تعلمين أن هذا يخالف القوانين ؟
- خشيت أن أقع في سين وجيم . . وأنا عمري ما وقفت أمام جندي ..
- كم كانت سنك أنت في ذلك الحين ؟
- لا أعرف .
- هل معك قسيمة زواج .. من زوجك الثاني ؟
- عندي في البيت .
- هل تذكرين تاريخها ؟
- لا ..
- ألا تذكرين حادثاً معيناً وقع لك في ذلك التاريخ الذي عثرت فيه على الطفلة ؟
- لا ..
- أولأحد أقاربك مثلاً ؟
- ليس لي أقارب ..
- أولأحد من معارفك مثلاً ؟
- لا .. ولكن الذي أذكره . . أنني بعد أن عثرت عليها بيومين

أو بثلاثة فقط . . . استيقظت فوجدت البلدة هائجة . . والشوارع
ممتلئة بالمظاهرات . . ولما سألت قيل لى إن سعد باشا ضرب بالرصاص . .
ورجعت إلى تاريخ هذا الحادث الذى ذكرته . . فوجدته فى
نوفمبر عام ١٩٢٤ . فأثبت ذلك فى المحضر . . ثم استأنفت سؤالها :

— ثم بعد أن جاءتك هذه المرة ؟

— جاءتنى بعد ذلك بأسبوعين . . وأعطتنى ثلاثة جنيهات . .

— هل شاهدت الطفلة . . فى المرة الثانية ؟

— وبكت كما بكت تماماً فى المرة الأولى . . ثم لم ترها بعد ذلك . .

— ألم تتردد عليك بعد هذه المرة ؟

— لا . . . وقد انقطعت عني نهائياً . .

— وانقطعت عنك النقود أيضاً ؟

— لا . . النقود كانت تصلنى بانتظام . . فى أول كل شهر . .

— كيف كانت تصلك النقود ؟

— كان يحضرها لى رجل . . فى أول كل شهر . .

— ما اسم هذا الرجل ؟

— عم دسوقى . .

نظقت هذا الاسم فأحسست كأن قبلة انفجرت أمامى فى التحقيق . .

حتى إننى اهتزت وابتلعت أنفاسى . . وقد غمرتنى فرحة زائدة . . إذ

بدأت أتأكد من صحة الأقوال التى استمعت إليها جميعاً . . ولا سيما

أقوال الفتاة التي جاءت أقوال هذه المرأة مطابقة لها كل المطابقة . .
 وأيضاً أقوال هذه المرأة التي كنت أعتقد أول ما وقعت عيني عليها . . أنني
 أمام امرأة كل شيء فيها لا ينطق إلا كذباً . . ونظرت إلى هذا الخيط
 الأبيض الذي بدأ يتوضح أمامي . . وإلى النور الذي ينبعث منه في
 عيني . . وابتلعت أنفاسي مرة أخرى ابتهاجاً . . وتلاشت الغلظة التي
 كانت في صوتي والتي كنت أحاطبها بها . . وتحولت إلى رقة زائدة . .
 وقلت أسأله :

— هل أنت متأكدة من أن اسمه دسوقي ؟

فقلت في إيمان كثير :

— طبعاً متأكدة . .

— ما الذي جعلك تتأكدين ؟

— لأنه رجل طيب . . ولا يعرف الكذب . . ومكث يتردد على عدة

سنوات . .

— يتردد عليك لماذا ؟

— ليعطيني النقود في أول كل شهر . .

— ما هي أوصاف هذا الرجل ؟

— فلاح . .

— ماذا تقصد من كلمة فلاح ؟

— زيفي يرتدي الملابس الريفية . .

or.



- ما هي أوصافه بالضبط ؟
- طويل طولا يلفت النظر .. ويميل لونه إلى السمرة .. وله عينان ضيقتان ..
- هل كانت له علامة مميزة ؟
- في إحدى أذنيه من أعلى قطع أفقى قديم ..
- فابتلعت أنفاسي .. مرة ثالثة اطمئناناً .. وقلت :
- في أى الأذنين ؟
- لا أذكر ..
- تذكرى ..
- فصمت حيناً كمن تسترجع شيئاً بعيداً .. وقالت :
- أغلب الظن أنه في أذنه اليسرى ..
- فامتدت أصابعي إلى وسط الخيط .. وأمسكت به في يدي ..
- وأطبقت عليه جيداً .. وقلت :
- متى وأين التقى بك دسوق في أول مرة ؟
- في بيتي ..
- كيف عرف عنوان بيتك ؟
- هي التي قالت له طبعاً ..
- هو أخبرك بذلك ؟
- نعم ..
- وماذا قال لك ؟

— قال لى إن السيدة التى سبق لها أن جاءتنى .. وأوصتنى على
الطفلة .. قد حالت ظروف بينها وبين المجيء إلى .. وقد أرسلتنى نيابة
عنها لأعطيك المبلغ المتفق عليه

— ما هى هذه الظروف ؟

— لا أعرف ..

— ألم يذكرها لك ؟

— لا ..

— وأنت .. ألم تحاولى معرفتها ؟

— كان مرة يقول لى إنها مريضة .. ومرة يقول لى إنها سافرت ..

— وهل صدقت هذا ؟

— لا ..

— ماذا صدقت إذن ؟

— قلت إنها خشيت أن يفتضح أمرها .. إذا ما ترددت على

كثيراً .. فأنابت عنها هذا الرجل ..

— معنى هذا أنك كنت تعتقدين أن هذه المرأة هى أم الطفلة ؟

— نعم .. كنت أعتقد ذلك ..

— وما الذى جعلك تعتقدين ذلك .. وقد قالت لك إنها لم تكن

أمها ؟ وإنما هى قريبة لها ؟

— الدم يحن .. وكانت فى المرتين عندما تنصرف .. تقبل الطفلة

وتبكي بكاء حارًا ..

— ذكرت في التحقيق غير ذلك .. فقد جاء في أقوالك أنك

اقتنعت بأقوالها ، وهي أنها قريبة لأم الطفلة ؟

— قلت ذلك في أول الأمر .. ولكن عندما جاءتنى في المرة

الثانية . ورأيت نظراتها للطفلة وبكاءها وهي تقبلها .. اقتنعت بأنها أمها ..

— ما هي الصلة التي كانت بين دسوقي وهذه السيدة ؟

— لا أعرف ..

— ألم تحاولي سؤاله ؟

— قال لى إنه خادم عندها ..

— وصدقت هذا القول ؟

— كان منظره فعلا يدل على هذا ..

— هل كان دسوقي يشاهد هذه الطفلة عندما يجيء إليك ؟

— أحياناً ..

— وماذا كان شعوره عندما يراها ؟

— كان يتألم .. ويقول .. ربنا يجازى أولاد الحرام ..

— ألم تحاولي أن تعرفي منه .. من هم أولاد الحرام هؤلاء ؟

— كنت كلما حاولت ذلك .. قال نفس الكلام الذي كنت

أسمعه منها ..

— أى كلام ؟

- إن الله حلیم ستار . .
- هل كان يشعر نحو الطفلة بشعور معين ؟
- كان يعطف عليها كثيراً . . ويوصيني دائماً بها خيراً . . وذات مرة . . حضر إلى وكانت مريضة . . فذهب إلى «الأجنحة» . . وأحضر لها دواء . .
- ألم يجعلك هذا تظنين شيئاً ؟
- أظن ماذا ؟
- أنه والد الطفلة مثلاً ؟
- لا . . لا . . أبداً . . أبداً . .
- لماذا نقيت هذا سريعاً ؟
- لأن منظره لم يكن ليدل على أنه أبوها . .
- كم كان يعطيك من النقود دائماً ؟
- هي الثلاثة جنيهات كل شهر . .
- هل كان يعطيك شيئاً آخر ؟
- أحياناً . . كان يحضر لي بعض الهدايا الريفية . .
- ماذا تقصدين بالهدايا الريفية ؟
- حنطة . . وأذرة خضراء . . وفطير . . وفي الأعياد والمواسم كان يحضر إلى بعض اللحم .
- ألم تحاولي أن تطلبي منه زيادة المبلغ ؟

- لا .. وكنت فرحة بهذا المبلغ ..
 — هل ظل يتردد عليك كثيراً ؟
 — ما يزيد على الخمس سنوات ..
 — وبعد ذلك ؟
 — لم أره ..
 — انقطع عن المجيء إليك ؟
 — الذى حدث أننى لما تزوجت .. وطلب منى زوجى أن أنتقل معه إلى الصعيد .. تركت الطفلة عند بجارة كانت تقيم معى فى البيت نفسه .. وطلبت منها أن تسلمها إلى هذا الرجل الريفى عندما يحىء ...
 — ولماذا لم تأخذى الطفلة معك ؟
 — رفض زوجى ..
 — لماذا رفض ؟
 — قال إنه ليس على استعداد أن ينفق على طفلة ليست ابنتنا ..
 — ووافقت ؟
 — نعم ..
 — كيف وافقت وقد وجاء فى أقوالك .. أنك لم تنجى .. وقد فرحت بالطفلة وتبنيها ؟
 — كان هذا شعورى فى أول الأمر .. ولكنى لما عرفت أن لها من يسأل عنها قل هذا الشعور .. وقلت إنهم سوف يأخذونها منى فى يوم من الأيام ..

- ولماذا لم تنتظري حتى يجيء إليك دسوقي . . وتسلميه الطفلة ؟
- أصر زوجي على أن نساfer في يوم معين . .
- وهل تسلم دسوقي الطفلة من جارتك ؟
- لا . . لأنني عندما عدت إلى القاهرة بعد ذلك بشهرين . .
- قالت لي جارتى إنها استيقظت ذات صباح فلم تجد الطفلة . .
- إذ اختفت نهائياً . . حتى إنها ظنت أن دسوقي قد أخذها . . ولكنها
- فوجئت به يحضر في الموعد نفسه ويسأل عن الطفلة . .
- أى موعد ؟
- أول الشهر كما تعود أن يحضر . .
- وماذا قالت له جارتك ؟
- أخبرتنى أنها خافت أن تقول له إن الطفلة قد اختفت حتى لا يسأل
- عنها . . وأنكرت عنه كل شيء . .
- ماذا قالت له ؟
- قالت له إنها لا تعرف شيئاً . .
- ألم يسألها عنك ؟
- سألها . . فقالت له . . إنني عزلت ولا تعرف مكانى . .
- لماذا قالت له ذلك ؟
- خافت . .
- وأنت ماذا فعلت ؟

- عدت إلى الصعيد . . ولم أعرف شيئاً بعد ذلك . .
- ما اسم هذه المرأة التي تسلمت منك الطفلة ؟
- مازنة حسن البرعى . .
- أين تقيم الآن ؟
- مانت منذ زمن بعيد . .
- هل كان أجد في الحى الذى تقطنين فيه غير مازنة حسن البرعى يعرف محل إقامتك الجديد فى الصعيد ؟
- لا . .
- لماذا أخفيت عنوانك ؟
- زوجى هو الذى طلب منى ذلك . . حتى تنقطع علاقتى بالطفلة نهائياً . .
- ولماذا طلب منك ذلك ؟
- قال لى بعد أن تزوجنا بزمان . . إنه كان يغار منها . .
- كيف كان يغار منها ؟
- تسرب إليه الشك بأنها ابنتى غير الشرعية . . وأن دسوقى الذى كان يتردد على هو والدها . .
- ووقفت طويلاً عند هذه الإجابة . وترى كثيراً قبل أن أسأها :
- وكيف تزوجك وعنده هذا الشك ؟
- اقتنع بخطئه . .

- هل كان دسوقي يتردد عليك وأنت متزوجة ؟
- وأنا مخطوبة فقط . .
- وبعد أن تزوجت ؟
- سافرت مع زوجي مباشرة . .
- هل كان زوجك يرى دسوقي وهو يتردد عليك ؟
- كان يعرف . .
- ألم يلتق به ؟
- قابله مرة واحدة في ذلك الحين . .
- وبعد ذلك ؟
- تزوجني وسافرت معه . .
- ألم تحاولي بعد ذلك . . أن تعرفي شيئاً عن الطفلة ؟
- انقطعت عن القاهرة مدة . . ثم نسيها بعد ذلك . .
- تقول الفتاة إنك تعرفت عليها بعد ذلك وكنت تترددين على بيتها . .
- تعرفت عليها من سنة فقط . . بعد أن اشتغلت راقصة . .
- كم من السنين مرت على انقطاعك عنها . . ثم تعرفت عليها ؟
- أكثر من خمس عشرة سنة . .
- كيف تعرفت عليها ؟
- ذهبت مع زوجي ذات يوم إلى مدينة أسيوط . . وأدخلني فيها . .
- وشاهدتها ترقص في الثيلم . .

- وكيف تعرفت عليها بعد خمس عشرة سنة ؟
- الشبه . .
- كم كانت سنّها عند آخر مرة تركتها فيها ؟
- ست سنوات . . أو سبع سنوات تقريباً . .
- تقولين إن دسوقي ظل يتردد عليك خمس سنوات فقط ؟
- لا أستطيع أن أذكر كم سنّها على وجه التحديد . . وإنما ست أو سبع سنوات تقريباً . .
- وفرضاً أن سنّها كانت سبع سنوات كما تقولين . . فهل في استطاعتك أن تتعرفي عليها بعد خمس عشرة سنة ؟
- أحسست أنها هي فعلاً . . وميزتها بعلامة فيها كنت أعرفها . .
- ما هي هذه العلامة ؟
- حسنة سوداء . . في كتفها الأيمن من الخلف . .
- وهل هذا يكفي ؟
- والشبه الكبير . . وإحساسى . . وفرحتى عندما شاهدتها ترقص . . ورأيته شابة جميلة جمالاً رائعاً . .
- وماذا فعلت بعد ذلك ؟
- انتهزت أول مرة ذهبت فيها إلى القاهرة مع زوجى وعرفت اسمها وذهبت إليها في بيتها . .
- كيف عرفت اسمها . . وعنوان بيتها ؟

— كان لزوجي قريب يبيع اللب والسوداني في إحدى دور السينما . .
 وذكر له اسم الفيلم . . وهو الذي دلنا على الاسم والعنوان . . ولما عرفناه
 ذهبنا إليها . .

— ذهبنا إليها بمفردك أم مع زوجك ؟

— بمفردى . .

— ولماذا لم يذهب زوجك معك ؟

— هو الذي أراد ذلك . .

وراودنى شيء . . . وواتنى فكرة . . وبدأت أرى خيطاً جديداً
 يتراقص أمام عيني . . فمددت يدي وتناولت قلماً . . وكتبت أمراً بالقبض
 على الزوج . . وترحيله إلى القاهرة تحت الحراسة المشددة . . . حتى
 لا يتصل به أحد . . ثم أعدت القلم إلى مكانه . . واستأنفت التحقيق
 معها ثانية . . وسألها ؟

— ولما ذهبنا إليها في أول مرة بعد هذه السنين . . ماذا حدث ؟

— أنكرتنى في أول الأمر . . ثم لما تعرفت على كانت مفاجأة كبيرة
 لها . . وارتمت في أحضانى وبكت كثيراً . .

— لماذا ؟

— لأنها كانت لا تزال تظن أننى أمها . .

— وقلت لها الحقيقة ؟

— طبعاً لا . .

- لماذا ؟
- أشفقت عليها من الصدمة . .
- أى صدمة ؟
- أن تعرف أنها بنت سفاح . .
- وماذا قالت لك عن تاريخ حياتها بعد تركك لها وهي طفلة ؟
- لم تقل لى شيئاً . .
- كيف هربت ؟
- لم تذكر لى شيئاً ؟
- وأنت ألم تسألها ؟
- الحقيقة أننى اجتقرت نفسى لأننى تخليت عنها وهي طفلة . .
- وكيف احترفت الرقص ؟
- قالت لى إنها صنعة تتعيش منها . .
- ألم تقل لك شيئاً إطلاقاً فى هذا اليوم ؟
- كل الذى طلبته منى أن لا يعرف أحد أننى أمها . .
- ولماذا طلبت منك ذلك ؟
- قالت لى لأن هذا يؤثر عليها فى الوسط الذى تعيش فيه ؟
- وماذا كان قولك ؟
- وافقت . .
- لماذا وافقت ؟

- أردت أن أحترم شعورها أولاً .. ولأننى فعلاً لست أمها ..
- كم من الزمن مكثت عندها هذه المرة ؟
- يوماً واحداً فقط لأننى سافرت فى اليوم الثانى مع زوجى ...
- هل عرفت عنوانك فى الصعيد ؟
- قلته لها ..
- هل أعطتك نقوداً ؟
- عشرة جنيهات ..
- كم مرة ترددت عليها بعد ذلك ؟
- خمس مرات ..
- وكانت فى كل مرة تعطيك نقوداً ؟
- نعم ..
- أهى التى كانت تعطيك النقود .. أم أنت التى كنت تطلبين منها ؟
- هى التى كانت تعطينى ..
- لماذا وأنت لم تطلبى منها ؟
- لأننى فقيرة .. وأمها كما تظن ..
- كم كانت تعطيك من النقود فى كل مرة ؟
- عشرة جنيهات ..
- ألم تعطك أكثر من هذا المبلغ فى مرة من المرات ؟
- مرة واحدة أعطتنى خمسة عشر جنيهاً واشترت لى بعض الثياب ..

- لماذا في هذه المرة ؟
- كان بمناسبة أحد الأعياد . .
- أى الأعياد بالتحديد ؟ . .
- العيد الكبير . .
- تقولين إنك ترددت عليها خمس مرات . . فهل كانت كل مرة في البيت أو في غيره ؟
- في البيت . .
- كم كنت تمكثين عندها في كل مرة ؟
- يوماً . . أو يومين . . ولكنى مرة مكثت عندها سبعة أيام . .
- لماذا ؟
- كنت مريضة . . وعرضتني على طبيب . .
- وماذا قالت للطبيب عنك ؟
- أنا التى قلت له . .
- قلت له ماذا ؟
- قلت له إننى خادمة عندها . .
- ولماذا قلت له هذا ؟
- حتى لا أجرحها . .
- ألم تلاحظي أن أحداً كان يتردد عليها أثناء ترددك أنت عليها ؟
- لا . . لا . . لم أرَ أحداً قط يتردد عليها . .

— ألم تلاحظي أنها كانت على اتصال بأحد . . أو أن أحداً كان يتصل بها ؟

— لا . . لم ألا حظ . .

— ما هي ملاحظاتك على أخلاقها بصفة عامة ؟

— حسنة جداً . . وطيبة الخلق . . إلى حد التدين . .

— ماذا تقصدين من كلمة تدين ؟

— عندما ذهبت معها إلى الطبيب . . كانت تتصدق على الفقراء

ورأيها تضع مصحفاً تحت الوسادة التي تنام عليها . . ولما سألتها عنه . .

قالت إنها تبرك به وتعتبره أنيسها في وحدتها . .

فأدهشني منها هذا القول . . وقلت لها وأنا أتأملها :

— هل صدقت هذا القول من راقصة ؟

فكان ردها سريعاً جداً . . وفي إيمان لا حد له :

— طبعاً صدقتها . .

— وما الذي جعلك تصدقين إلى هذا الحد ؟

— ما رأيته بعيني . . والمصحف الذي كنت في كل مرة أراه في

مكانه . . وعندنا مثل في الصعيد يقول «دايما اللي في الجرة ، يطلع لبرة» .

— ما معنى هذا المثل ؟

— معناه إذا كان القلب نظيفاً . . فلا يمكن أن تتلوث الشفاه . .

فاندهشت لهذه الحكمة . . تصدر من مثل هذه المرأة الساذجة . .

وصمت لحظات رحت أفكر فيها وفي القضية التي أمامي .. وفي هذه الحفنة من الناس التي يتصرف فيها القدر بمثل هذه القسوة حتى إنه ينصف من يستحق الظلم ويظلم من يستحق الإنصاف . . ويجعلنا في كثير من الأحيان نعطي ما لله لقيصر . . ونعطي ما لقيصر لله . .

وعدت إلى التحقيق . . وظروف الجريمة . . واسترجعت بعض الأقوال . . ورأيت بعض الحيوط التي بدأت تتوضح أمامي وتثير لي الطريق . . وبعض الحيوط الأخرى التي ما زالت سوداء حالكة السواد .. حتى لتكاد تغرقني في ظلمة سوادها . . ولما راجعت الأقوال التي أمامي مرة أخرى . . رأيت أشياء كثيرة . . ما زالت في حاجة إلى إيضاح . . ولذلك تغاضيت عما أشعر به من إرهاق . . وما تشعر به أيضاً المرأة التي وقفت أمامي ما يزيد على الثلاث ساعات حتى تعبت ولهثت أنفاسها . . وراحت تتصبب غرقاً . . تغاضيت عن ذلك كله . . واستأنفت سؤالها ثانية . . وقلت :

— جاء في أقوالك . . أن دسوقي ظل يتردد عليك بصفة منتظمة ما يزيد على الخمس سنوات . .

— نعم . .

— هل كانت السيدة التي ذكرت أوصافها تتردد عليك أيضاً ؟

— لا . . ولم أرها بعد المرتين كما ذكرت . .

— ألم تسأل عنها دسوقي ؟

— سألته . .

— وماذا قال لك ؟

— قال لي في أول الأمر إنها مريضة . . ثم قال لي بعد ذلك إنها ماتت . .

وكدت أدهش لهذا القول . . الذى لو صبح لتغير وجه التحقيق . .

ولذلك سألتها في دهشة ؟

— وهل صدقت هذا القول ؟

— فعلا صدقته . . وظللت أصدقه . . إلى أن جاءتنى بنفسها في

الصعيد مع دسوقي .

فانفتحت فجأة أمامى طاقة جديدة . . نظرت منها إلى أشياء كثيرة ، وقلت :

— تقولين إنها جاءت إليك في الصعيد . . وكان معها دسوقي ؟-

— نعم . .

— هل أنت متأكدة من هذا القول ؟

— طبعاً . .

— منذ متى جاءت إليك ؟

— من سنة تقريباً . .

— اذكرى التاريخ بالضبط . .

— فصمتت قليلاً ثم قالت :

— من تسعة أشهر . .

— لماذا حددت هذا التاريخ ؟

— لأنها جاءتني في رمضان . . ورمضان قادم بعد ثلاثة شهور تقريباً . .

— هل أنت متأكدة من أنها جاءت إليك في رمضان ؟

— نعم . . لأنني كنت صائمة . .

— وهي ؟

— الله يعلم . .

— هل تناولت في بيتك طعاماً مثلاً ؟

— إنها لم تحضر إلى في بيتي . .

— أين حضرت إليك إذن ؟

— في المحطة . .

— أي محطة ؟

— محطة البداري . .

— اذكرى الذي حدث بالتفصيل . .

— ذات يوم . . كنت في بيتي . . فطرق الباب . . ولما فتحت . .

وجدتني وجهاً لوجه أمام دسوقي . .

— ماذا كان موقفك ؟

— اندهشت طبعاً . .

— عندما وقعت عينك عليه . . عرفت من هو ؟

— نعم عرفته على الفور . .

— ألم يتغير فيه شيء ؟

— شاب شعره فقط . .

— وهو . . هل تعرف عليك ؟

— نعم . . وقال لي أنا دسوقي . .

— وبعد ؟

— رحبت به . . وطلبت منه أن يدخل . . ولكنه طلب مني أن أصحبه

إلى استراحة المحطة . . فذهبت معه . .

— لماذا طلب منك إن تصحبيه إلى استراحة المحطة ؟ . .

— قال لي إن السيدة التي كانت قد جاءني من أجل الطفلة معه . .

وتتظرنى هناك . .

— كيف قال لك هذا . . وقد سبق له أن أخبرك بموتها ؟

— قلت له هذا . . فنظر إلى الأرض وقال . . إن الله حلیم ستار . .

ولما ذهبت معه وجدتها فعلا هي . .

— هل أنت متأكدة من أنها هي ؟

— طبعاً . . وسلمت عليها . . وسلمت علي . .

— وهل تعرفت عليها بعد مرور أكثر من خمس عشرة سنة . . كما جاء

في أقوالك ؟

— وحتى بعد خمسين لا بد أن أعرفها . .

— ألم يتغير فيها شيء . .

- طبعاً تقدمت بها السن . . . وابيض شعرها . . .
- وماذا قالت لك ؟
- كانت تظن أن الفتاة ما زالت عندي . . . وكانت تريد أن تراها . . .
- وماذا قلت لها ؟
- قلت لها الحقيقة . . .
- أى حقيقة ؟
- إننى لما تزوجت . . . وتركت القاهرة . . . تركتها أيضاً . . . ولم أعرف عنها شيئاً . . . كل هذه السنين . . . إلى أن تعرفت على صورتها أخيراً وهى ترقص فى السيما . . .
- وماذا كان شعورها عندما قلت لها هذا ؟
- بكت كثيراً جداً . . . وطلبت منى أن تعرف عنوانها فى القاهرة . . .
- وهل ذكرت لها عنوانها ؟
- نعم . . .
- كيف ذكرت لها العنوان . . . وأنت تقولين إن الفتاة تعتقد أنك أمها . . . وأنتك تخشين عليها من الصدمة ؟
- أثار فى بكائها . . . فأشفقت عليها وأنا وإن كنت لم أنجب إلا أننى أعرف قلب الأم . . .
- إذن أنت تقطعين بأنها أمها فعلاً ؟
- قلبى كان يحدثنى دائماً بذلك . . .

— قلت في أول التحقيق . . إن حكمك عليها أنها ليست من النساء

إياهن ؟

— قد يخطئ الإنسان على الرغم منه . .

— حتى في شرفه ؟

— الله يعلم بالأسباب . .

— وإذا كانت أمها كما تقولين . . فأين كانت كل هذه المدة ؟

— قالت إنها ظلت كل هذه السنين تبحث عن عنواني إلى أن اهتدت

إليه أخيراً . .

— وكيف اهتدت إليه ؟

— قالت لي إنها عرفت من عم نوفل . . بعد أن خرج من السجن . .

— من عم نوفل ؟

— كان يبيع الحروب والعرقسوس . . على رأس الحارة . .

— ولماذا سجن ؟

— كان يتجرب في المخدرات . .

— وهل كان يعرفك ؟

— كان يعرف كل سكان الحارة . .

— وهي كانت تعرفه ؟

— قالت لي إنها أعطته نقوداً . . وذكرت له اسمي وأوصافي . . وظل

يبحث عني إلى أن عرف اسم زوجي والبلد الذي سافرت إليه . .

- هل ذهبت معك في هذا اليوم إلى بيتك ؟
- لا . . . وقد سافرت مع دسوقي في نفس اليوم . . .
- إلى أين سافرت مع دسوقي ؟
- لا أعرف . . . ولكن إلى القاهرة طبعاً . . .
- هل ذهبت إلى الفتاة بعد أن تعرفت على عنوانها ؟
- لا أدري . . . فأنا لم أسافر إلى القاهرة منذ هذا التاريخ . . .
- هل حضر زوجك هذه الواقعة ؟
- لا . . . وإنما ذكرتها له . . .
- هل أعطتك نقوداً في هذا اليوم ؟
- أعطتني خمسة جنيهات . . .
- لماذا . . . ما دامت الفتاة ليست عندك ؟
- قالت لي لأنني ذكرت عنوانها . . .
- هل إذا شاهدت هذه السيدة . . . يمكنك التعرف عليها ؟
- نعم . . . أتعرف عليها . . . حتى ولو كانت بين ألف . . .
- ففتحت درج مكنتي وأخرجت منه مظروفاً كانت به عدة صور
لنساء مختلفات . . . ومن بينها صورة للمجنى عليها . . . وناولتها المظروف . . .
وطلبت منها أن تخرج صورتها من بين هذه الصور . . . وما إن فعلت
ورأت صورتها . . . حتى انتزعته من بين مجموعة الصور . . . وقدمتها لي
وهي تقول مبتسمة وكأنها تزهو بانتصارها :

— هذه هي نفسها السيدة التي أتحدث عنها . .

* * *

اطمأنت إلى هذه النتائج . . وإلى هذه الخيوط الكثيرة التي بدأت أمسك بها في يدي . . وكان الليل قد انتصف أو كاد . . فاكفيت بهذا القدر . . وأمرت بإعادة المرأة إلى السجن . . ووضعها في مكان بعيد عن الفتاة . . بحيث لا تتصل بها أو حتى تراها . . ثم استدعيت الفتاة إلى مكثي قبل أن تنصرف . . وكانت شاحبة مضطربة . . مقرحة العينين من أثر بكاء طويل . . وكانت قلقة . . تريد أن تعرف مصيرها . . فطمأنتها وأفهمتها أن الأمر لا يزيد على بعض الإجراءات التي يجب أن تتخذ . . وسألني . . هل استدعيت أمي . . واستشعرت مرارة لهذا السؤال . . . وأشفقت عليها من قلبي . . إذ ما زالت تظن أن هذه المرأة هي أمها فعلا . . وتذكرت قول المرأة في التحقيق من أنها أشفقت عليها من ذكر الحقيقة . . لأنها خشيت عليها من الصدمة . . وكأنني أنا الآخر أشفقت عليها من الصدمة . . ولذلك قلت لها . . إنه فعلا قد تم القبض عليها . . ولكني لم أسألها بعد . . وكنت قد أرجأت عملية المواجهة حتى يتم القبض على الزوج . . وسؤاله . . وأواجه الثلاثة بعضهم ببعض . . المرأة والزوج والفتاة . .

ووجدتني وهي تنصرف أزيد من طمأنينتها مرة أخرى كما وجدتني أيضاً أطلب لها طعاماً معيناً . . وأعطى أحد الحراس خمسة جنيهات ،

لتكون تحت إذن الفتاة تطلب منها ما تريد من طعام مدة التحقيق . .
ومع أن هذا قد يخالف بعض اللوائح . . إلا أنني باطمئنان وراحة بال
وضمير . . تغاضيت عما في هذا من مخالفات . . ولما انصرفت . . مكثت
في مكنتي بعض الوقت . . راجعت فيه بعض صفحات التحقيق . .
ومطابقة أقوال الفتاة لما قالته هذه المرأة . . وخصوصاً في ما يتعلق بالمجنى
عليها . . وفي ما كان خاصاً بدسوقي بالذات . . الذي أصبح هو مفتاح
كل شيء في هذه القضية . . وفكرت في أن أتصل بناية الغربية . .
وأطلب من الزميل وكيل النيابة الذي حقق معه تحت إشرافي أول مرة . .
أن يقبض عليه فوراً . . ويرسله إلى تحت الحراسة الشديدة . . ولكني لم
أستصوب هذا التصرف . . وفكرت في طريقة أخرى . . استعملتها كثيراً
في بعض التحقيقات . . ونجحت معي إلى حد كبير . . وهي أن أدعوه
لزيارتي . . في القاهرة بحجة أنني أريد أن أراه . . ولا سيما أنني أظهرت له
إعجابي بشخصيته عندما رأيته أول مرة . . وسوف يصدق هذا بطبيعة
الحال . . وعندما يجيء إلى مكنتي . . أفاجئه بالحقائق التي ستأخذ بخناق
فجأة . . ولا تجعل له فرصة يهيئ فيها ذهنه . . للمغالطة . . والإنكار
وعدم ذكر الحقائق . .

عدت إلى بيتي في هذه الليلة . . وظروف هذه القضية تستحوذ على تفكيرى كله . . والأقوال التى استمعت إليها . . تدور فى ذهنى . . وترن فى أذنى . . وظروف هذه الجريمة التى ما زالت حتى الآن غامضة . . تراقص خيوطها أمام عيني . . فقد أصبح من المقطوع به أن الهجنى عليها هى أم الفتاة . . وأنها ولدتها سفاحاً . . وأن الفتاة لم تعرف ذلك إلى الآن . . وأن الأم لظرف ما لم تذكر هذا للفتاة . . وأيضاً لم تتخل عنها . . بدليل أنها ظلت تبحث عنها كل هذا الزمن الطويل . . إلى أن التقت بها فى آخر الأمر تعمل راقصة . . فذهبت إليها تحت زى المعجبة . . والمخلصة . . والصديقة . . حتى اطمأنت إليها الفتاة . . ولما اطمأنت إليها . . حاولت كما جاء فى أقوال الفتاة . . أن تجعلها تمتنع عن الرقص — حتى ولو تورثها كل ما تملك — وهذا دليل قاطع على أنها أمها فعلاً

. . . ولكن إذا كانت أمها فعلاً — كما هو واضح حتى الآن — فما الذى منعها من أن تعترف لها بالحقيقة ؟ هل خشيت من أحد . . ومن تخشى إذا كانت كما ظهر من التحقيق . . لا أهل لها . . ولا أقارب . . ولا حتى أصدقاء . . وهل كانت تخشى مثلاً الرجل الذى ارتكب معها هذا الإثم . . والذى هو والد الفتاة . . وإذا كانت تخشاه . . وتخشاه

إلى هذا الحد . . فلماذا لم تظل علاقتها به قائمة . . ولماذا لم تتزوجه مثلاً . .
أو على الأقل يتردد عليها . . أو تتردد هي عليه . . وثابت من التحقيق
حتى الآن أنه لا أحد كان يتردد عليها . . ولم تتردد هي على أحد . .
وإذا كانت الجريمة وقعت فعلاً بسبب الفتاة . . باعتبارها ثمرة العار
وعنوانه . . فلماذا لم تقتل الفتاة . . ووسائل قتلها مهياً للجاني تماماً . .
لأنها هي الوسائل نفسها التي هيأت له ارتكاب الجريمة . . باعتبار أن
الفتاة كانت تتردد على البيت نفسه . . وتبيت فيه . . بل في المكان نفسه
الذي ارتكب فيه القاتل جريمته . . وإذا أخذنا بهذا القول . . وقطعنا بأن
الجريمة وقعت بسبب الفتاة . . فمن يكون مرتكبها . . والتحقيق حتى
الآن . . وبرغم الحقائق البالغة الأهمية التي أسفر عنها التحقيق . . لم يرسل
حتى بصيصاً واحداً . . نستطيع أن نستدل به على الجاني . .
وتذكرت دسوقي . . وموقفه الغامض حتى الآن . . وكيف أنه
كما أشار التحقيق يكاد يحمل مفتاح السر الحقيقي للجريمة . . ووقف
ذهني عند هذا الرجل طويلاً . . ووجدتني تلقائياً أسأل نفسي هذا السؤال :
— لماذا لا يكون دسوقي هو القاتل . . ولماذا أيضاً لا يكون هو الأب
غير الشرعي للفتاة — وكثير من صفحات التحقيق تكاد تشير إلى هذا —
ولكن إذا كان هو فعلاً . . فلماذا قتلها ؟ . . إن الثابت حتى الآن أن
علاقته بالمجنى عليها ظلت — كما ورد في التحقيق على لسان الفتاة ولسان
المرأة أيضاً — على أحسن حال . . من الود . . والإخلاص . . والتفاني

في خدمتها . . وما دام الأمر كذلك . . فلماذا لم يتزوجا . . ويعترفوا ببنة
الطفلة التي هي ابنتهما فعلا ؟ ؟ وهل منعهما شيء من الزواج . . هل
منعهما مثلاً . . ذلك الفارق الاجتماعي بين الاثنين . . هو كخادم . .
وهي كمخدوم . . واكتفيا بأن تظل العلاقة بينهما سرّاً . . وأن لا يذكر
شيئاً للفتاة . . وأن الذي ساعدهما على هذا . . على استمرار هذه العلاقة
بينهما كل هذه السنين . . هو هذا الفارق الاجتماعي بين الاثنين . . هذا
الفارق الذي هو بقليل ما أبعد عنهما الشبهات . . وطد العلاقة بينهما سرّاً . .
وجعلها قائمة بينهما كل هذه السنين الطوال .

وما إن فكرت في هذا . . واستوعبته تماماً . . ورجحت عندي كفته
حتى انبثق فجأة أمام عيني خيط باهر النور . . جعلني أعتقد اعتقاداً
لا يرقى إليه الشك . . في أن القاتل هو دسوقي . . وأن الجريمة لم ترتكب
بسبب الفتاة أو غيرها . . وإنما ارتكبت بسبب الغيرة . . إذ اكتشف
دسوقي . . أن للمجنى عليها عاشقاً غيره . . هو الرجل الذي شاهدته الفتاة
يتسلل من مخدع المجنى عليها في الليل . . ويؤيد هذا القول ما جاء على
لسان الفتاة من وصف دقيق للحادث . . عندما ضبطت المجنى عليها
ومعها رجل في مخدعها . . والحال التي كانت عليها المجنى عليها . . قميص
النوم الذي كانت ترتديه . . وارتباكها الزائد عندما اكتشفت الفتاة أمرها .
وضبطتها في حال تكاد تشبه التلبس .

وكنت قد وصلت إلى بيتي في تلك الليلة . . وكان البيت الذي نقطنه

قصرأ على النيل . . كانت قد ورثته أمى عن جدها . . وكانت أبها .
القصر وحديقته الواسعة مكتظة بالناخبين من أهل الدائرة . . التى كان
أبى مرشحاً لها لعضوية الشيوخ . . وكان يبنى على نجاحه فى هذه
الانتخابات الكثير من الآمال العراض . . ولذلك كان اهتمامه بهذه
المعركة زائداً . . يشغل كل وقته . . وكل تفكيره . . وكنت متعباً جداً . .
وأشعر بإرهاق شديد . . فقد ظلت ما يزيد على اليومين فى تحقیقات
دائمة . . ولذلك فكرت أن أتسلل من الباب الخلفى للقصر . . ولا أدخل
من باب الحديقة . . حتى لا أشارك فى هذا النفاق الاجتماعى . . وأظهر
بغير مظهرى . . كما يتطلب حال الانتخابات دائماً . . فأنت فيها مضطر
إلى أن تعامل السفلة وقطاع الطرق ، كما لو كانوا من الأنبياء والرسل . .
كما أنك لاتجد فيها من يحتنى بك . . ويشيد بفضلك . . ويعانقك
بحرارة . . إلا وهو لك من أشد الخصوم . . ولذلك عندما هبطت من
السيارة أردت أن أتسلل خفية من جانب السور حتى لا يرانى أحد ، غير
أننى فى أثناء ذلك سمعت صوت أحد الخطباء . . فوقفت أستمع إليه . .
وقد أطربنى كثيراً إشادته بأبى . . وما أسبغ عليه من صفات ووصفه
من وصف . . فما جعلنى أكاد من الزهو أهتر فى مكانى طرباً . . ومع
ذلك عندما انصرفت . . وجدتنى أسأل نفسى . . أهذا الخطيب مأجور . .
أم هو مقدر ؟ ! وهل هو يقول هذا من قلبه . . وبدافع الحقيقة . .
أو هو يقوله من جيبه . . وبدافع النقود التى تكتظ بها حافظته ؟ !

ومع ذلك لم أهتم إلى جواب . . . ذلك لأننا أحياناً لا نستطيع أن نفرق بين الزيف والأصل . . . ولا بين الصدق والكذب . . . إذ في كثير من الأحيان يكون طلاء الزيف أشد إقناعاً . . . وتكون حرارة الكذب أشد تأثيراً . . .

ثم انصرفت إلى الداخل . . . وصعدت مباشرة إلى الطابق العلوى من القصر ، حيث كانت والدتي في غرفتها تعاني آلام الربو الذى أخذت أزمته تشتد بها في تلك الأيام . . . وكنت من ثلاثة أيام لم أرها . . . فجلست معها حيناً . . . وأطلعتنى على سير المرض . . . ونتيجة الدواء . . . وكيف أنها بدأت تشعر بتحسن ملموس . . . غير أن الذى كان يضايقها هو انشغال أبى في معركة الانتخابات . . . والمتاعب التى يلاقها في سبيل ذلك . . . والمبالغ الباهظة التى ينفقها . . . حتى إنه أنفق إلى الآن - ولما تنته المعركة بعد - ما يزيد على العشرة آلاف من الجنيهات . وكانت أمى متأثرة لهذا تأثيراً كبيراً . . . مما زاد في أمراضها . . . ومع ذلك لم أرد أن أقول لها شيئاً لأننى لم أشأ أن أقول لها الحقيقة التى أعرفها . . . عن أبى . . . وهى أنه على استعداد لأن يضحي بكل ما يملك في سبيل الحصول على مجد جديد . . . فقد كان طموحاً . . . وكان طموحه لا يقف عند حد . . . ولذلك فهو على استعداد الآن لأن ينفق مئات الألوف من الجنيهات . . . لا عشراتها . . . وأن يضحي بكل شيء حتى بصحته . . . كل ذلك في سبيل نجاحه في هذه المعركة . لم أشأ أن أقول لوالدتي شيئاً من هذا . . . ولذلك غيرت دقة الحديث . . . ورحت أتحدث إليها عن المرض ثانياً . . . والمريض يلذ له دائماً أن يتحدث

عن المرض والطب والدواء . . وما إلى هذا من أشياء يستشعر هو أهميتها قبل غيره . . ومكثت أتحدث معها بعض الوقت . . وكان أبى قد علم بوجودى فى البيت . . وبأننى فى الطابق العلوى . . فاستدعانى إليه فوراً فى الحديقة ليقدمنى إلى البارزين من أهل الدائرة . . أو على الأصح يقدمهم إلى . . فقد كان يفخر بى كثيراً ويزهو بمركزى فى القضاء وبمنصبى كأحد رجال الضبط والربط فى الحكومة . . وكان هذا كله من غير شك يقوى من مركزه كوالد لى عند هؤلاء السذج من الناس .

وبرغم إرهاقى الشديد فقد لبى طلبه وذهبت إليه ووقفت على قدمى ما يزيد على نصف الساعة . أصفح هذا وأعانق ذاك وأبتسم لهذا الشئ وأطرب لهذا المديح وأصفق لهذا الخطيب وأستعيد أبيات هذا الشاعر . . حتى كدت أنا الآخر أشارك مشاركة فعلية فى هذا النفاق الكبير ، لولا أننى وجدت أمامى مصادفة . . الشيخ مروان عمدة القرية التى يتبعها دسوقى الذى سبق سماع شهادته فى القضية . . والذى هو باعتبار ما سيكون — إذا صدق حدسى — المتهم الأول فى القضية . . وقلت هذه فرصة أستدرج فيها العمدة دون أن يفطن لعلى أعرف ما يهمنى معرفته عن دسوقى قبل أن أقبض عليه وأسأله رسمياً ، أو أوجه إليه تهمة القتل . .

وانتهزت فرصة حفاوة العمدة بى وسعادته بالجلوس فى حضرتى واسترسلت معه فى الحديث . . وسألته عن حال المحصول الزراعى هذا العام . . وما سببته الإصابات فى محصول القطن هذه السنة . . ثم سألته عن حال

الآمن في الأرياف وأظهرت له إعجابي به وتقديرى له . . لقلة الحوادث في منطقته . . وكثرتها في المناطق الأخرى - مع أن العكس هو الصحيح - فزاد هذا في طربه وسعادته مما جعله يكاد يرقص فرحاً . . وهكذا ظلمت به حتى جعلته هو الذى يطرق حديث القضية . . ويسألنى عما تم بشأنها . . فقلت له دون مبالاة . . وكأننى أتحدث عن شيء لا أهمية له . . إنها أوشكت على الانتهاء . . وسوف تقيد ضد مجهول . . فقد ثبت من التحقيق تعذر معرفة الجناة . . فراح يترحم على المجنى عليها . . التى كانت - كما قال - المثل الأعلى للأخلاق الطيبة والسجايا الكريمة . ولما سألته هل كان يعرفها عن قرب ؟ . . قال : إنه كان يسمع عنها فقط . . لأنها كانت تقيم دائماً في القاهرة . . وإنما حدثه عنها كثيراً دسوقي ، الذى كان على اتصال دائم بها . .

وجرنا ذكر اسم دسوقي بطبيعة الحال إلى التحدث عنه كثيراً . . وراح الرجل يمتدحه . . ويثنى على أخلاقه ويعدد مناقبه وسجاياه وإيمانه الذى لا حد له ووفاءه الذى كان يشبه وفاء الملائكة للمجنى عليها . . وكيف أنه كان لها أباً وأخاً وخادماً . . وكيف أن حزنه ما زال عليها إلى الآن قائماً . . وبكائه عليها لا ينقطع . . وكان أبى قد حضر طرفاً من هذا الحديث فأمن على القول . . وقال إنه وإن كان لا يعرف دسوقي معرفة مؤكدة أو تربطه به صلة . . إلا أنه سمع عنه الكثير من الشاء . . وانتهزت أنا هذه الفرصة المواتية . . وألقيت بالحجر الذى أريد . . ورحت

أنا أيضاً أنى عليه وعلى ما ظهر لى من أخلاقه الطيبة أثناء سؤاله فى القضية . وكيف أنى أحبيت فيه الكثير من الصفات . . منذ ذلك اليوم . . وكيف أنه حاول أن يكرمنى أنا بالذات كرمأ حاتميأ عندما انتقلت إلى بيته أنا والزميل وكيل نيابة الغربية الذى كان يحقق معه بحضورى . . وأن يقدم لنا الفطير والزبد والدجاج وطواجن الفريك المحشوة بالحمام . . مما يجعلنى الآن أفكر فى دعوته لزيارتى فى القاهرة . . ولما أظهرت صدق هذه الرغبة تطوع العمدة سريعاً بتنفيذها . . وأخبرنى بأنه بمجرد وصوله إلى القرية فى مساء الغد . . أو صباح بعد غد على الأكثر . . فسوف يبعث به إلى . . وسوف يسره هذا ويسعده كثيراً . . بل يزيده فخراً . . وشعرت باطمئنان زائد إلى هذه الوسيلة التى سأستدرجه بها إلى دون أن يتسرب إليه أدنى شك فى السبب الذى أدعوه من أجله . . ثم تحدثنا بعد ذلك بعض الأحاديث العابرة إلى أن انفض ذلك السامر الانتخابى الكبير . . وانطفأت شعلة النفاق الاجتماعى التى تشتعل فى هذه المناسبات . . وذهبت لتزود بالوقود . . لتشتعل وتضىء فى الليلة القادمة . . وجلست مع أبى الذى كان بادى التعب والإرهاق إلى حد كبير . . بعض الوقت فى الصالون . . ريثما يشرب فنجاناً من القهوة . . فقد كان من عادته أن يشرب القهوة لينام . . وكنت أقدر فيه هذه الأعصاب . . وتطرق بنا الحديث فى هذا الوقت القصير إلى أمور عدة . . تحدثنا عن والدتى ومرضها . . وعلة الربو التى بدأت تأخذ بنخاتها . . وتحدثنا عن الانتخابات

ومتاعها . . ومركز المنافسة لأبي من حيث القوة والضعف . . والأمل الكبير الذي يبنيه أبي على الحفل الانتخابي الضخم الذي سيقمه قريباً . . ويحضره زعيم الحزب الذي ينتمى إليه .

ثم تطرق بنا الحديث إلى عملي وبعض القضايا التي أهتم بها . . وسألني عن ظروف بعضها وملايساته . . فقد كان دائماً يهتم بعملى ويتبع خطوات نجاحى . . وكنت أحياناً أشرح له بعض الدقائق . . وكان هو يبدى لى بعض الآراء الصائبة . . التي كثيراً ما كنت آخذ بها . . وأذكر أنه ذات مرة وجه نظرى إلى نقطة كانت غائبة عني . . فى إحدى القضايا السياسية الهامة التي كان لها بعض الدوى فى ذلك الحين ، وفعلاً كانت هى نقطة التحول الخطير فى القضية . . والثقب الذى نفذنا منه إلى الحقيقة كاملة .

ثم تطرق بنا الحديث إلى هذه القضية بالذات . . فذكرت له الحقائق الغريبة التي وصل إليها التحقيق حتى الآن . . وكيف أنه اتضح أن الفتاة التي قبض عليها لم تكن ابنة هذه المرأة التي ظلت كل هذه السنين توهمها بأنها أمها . . وأنها ابنة سفاح . . وأن جميع الخيوط بدأت تتجه الآن . . وتنتقل من الشك إلى مرتبة اليقين بأنها ابنة المجنى عليها . . وأن القاتل هو دسوقى . . وفرح أبى كثيراً لهذه المعلومات التي وصلت إليها . . ولكنه اندهش دهشة كبيرة . . إذ كيف يرتكب دسوقى هذه الجريمة الفظيعة . . وهو الذى نقول عنه ما نقول ونصفه بما نصف . . وما زالت دموعه على القتيلة لم تجف حتى اليوم . . فأفهمته بأن كثيراً من الذئاب إذا تأصلت

فيها جذور الضراوة ترتدى زى الحمل . . فازدادت دهشته . . وسألنى فى
 استغراب كثير . . لماذا والأمر كذلك لم أقبض عليه حتى الآن . . بل
 لماذا كنت أتحدث عنه هذا الحديث مع العمدة . . فأفهمته بنظريتى . .
 فلم يقتنع بها . . وطلب منى سرعة القبض عليه فوراً . . ولكنى لما شرحت
 له نظريتى وكيف أنها نجحت معى فى أكثر من قضية . . ومع أكثر من
 متهم . . انصرف وهو يدعو لى بالتوفيق فى كل خطواتى . .

في الصباح . . ذهبت إلى مكنتي . . واستأنفت التحقيق في القضية .
 وكان زوج نظيرة الذي ورد ذكره في التحقيق قد قبض عليه . . وتم ترحيله .
 فاستدعيته إلى في الحال . . ولما مثل أمامي رأيته رجلاً غليظ القلب . .
 تتسم نظراته بالقسوة والعنف . . وله تجاعيد متطو بعضها على البعض
 الآخر . . وملتوية أشبه بالتواء جسم الأفعى . . الذي يكمن وراءه الشر . .
 ولذلك انتظرت منه الكثير من المتاعب . . ولكي أحطم فيه هذه
 الغلظة ، وأحد من قسوة هذه النظرات التي تنبعث من عينيه الجامدتين . .
 قلت له في غلظة وأنا أنظر إليه قبل أن أبدأ معه التحقيق ، وأدون أقواله
 في المحضر :

— أنت متهم بجريمة قتل . .

فلم يحرك فيه هذا القول ساكناً . . أوحى تطرف له عين . . وإنما
 قال وهو ينسم في هدوء لا حد له :

— أما إنني متهم بجريمة قتل . . فهذا شيء . . وأما إنني لم أقتل
 في حياتي حتى دجاجة . . فشيء آخر . .

وأعجبني منه هذا الرد الذي ينطوي على سخرية لازعة . . وفي الوقت

نفسه يتم عن اطمئنان عجيب . . ثم بدأت معه التحقيق . . وبعد أن سأله عن اسمه وسنه ومحل إقامته . . وبعض أسئلة أخرى سريعة قلت له :

— هل أنت متزوج من نظيرة أحمد البسيوني ؟

— نعم .

— منذ متى تزوجتها ؟

— لا أدري . . وإنما هي سنين طويلة . .

— اذكر التاريخ على وجه التحديد . .

فقال وهو يخرج من صدر ثوبه . . حافظة جلد كبيرة لها عدة أزرار نحاسية لامعة . . ويخرج منها ورقة . . ويقدمها لي :

— هذه قسيمة الزواج . .

وأدهشني أنه يحملها في جيبه . . فقلت :

— هل أنت تحمل هذه القسيمة في جيبك دائماً ؟

— لا . .

— لماذا إذن تحملها في جيبك الآن ؟

— احتفظت بها معي عقب القبض على زوجتي . .

ولما قارنت التاريخ والوقائع التي ذكرتها زوجته . . ووجدتها مطابقة

تماماً . . قلت :

— هل كنت تعلم سبب القبض على زوجتك ؟

— طبعاً . .

— ما هو ؟

— علاقتها بهذه الفتاة التي تشتغل راقصة .

— فقط ؟

— وعلاقتها أيضاً بتلك السيدة التي وجدت قتيلة في بيتها . .

— من أين عرفت هذه المعلومات ؟

— من زوجتي . . وأنا أيضاً كنت أعرف بعض المعلومات . .

— ما هي هذه المعلومات التي تعرفها ؟

— أن زوجتي كانت تتبنى هذه الفتاة وهي طفلة . . وأنها كانت

تعرف القتيلة .

— هل كانت زوجتك تتبنى الطفلة . . أو هي ابنتها فعلاً ؟

— لا . . لا . . كانت تتبناها .

— قالت زوجتك في التحقيق .. إنك اتهمتها يوماً ببنوة هذه الطفلة ..

— شككت فقط . .

— ما هو سبب هذا الشك ؟

— الحقيقة أني لما وجدت هذا الرجل الرينى الذى كان يتردد على

زوجتي — قبل أن أعقد عليها — ليعطيها بعض النقود لتنفق منها على

الطفلة . . ووجدت حبه الزائد للطفلة وعطفه عليها . . وبكاءه أحياناً إذا

رآها . . ورأيت أيضاً تعلق زوجتي الزائد بالطفلة — شككت في الأمر .

— شككت في ماذا ؟

— في أن الطفلة ابنة زوجتي من هذا الرجل .

— ما اسم هذا الرجل ؟

— دسوقي .

— ما هي أوصافه ؟

ولما وصفه وصفاً دقيقاً . . يطابق الحقيقة . . قلت :

— وصفت زوجتك في التحقيق دسوقي بأنه كان على شيء كثير من

التقى والتدين والخلق الحسن . . وأنه كان يصلي دائماً .. فكيف يتسرب

إليك الشك . . إذا كان كذلك فعلاً ؟

— الحقيقة أنا لا أطمئن كثيراً . . لبعض الذين يتظاهرون بالتقوى

والصلاح . . . وكثرة الصلاة . .

— هل كانت زوجتك كذلك ؟

— لا . .

— لماذا شككت فيها ؟

— هكذا حدثتني نفسي . .

— ولماذا لم تطلب من زوجتك التخلي عن الطفلة ؟

— رفضت . . وكنت لم أعقد عليها بعد .

— ألم تذكر لك سبب الرفض ؟

— كانت فرحة جداً بالثلاثة جنينها التي كانت تأخذها في كل

شهر . . والحقيقة أن هذا المبلغ في ذلك الحين كان ثروة كبيرة . .

- قلت إنك كنت تشك . . فما الذى أزال شكوكك ؟
- الحقيقة . . والأحاديث التى كنت أستمع إليها خلست تدور بين زوجتى ودسوقى كلما جاء إليها . .
- تقول الحقيقة . . فما هى الحقيقة ؟
- تأكدى من أن زوجتى لم تتعرف على دسوقى إلا بعد أن عثرت على الطفلة فى الطريق بما يزيد على الشهر . . وبعد أن تعرفت على القتيلة، وأن دسوقى لم يكن أكثر من رسول بين زوجتى وبين أم الطفلة . .
- من هى أم الطفلة ؟
- الله يعلم . .
- تقول أم الطفلة . . معنى ذلك أنك تعرفها . .
- أعتقد أنها هى السيدة التى كانت تردد على زوجتى فى أول الأمر من أجل الطفلة . .
- ما الذى يجعلك تعتقد ذلك ؟
- الأحاديث التى أسمعها تدور بين زوجتى ودسوقى . .
- ما هى هذه الأحاديث ؟
- عطف دسوقى على تلك السيدة وحديثه عنها بالخير دائماً . . وكيف أنها لم تكن تستحق هذا العذاب الذى تعيش فيه من أجل هذه الطفلة . . وقوله دائماً كلما سألته زوجتى عن شىء . . إن الله حلیم ستار . . وربنا يجازى أولاد الحرام . .

- وهل هذا كاف ليجعلك تعتقد هذا الاعتقاد؟
- طبعاً . . وإلا فلماذا سعت إليها وتعرفت على مكانها . . وظلت تمد زوجتي بالنقود . . من أجل الطفلة كل تلك السنين؟
- إذا كانت ابنتها فعلاً . . فلماذا تخلت عنها؟
- ظروف . .
- قالت زوجتك في التحقيق . . إن هذه السيدة قالت لها إن الطفلة ابنة قريبة لها وليست ابنتها . .
- طبعاً تقول ذلك . .
- ما الذي يجعلها تقول ذلك؟
- الظروف . .
- ما هي هذه الظروف؟
- الله يعلمها . .
- هل هذه فقط الأسباب التي أزلت شكوكك؟
- نعم . .
- وهل تظنها كافية لتزيل شكوكك؟
- طبعاً . . والدليل أنني عندما عقدت على زوجتي . . وطلبت منها أن تتخلي عن الطفلة . . تخلت عنها نهائياً . .
- ولماذا لم تكن قد فضلتك كزوج . . على الطفلة كابنة؟
- ليس في الوجود ما يفضل الضنى . . أو يجعلنا نتخلي عنه . .

— إذن لماذا تخلت تلك السيدة عن طفلتها . . وألقت بها في الطريق ؟

— الشرف فقط . . هو الأعلى ثمناً . .

— أى شرف . . وهى قد ولدتها سفاحاً ؟

— الله يعلم بالأسباب . .

وصمت لحظات . . أستوعب فيها هذا القول . . وأتخيل هذا الصراع

الجبار الذى يقوم بين الإنسان وشرفه . . وبين الإنسان وفلذة كبده . .

وما هى قوة تلك الأسباب التى تدفعنا إلى التناول على هذه القديسيات

التي تنبض في دمائنا حتى تجعلنا نلقى بفلذات أكبادنا على الأرض . .

وندوسها بالأقدام . . وتجعلنا نبيع بالثمن البخس أغلى ما في حياتنا . .

وهو شرفنا — كما يقول هذا الرجل — وكدت أسترسل في هذه الهواجس . .

وأنسى ما أنا فيه . . والرجل الذى أمامى ، لولا حركة بدت في الغرفة

فأيقظتنى وأعادتنى إلى ما أنا فيه وجعلتنى أستأنف أسئلتى له . . فقلت

بعد أن رجعت إلى بعض صفحات التحقيق :

— هل شاهدت الطفلة . . بعد أن كبرت واشتغلت راقصة ؟

— لا . . لم أشاهدها إلى الآن . . ومنذ أن كانت طفلة في الثالثة أو

في الرابعة من عمرها . .

— تقول زوجتك إنك شاهدها ترقص في أحد الأفلام . .

— نعم . . وهى التى تعرفت عليها . .

— وكيف تعرفت عليها ؟

— بالشبه . . وبجسنة كانت فى كنفها . . وقد تحقق أنها هى فعلا . .
عندما حضرت زوجتى إلى القاهرة . . وتعرفت على عنوانها . . وذهبت إليها .
— كيف تعرفت على عنوانها ؟

— أنا الذى تعرفت عليه .

— ممن ؟

— أحد أقاربى . . وهو يبيع اللب والسودانى فى إحدى دور السينما .
— ولماذا لم تذهب إليها مع زوجتك ؟

— الحقيقة أنا رجل صعيدى . . والشرف عندى له قيمته .
— وما دخل الشرف فى هذا ؟

فقال الرجل محتدًا . . وفى صوته غلظة . . وكأنه يؤنبنى :

— كيف لا دخل للشرف . . وهى ابنة زنا . . وراقصة ؟

— إذن كيف سمحت لزوجتك بأن تذهب إليها ؟

فانحنس صوت الرجل . . وقال فى خجل كثير . . وهو ينظر إلى

الأرض ، وكأنه يؤنب نفسه هذه المرة :

— الحقيقة . . أنا لا أعرف لماذا فعلت هذا . .

ولما أحسست بنجسه حقيقة . . أشفقت عليه . . ووجهت إليه سؤالاً

آخر . . وقلت :

— هل شاهدت تلك السيدة التى كانت تتردد على زوجتك ؟

— شاهدتها مرة واحدة . . عندما جاءت إلى زوجتى فى البدارى . .

- ما هو تاريخ ذهابها إلى زوجتك في البدارى ؟ !
- لا أذكر .
- تذكر . .
- سنة تقريباً . .
- قالت زوجتك تسعة أشهر . .
- هي أصدق . .
- لماذا ؟
- النساء دائماً أقدر على حساب الأيام . .
- سنة . . أم تسعة أشهر ؟
- تسعة أشهر . . وقد تذكرت الآن .
- تذكرت ماذا ؟
- أنها جاءت إلى زوجتي في رمضان . .
- هل كانت وحدها . . أو معها أحد ؟
- كان معها دسوقي . .
- ماذا كان شعورك عندما شاهدتهما معاً ؟
- من أى ناحية ؟
- قلت في التحقيق . . إنك تشك في أن السيدة المذكورة هي أم
- الطفلة وأن دسوقي هو والدها . .
- الحقيقة . . تحول شكى إلى يقين . .

— ما الذى جعلك تؤمن بهذا ؟

— الحب . . والحنان . . والعطف المتبادل بين الاثنين . . والمعاملة التى كان يعاملها كل منهما للآخر . . لم تكن أبداً معاملة خادم لمخدوم . . وإنما معاملة أهل أو أصدقاء . . وغير ذلك . . الفرحه الزائدة التى كانت تتألق فى عين الاثنين عندما ذكرت لهما زوجتى عنوان الفتاة فى القاهرة .

— ألم تلاحظ أيهما كان أكثر فرحاً ؟

— هى طبعاً . . لأنها لم تملك شعورها . .

— ماذا فعلت ؟

— احتضنت زوجتى . . وقبلتها . .

— ودسوقى ؟

— فرح أيضاً . . ولكن فرحته كانت أقل . .

— لماذا ؟

— لأنه رجل . . والرجل يستطيع أن يكبت شعوره . .

— ولكنها ابنته أيضاً كما تقول ؟

— ولكنها أيضاً ابنة حرام . .

وكأننى نسيت ذلك . . لأننى تأملت . . وعادنى إحساس بالعطف الشديد

على الفتاة . . ولذلك صهمت بعض الوقت . . ثم قلت لأنتهى من استجوابه :

— لماذا جاءت المحبى عليها ومعها دسوقى إلى زوجتك فى البدارى من

تسعة أشهر ؟

- لتعرف منها على عنوان الفتاة .
- وأين كانت كل هذه السنين ؟
- قالت إنها كانت تجهل عنوان زوجتي . .
- ومن الذى دها عليه ؟
- قالت إنه رنجل كان يبيع الخروب والعرقسوس فى القلعة . . وكان فى السجن وخرج منه . .
- لماذا دخل السجن ؟
- سمعهم يقولون إنه كان يتجر فى المخدرات . .
- هل كانت لك علاقة به ؟
- لا ولم أعرفه . . ولم تكن لى به أية علاقة . .
- هل كان يعرف زوجتك ؟
- طبعاً . . وكان يقطن معها فى حى واحد . . وبائع العرقسوس كالمسحراتى يعرف بيوت الحى بيتاً بيتاً . . وأشخاصه شخصاً شخصاً . .
- هل كان هذا الرجل يعرف أن زوجتك انتقلت معك إلى البدارى ؟
- كنت أعتقد أنه لا يعرف عنوانها . .
- لماذا ؟
- لأننى نهيت على زوجتي ألا تذكر عنوانها لأحد إطلاقاً . .
- لماذا نهيت عليها بذلك ؟
- لأننى كنت أريد أن أقطع علاقتها بالطفلة نهائياً . .

— ولماذا كنت تريد ذلك ؟

— لأنها ابنة دنس . . وأنا لا أريد أن أدنس نفسي . .

— وما ذنب الطفلة ؟

— البذرة التى تنبت فى العفن . . تظل رائحتها عفنة ، حتى ولو أثمرت

الورد . .

فأعجبني هذا المثل يصدر من مثل هذا الرجل الرقيق الساذج الذى
شعرت نحوه باحترام زائد وقلت له :

— إذا شاهدت صورة هذه السيدة فهل تستطيع أن تعرف عليها ؟

— طبعاً . .

فقدمت له نفس المظروف الذى كنت قدمته إلى زوجته والذى يضم
عدة صور لنساء مختلفات من بينها صورة القتيلة . . وما إن فضه الرجل
وتفحص الصور حتى تعرف على صورة المحبى عليها . . وقدمها إلى . .
وبذلك انتهت أقواله . . فاستدعيت زوجته نظيرة أحمد البسيونى وواجهتها
به . . ولما شاهدها الرجل ثار عليها ثورة عنيفة . . وكادت يده تمتد إليها . .
لولا أننى انتهرت ، ذلك لأنه اعتبرها المتسببة له فى القبض عليه . . والخرج
الذى هو فيه . . مع أنهما معاً لا دخل لهما فى الموضوع .

* * *

تمت عملية المواجهة . . ولم تأت بجديد فى التحقيق . . إذ أكد
كل منهما أقوال الآخر جريئاً . . وهى بطبعها متسمة بالصدق طوال

التحقيق . . ومؤكدة من غير هذه المواجهة . . ثم بقی بعد ذلك أن أواجه الفتاة بهما . . وشعرت بثقل هذه المهمة .

وأشفقت على الفتاة من الصدمة . . عندما تواجه بالشاهدين . . وتعرف أنها ابنة زنا . . وأن هذه — نظيرة أحمد البسيوني — التي ظلت كل هذه السنين توهمها بأنها أمها . . لم تكن أمها فعلاً . . وأن أمها الحقيقية . . لم يزل سرها في علم الغيب . . وإن كانت الشكوك جميعاً تؤكد بأن أمها هي المحبني عليها . . وأن والدها هو دسوقي . . وتمثل لعيني هول الصدمة ووقعها على الفتاة . . وفداحة الخطب الذي سينزل بها . . وتذكرت أولئك الذين يرتكبون هذا الخطأ . . ويتسببون في هذا الفعل . . وهل هم يقدررون نتائجهم . . ويستشعرون السوء الذي يخلفه . . والظلم الذي يوجده . . وهذا الظلام الذي يعيش فيه الأبرياء ؟ ١ . . أو هم لا يشعرون . . أو هم أكثر شعوراً به من غيرهم . . وإحساساً بالظلام الذي يخلفونه . . لأن أيديهم هي التي تطفى المصباح . . ومع ذلك يرتكبونه . . سألت نفسي هذه الأسئلة جميعاً . . وإذا بالجواب يجيئني سهلاً . . وهو كثرة الجرائم الخلقية التي حققت فيها . . أو التي عرضت على . . وقلت ألا ما أبشع الإنسان الذي يرتدى زى الحمل وهو أكثر ضراوة من وحش مفترس . . كما قال أبي ! . .

وكأن هذا الذي كنت أفكر فيه من إشفاقى على الفتاة ووقع الصدمة على نفسها . . كان هو تماماً الذي تفكر فيه أيضاً المرأة . . الساذجة

الواقفة أمامي . . لأنها ما إن سمعتني أطلب استدعاء الفتاة ، حتى ارتعشت شفتاها وراحت تتوسل إلى أن لا أذكر للفتاة شيئاً عن حقيقتها . . وكانت الفتاة قد حضرت ولاحظت عليها وهي تدنجل أنها منطفئة الوجه . . ذابلة النظرة . . كأنها خارجة من كهف . . بعد عديد من السنين . . وما إن وقعت عيناها على « أمها » الماثلة أمامي . . حتى تقدمت منها . . وقدمت لها يدها . . وصافحتها . . وهي تتمم بصوت خفيض جداً . . وكأنها لا تريد أن يسمعها أحد :

— أهلا بأمي . .

نبكت المرأة وسالت دموعها . . فظنتها الفتاة تبكي من أجلها . . فراحت تطمئنها . . وتؤكد لها بأنها بريئة . . وأن علاقتها بالجنى عليها لم تكن أكثر من صداقة . . وأنها كما قالت في التحقيق لم ترها . . من قبل الحادث بعشرين يوماً . . فازداد بكاء المرأة . . وتعالى نحيبها . . وكأنما ظنتها الفتاة تبكي لما تلاقيه هي من سجن . . فراحت تطمئنها من هذه الناحية وتذكر لها عطفي عليها ورعايتي لها في السجن . . والطعام الذي أمرت بتقديمه إليها . . وكانت تشير إلى . . وتذكر لها هذه الآثار . . بنبرات رقيقة . . شفاقة . . وباكية في الوقت نفسه . . مما جعلني أزداد إشفاقاً عليها . . وأحاول اختصار سؤالها ثانية بقدر الإمكان . . وأنهى هذا الموقف سريعاً . . هذا الموقف القاسي الذي شاء القدر للفتاة أن تقفه . . ولذلك قلت لها . . وبلا مقدمات . . وأنا آذن لها أن تجلس . . لأنها

كانت متعبة جداً . . . وغير قادرة على الوقوف :

- هل تعرفين هذا الرجل . . . فضالى أحمد عبد الموجود ؟
- وأشرت إلى الزوج الواقف . . . فقالت وهي تنظر إليه فى دهشة :
- لا . . . لم أعرفه . . . ولم أره فى حياتى غير الآن . . .
- إنه زوج نظيرة أحمد البسيونى . . .

فندت عن الفتاة أنه حبيسة . . . وقالت وهي تعاود النظر إليه فى دهشة كبيرة :

- زوج أى ؟ !
- إنه زوجها . . .
- فانخفض صوتها . . . وقالت وهي ما تزال تنظر إليه :
- لا . . . لم أعرفه . . .
- فقلت للرجل الذى كان يتأملها من رأسها إلى أخمص قدميها :
- وأنت هل تعرفها ؟
- لا . . . وهذه أول مرة تراها عيني . . .
- قلت فى التحقيق إنك شاهدها قبل ذلك ؟
- فى السينما . . . وهي عريانة ترقص فى الفيلم . . .
- فנקست الفتاة رأسها وانخفضت نظراتها إلى الأرض . . . وواصلت أنا سؤالى للرجل :
- هل هذه هى التى شاهدها ترقص فى الفيلم ؟

— نعم هي . .
 — هل أنت متأكد ؟
 — طبعاً . .

فقلت للفتاة وأنا أشير إلى نظيرة أحمد البسيوني الواقفة بجوارها :
 — هل تعرفين نظيرة أحمد البسيوني ؟
 — إنها أمي . .

نطقها الفتاة في إيمان لا حد له . . وأيضاً في سذاجة متناهية . .
 فقلت لها وأنا أمسك أنفاسي . . إشفافاً عليها :
 — قالت نظيرة أحمد البسيوني . . بأنها ليست أملك . . ولست أنت
 ابنتها . . وأنه لم يكن لها أولاد . . وأنها لم تنجب في حياتها . . وكل ما في
 الأمر أنها كانت تتبنك فقط .

وأغمضت الفتاة عينيها فجأة . . شأن من يفاجأ بنور باهر يصدم
 عينيه أو يغرق في ظلام دامس فيمسك أنفاسه . . وقالت وهي تتفرس
 في وجوهنا نحن الثلاثة . . بعينين راح جحوظهما المخيف يزداد شيئاً فشيئاً :
 — ماذا تقول ؟

— تقول إنها ليست أملك . . وإليك لست ابنتها . .
 فقفزت الفتاة عن المقعد وأمسكت بكتف المرأة الواقفة أمامها .
 وأعادت عليها السؤال في ذهول :
 — ماذا تقولين ؟

ولما لم تنطق المرأة . . أوحى تطرف . . صرخت الفتاة في وجهها
صرخة مدوية . . وقالت وهي تهزها في عنف من كتفها . . حتى لتكاد
تسقطها على الأرض :

— انطقي . .

—

— تكلمي . . .

—

— قولي . . .

فازداد نحيب المرأة . . وقالت وهي تنألم فعلاً . . وتغرق في الدموع :
— ماذا أقول ؟

فصرخت الفتاة في وجهها :

— قولي لماذا تنكزين لي . . الآنني راقصة . . تبرئين مني . .

— قلت إنك طاهرة وعفيفة ومتدينة . . وتتصدقين على الفقراء . .

وتعرفين ربك جيداً . .

— لماذا إذن قلت إنني لست ابتك ؟

— لأنها الحقيقة . .

فازدادت عيناها نجحوظاً . . وعلت وجهها غيرة . . لم أشهدا من

قبل على وجه بشر . . وقالت وهي ترتعش :

— الحقيقة أنك لست أمي ؟ !

— نعم . .

— ومن هي أمي إذن ؟ !

— يعلمها الله . .

— ومن أين جئت بي أنت ؟ !

— وجدتتك قطعة من اللحم . . ملقاة في الطريق . . فأشفقت عليك

وتبنيته خمس سنوات . .

— إذن أنا . .

نطقت الفتاة هذا في دعر . . وكأنها حافت أن تكمل . . فرمت شفتيها . . ولم تتم . . ومن ثم أنهارت قواها . . فسقطت على المقعد الذي كان أمامها تنن وتتوجع . . وكُل شيء فيها يحترق في صمت . . حتى زفرتها التي كانت تخرج كألسنة النار . . وكأنها تخرج من بركان ينفجر — كانت ما تكاد تبلغ شفتيها حتى تتحول إلى ما يشبه سحائب من الدخان مما أثار إشفاقنا جميعاً . . حتى هذا الرجل الزوج الذي كان وجهه كالحجر الصلب . . رق وشف . . وانقلب إلى وجه طفل تغشاه الدموع . .

وظلت الفتاة كذلك حيناً . . إلى أن استعادت بعض قواها . . ففتحت عينيها . . وكأنها تفتحهما على حلم مزعج . . ولما رأتني أمامها . . ورأت محضر التحقيق لا يزال مفتوحاً أمامي . . ورأت أحد الجنود مدججاً بالسلاح . . وما زال يقف في مكانه بجانب الباب . . تذكرت أنها سجينه

وأنه يحقق معها وأنها غير قادرة على النطق . . ولهذا نكست رأسها تقول
في توسل كبير . . وهى ما زالت تن وتتوجع :

— هل تأذن لى أن أنصرف ؟

— إنى أين ؟

— إلى غرفى فى السجن . .

— لماذا ؟

— إنى غير قادرة حتى على النطق .

ولما رأيها متخاذلة فعلا إلى حد كبير . . قلت :

— هل أنت مريضة ؟

— إلى حد . .

— هل تحتاجين إلى طبيب ؟

— أشكرك . .

ورأيت أن أى سؤال يوجه إلى أحد من الثلاثة بعد ذلك لن يأتى
بجديد . . أو يضئ على هذه الظلمة التى ما زالت تكتنف الجريمة شيئاً
يفيد . . ولذلك أنهيت التحقيق فى هذه الليلة عند هذا الحد . . وأمرت
بإعادة الثلاثة إلى السجن . . كما طلبت إلى المسئولين فى السجن وضع
الفتاة تحت المراقبة نظراً لسوء حالتها الصحية والنفسية . . وانصرفت فى
تلك الليلة والفتاة تشغل تفكيرى، وصورتها وهى تن وتتوجع وتحترق
— كحزمة هشة من القش — تشتعل فيها النار — تروح وتجيء فى خاطرى..

لقد قدر لى بحكم مهنتى . . أن أشاهد أحداثاً جمّة . . وأرى فواجع كثيرة . . رأيت الإنسان الذى يزدرى الحياة فى شخصه . . وتهون عليه لدرجة الانتحار . . ورأيت وهو يموت . . سواء من يميته الندم . . أو من يميته السلاح الذى قتل نفسه به . . رأيت ذلك الإنسان ورأيت تأوهاتة وصرخاته . . ورأيت الإنسان الذى يلتف جبل المشنقة حول عنقه . . وأحييت بمشاعره والحياة الغالية ترقص عارية أمام عينيه فى هذه اللحظات . . مبرزة له بهجتها ومفاتها . . لتريده حسرة على فراقها فى لحظات الوداع الحاطقة، ورأيت الإنسان عندما يسفك شرفه . . ولا يجد وسيلة للذود عنه . . فيسفك هو دماء نفسه . . وكيف أن كل نقطة من هذه الدماء كانت تحرق وجهه . . وتنطبع عليه نقاطاً من نار وهى تخفى خلفها دم ذلك الشرف المسفوك . . ورأيت الأم التى تفجع فى ابنها . . والابن الذى يفجع فى أبيه . . والأب الذى يفجع فى فلذات كبده فلذة إثر فلذة . . رأيت هذه النار وحرقتها . . وهذه الدماء وبشاعتها . . وكل هذه الآلام ومرارتها . . ولكنى لم أر أبداً مثل هذه النار التى تحرق الإنسان عندما يفتقد أصله . . عندما يفتقد نفسه كإنسان . . عندما يعرف أنه جاء عن الطريق الذى

تجىء منه أخط الحيوانات .. عندما يعجز حتى عن معرفة الإناء القدر
والكلب الذى ولغ فيه .. عندما يعرف أنه هو نفسه هذه النجاسة التى نضح
بها الإناء .. وأن هذه النجاسة لن تلتصق به أو تلاحقه .. وإنما هو الذى
سيلاحق بها الناس .. لأنه هو أصلها .. لأنه هو ثمرتها .

ورأيتنى دون قصد أو تفكير أفكر فى هذا كله .. وفى هذه القضية
التي أمامى .. والتي قبل أن أصل فيها إلى النجاح أو الإخفاق .. فى وضع
يدى على الجاني .. وضعت يدي على مجنى عليه آخر ليس من فارق
بينهما إلا أن المجنى عليها الأولى قتلت ولفظت أنفاسها .. وماتت ..
وشيعت إلى مقرها الأخير ، أما المجنى عليها الثانية فقد قتلت أيضاً ..
ولكنها لم تمت .. وإنما هى تموت .. وستظل تموت .. وستظل تلفظ
أنفاسها ولن يغيثها الموت .. ولن يغيثها أيضاً الشفاء منه .. بل ستظل عمرها
تموت ..

ومن ثم رحت أفكر فى الجريمتين .. وفى القتلتين .. تلك التى
شيعت إلى قبرها الضيق فى الأرض .. وهذه التى شيعت إلى قبرها الواسع
فى الدنيا .. وأيهما أسعد حالا بالسلاح الذى قتل به .. الرصاصات
الثلاث التى هتكت فروة الرأس .. وحطمت الجمجمة .. ونفذت إلى
الرأس .. وأحدثت الوفاة فى الحال .. أم النزوة الطائشة التى حطمت
الكيان .. وطعنت القلب .. وسلبت الفؤاد .. وهرأت الصدر .. وأدمت
الضمير .. وقتلت الروح ؟ ! ..

وتعجبت من هذه التفرقة حتى في الموت . . ولا أدري لماذا عطفت على الفتاة من قلبي . . ولا لماذا شعرت نحوها بهذه العاطفة التي لم أستشعرها من قبل حتى حيال أقرب الناس إلي . . وقد ازداد هذا الشعور عندما ذهبت إلى بيتي . . وخلوت في غرفتي إلى دوسيه هذه القضية . . ورحت أسترجع ما جاء في التحقيق مرة أخرى . . وأراجع أقوال الفتاة بصفة خاصة . . وما قالته عنها الشاهدة نظيرة أحمد البسيوني . . وزوجها فضالي . . كما راجعت مرة ثالثة . . أو رابعة أقوال دسوقي بالذات . . وأحسست حيال هذا الرجل الذي كنت أحبه بشيء غريب . . لعله أقرب إلى البغض والتخوف منه إلى أي شيء آخر . . فقد استطاع هذا الرجل بذكائه الفطري . . ودهائه الكبير . . أن يغير حتى معالم وجهه . . ويجعلني أنا الذي تمرست كل هذه السنين في تفهم نفسيات البشر وسبر أغوار ما في نفوسهم . . أن أعتقد اعتقاداً . . لا يتطرق إليه الشك في سلامة طويته . . وصدق أقواله . . وبعده - البعد كله - عن هذه الجريمة ، أو أن له أية صلة بها . . من قريب . . أو من بعيد . . وأحسست بينفي له يتزايد . . ووددت لو أنني فتحت عيني فرأيتة أمامي . . إذن لأنشبت أظافري في عنقه . . ولن أتركه . . حتى يفصح عن الحقيقة كاملة . . هذه الحقيقة التي يعرفها جيداً . . وهو الوحيد الذي يحمل سرها في قلبه . . ويعرف من الخاني الحقيقي . . وبدأت أشعر بسوء تصرفي لأنني لم أقبض عليه فوراً . . ولذلك كان أول شيء فعلته عندما ذهبت إلى مكنتي في

الصباح أن اتصلت أولاً بإدارة السجن الذى تنزل فيه الفتاة واستفسرت عن حالتها . . . فعلمت أنها ظلت طوال الليل تعاني حالة نفسية حادة . . . وكانت تتتابها من حين إلى آخر حالات من الهستيرية تجعلها تصرخ وتبكي حتى يغمى عليها . . . مما استدعى وجود مرافقة لها فى غرفتها . . . وفى الصباح عادها طبيب السجن . . . فحقنها بالمخدر . . . فنامت . . . وما زالت مستغرقة فى النوم .

كما أرسلت إشارة عاجلة إلى نيابة الغربية طلبت فيها سرعة القبض على دسوى على حسنين السابق سؤاله فى مقتل مخدومه زينب عبد العال الشوباشى . . . وأن يرحل فوراً وفى اليوم نفسه تحت الحراسة الشديدة إلى القاهرة . . . ثم أنجزت بعض الأعمال فى عدة قضايا أخرى . . . قبل أن أذهب إلى الدائرة السابعة الجنائية . . . لأترافع فى إحدى القضايا الهامة . . . التى وفقت فى المرافعة فيها مما جعل المتهم الأول والثالث والثامن يؤخذون بأقصى العقوبة . . . وقد سرنى هذا كثيراً . . . وابتهجت له . . . إذ ليس أحب إلى المحقق الذى يعرف واجبه . . . وله ضمير يحاسبه . . . من أن يأخذ الحق مجراه . . . فتمسك العدالة بتلابيب المجرم . . . وتحاسبه أقصى الحساب .

* * *

كانت الساعة قد بلغت الثالثة بعد الظهر . . . فذهبت إلى بيتى سريعاً لأحضر الوليمة الضخمة التى أعدها أبى فى القصر لجماعة من الناجحين الذين يعتمد عليهم فى نجاحه فى هذه المعركة الطاحنة التى يخوضها .

وكان قد أصر على أن أحضر . . وقد شعرت بشيء كثير من الفخر عندما ذهبت إلى البيت ووجدت أبهاء القصر تغص بعلية القوم من الساسة والعظماء وبعض الوزراء وبعض رجال القصر الملكي الذين كان أبي على صلة وطيدة بهم في ذلك الحين . . . وازددت فخراً عندما استقبلت من الكثيرين منهم بالحفاوة البالغة . . . إذ راح أكثرهم - ولا سيما من المسئولين في ذلك الوقت - يشيدونى وبنشاطى وبمركزى المرموق فى عالم القضاء . . . وبعض القضايا السياسية الهامة التى حققت فيها . . . وكان لى فضل اكتشاف الجناة فيها . . . مما جعل أبى وهو يجلس معنا على المائدة يشعر بالكثير من الزهو . . . وظللنا فى مثل هذه الأحاديث وغيرها من أحاديث الانتخابات . . . وسير المعركة فيها . . . وكلما استشعرت من هذه الأحاديث أن النجاح هو حليف أبى . . . ازدادت فخراً وابتهاجاً . . . وأقبلت على طعامى بشهوة بالغة . . . غير أننى وقبل أن أنهى من طعامى . . . وكانت الساعة - على وجه التقريب - قد بلغت الرابعة مساء . . . استدعيت إلى محادثة تليفونية عاجلة . . . ولما ذهبت وجدت المتحدث أنيس أفندى باشكاتب نيابة جنوب القاهرة . . . وإذا به يدلنى بنبأ غريب . . . انهدهشت له دهشة كبيرة . . . وفوجئت به مفاجأة مذهلة . . . وهو أنه قد وردت إشارة عاجلة الآن من نيابة الغربية تفيد بأن دسوقى على حسنين - المطلوب القبض عليه وترحيله إلى القاهرة لسؤاله فى القضية رقم ١١٠٧ جنايات القاهرة الخاصة بمقتل المحبى عليها زينب عبدالعال الشوباشى - قد وجد ظهر اليوم مقتولاً فى حقل الأذرة التابع لزماد

ضبيعة المجنى عليها . . إذ أطلق عليه الجناة اثنتي عشرة رصاصة . . مزق جسده . . وأردته قتيلاً في الحال . . وأنه لا أثر للجناة . . أو معرفة أسباب الجريمة . . وأن التحقيق لا يزال جارياً

وبالرغم من أن هذه المفاجآت . . لم تكن غريبة . . على رجل التحقيق الذي تعود أن يرى في بعض الجرائم الكثير من العجب . . إلا أن وقع الخبر على نفسي كان ثقيلاً . . وشعرت بالصدمة تكاد تهزني ولا سيما عندما تأكدت بأن جميع خيوط الأمل التي كانت تلوح لعيني في القضية . . قد اجتشت من جذورها . . بمقتل دسوقي . . وأحسست بتأنيب الضمير . . وبالخطأ الجسيم الذي ارتكبته . . إذ تريثت في القبض عليه . . ولو كنت قد فعلت هذا بمجرد أن ورد ذكر اسمه على لسان الفتاة في أول التحقيق . . أو حتى بعد أن ذكرت ما ذكرت الشاهدة الثانية نظيرة أحمد البسيوني . . لما كان قد حدث من هذا شيء . . ولما كان الرجل قد قتل . . ولما أفلت من يدي الجاني في هذه القضية كما أفلت منها الآن إلى الأبد

وعدت إلى مقعدي من المائدة وأنا في حالة اضطراب شديد . . بما جعل والدي يلاحظ على ذلك . . ويسألني أكثر من مرة . . ولم أستطع أن أجيبه . . إلى أن انتهى المدعوون من تناول الطعام وتناثروا حول الموائد الأخرى في الحديقة . . وأهباء القصر وشرفاته . . يشربون القهوة ويدخنون السجائر . . عند ذلك انتحى بي أبي ركناً . . وما إن ذكرت له نبأ مقتل دسوقي . . وكيف أن الجناة مزقوا جسده باثنتي عشرة رصاصة . . وكيف

عثر عليه جثة هامدة في حقل الأذرة . . وكيف فر الجناة دون أن يتركوا أثراً لجرمتهم . . حتى دعر أُنَى ذعراً شديداً . . واربدت سحنته إلى حد نحيف . . وراح يضرب كفتاً على كف . . ولأول مرة أشعر بالغلظة في صوته وهو يخاطبني . . ويؤنبني في شيء من التقرير . . لأنني قصرت في واجبي ولم أقبض عليه من أول الأمر كما قال لي . . وقد وافقته على كل حرف قاله . . حتى في عبارات التقرير التي وجهها إلي . . وانصرفت إلى مكنتي فوراً . وأثبت هذه الإشارة التي وردت إلي من نيابة الغربية عن مقتل دسوقي رسمياً في محضر التحقيق، وقررت السفر في الحال إلى طنطا ، ومنها إلى المكان الذي وقعت فيه الجريمة لأنضم إلى المحقق هناك . وأطلع على سير التحقيق . . وهناك وجدت شيئاً غريباً اندهشت له . . وعقد الأمور تعقيداً غريباً وأضني على التخمينات والتقديرات والافتراضات جميعها ظلاماً دامساً . . فقد وجدت أن التحقيق قد أوشك على الانتهاء . . ولما يمض عليه ساعات . . أو تتجاوز صفحات التحقيق في هذه الجناية بضع صفحات . . فالجاني مجهول . . ولم يترك أثراً ولا حتى شبه أثر يمكن للمحقق أن يمسك به . . كما أن أهل المجنى عليه لم يهتموا أحداً . . بل إن شبهاتهم لم تحم من قريب أو بعيد حول أحد . . وبسؤال جميع الأهل والمعارف وأصدقاء المجنى عليه ، وحتى غير أصدقائه . . لم يشر أحد إلى شيء أو حتى شبه شيء بين المجنى عليه وبين أحد . . بل أجمع الكل على أنه كان محبوباً من الجميع . . وكان آخر شيء يفكرون فيه هو أن

يموت هذا الرجل هذه المينة الشتعاء . .

وجلست مع زميلي وكيل النيابة المحقق في القضية نتذاكر الأمور جيداً ونجمع بين طرفي الجريمتين والأسباب الدافعة إلى تلك وهذه . . والأسباب التي جعلت المحجني عليه ينكر في التحقيقات السابقة صلته بالفتاة . . ورؤيته لها تتردد على المحجني عليها . . كما أنكر صلته بأجد غيرها . . مع أن الثابت من التحقيق عكس ذلك . . إذ اعترف الشهود الثلاثة . . الراقصة زينبات شوقي . . والزوجة نظيرة أحمد البسيوني . . والزوج فضالي أحمد عبد الموجود . . اعترف الثلاثة بصلتهم الوثيقة بدسوقي . . وخرجنا من ذلك كله بأن يداً في الخفاء هي التي لعبت هذا الدور الخطير في الجريمتين ، وأن هناك صلة من غير شك بين هاتين الجريمتين . . ولكن يدُ من هي هذه اليد ؟ . . وما هي هذه الصلة ؟ . . كان هذا هو بيت القصيد : وكان هذا هو المحير فعلاً .

وفي طريق عودتي إلى القاهرة . . وبعد أن تحقق الإخفاق في العثور على الجناة . . وأصبح مؤكداً أن جديداً لن يطرأ على هذه الظروف الغامضة التي قتل فيها دسوقي . . ازدحمت رأسي بأفكار كثيرة وتكهانات عدة . . وحاولت أن أربط بين الجريمتين والظروف الغامضة التي حدثت فيهما . . والأسباب والدوافع التي أدت إلى قتل دسوقي بالذات . . وعلاقة دسوقي بالمحجني عليها . . زينب عبد العال الشوباشي . . وهل هذه الجريمة التي ذهب ضحيتها دسوقي لا علاقة لها بالجريمة التي ذهبت ضحيتها

زينب . . أو أن هذه امتداد لتلك . . وأن الأسباب التي أدت إلى قتل
 المحبني عليها هي نفسها الأسباب التي أدت إلى قتل دسوقي ؟
 هذا هو المرجح حتى الآن . . والأقرب إلى المنطق . . ولكن ما هي
 الأسباب . . والبواعث عليها . . والدوافع إليها . . وهل اليد التي ارتكبت
 الجريمة الأولى . . وقتلت زينب عبد العال الشوباشي هي نفسها اليد التي
 ارتكبت الجريمة الثانية وقتلت دسوقي على حسنين ؟ !

لقد كان من الممكن ترجيح ذلك أو على الأقل الميل إليه . . لو أن
 للمحبني عليها مثلاً . . أحد الأهل . . أو الأقرباء . . ولو حتى من
 بعيد . . علم بالعلاقة الآثمة التي كانت بين المحبني عليها وبين دسوقي . .
 وأراد أن يندود عن عرضه . . فقتل الاثنين . . ولكن الثابت من التحقيق .
 أن لا أحد إطلاقاً من الأهل أو الأقارب لها . . وإذا افترضنا مثلاً وجود
 هذا الشخص . . وسلمنا جدلاً . . بأن التحقيق عجز عن معرفته . .
 أو حتى الظن بوجوده . . فأين كان هذا الشخص . . طيلة هذه السنين
 التي تزيد على العشرين وتتجاوزها ؟ . . وفي أي كهف كان ينام شرفه
 هذا . . الذي استيقظ فجأة وهب للندود عنه بهذه الوحشية التي لا تعرف
 حدوداً في الإجرام وسفك الدماء وإزهاق أرواح البشر ؟ !

أو أن الأسباب تختلف عن هذا كلية . . وأن الدوافع لارتكاب
 الجريمة الأولى هي نفس الدوافع لارتكاب الجريمة الثانية . . وهي الغيرة
 على الإثم . . والحرص على التماذي فيه والرغبة في استمرار سفك هذه

الحرمان التي ظلت تنهك وتسفك دماؤها . . ما يزيد على العشرين سنة . . وهذا هو الأقرب إلى العقل وإلى المنطق وإلى الحقائق الكثيرة التي كشف عنها التحقيق . . فقد ثبت من أقوال الشهود الثلاثة . . ولا سيما شهادة الزوجة نظيرة أحمد البسيوني وزوجها فضالى أحمد عبد الموجود . . ومن الوقائع والأسانيد المدعمة بمنطق الحوادث وتسلسلها وتواريخها . . ثبت أن المهمة الأولى وهي الفتاة زينات شوقى هي ابنة المحبى عليها زينب عبد العال الشوباشى . . وأن المحبى عليها هي أمها فعلاً . . وأن هذا لا سبيل إلى الشك فيه . . وأن الدلائل عليه واضحة ومتوفرة وتنطق بها الحوادث جميعاً . .

مراقبة المحبى عليها للطفلة بعد أن أقيمت في الطريق . . تتبعها للشاهدة الثانية نظيرة أحمد البسيوني . . ومعرفتها لبيتها . . وذهابها إليها في صباح اليوم الثانى . . وبكائها . . واضطرابها . . والحالة النفسية التي كانت عليها وهي تقبل الطفلة وتحنو عليها . . وتوصى بها المرأة خيراً . . إنفاقها على الفتاة بصفة دائمة . . وجعل مرتب دائم ثابت للمرأة التي تبنت الطفلة . . خشيتها من افتضاح أمرها إذا كثرت زياراتها على البيت الذي تعيش فيه الطفلة . . وانقطاعها عن الذهاب إليها . . وهذا يثبت كذب قولها . . بأنها قريبة لأم الطفلة كما جاء على لسان الشاهدة الثانية . . إنابة دسوقى عنها في الاطمئنان على الفتاة وتوصيل المبلغ إليها في كل شهر . . ثم افتقادها للطفلة بعد أن تركتها الشاهدة الثانية وسافرت مع زوجها إلى الصعيد . .

وما بذلته المحبى عليها من جهد فى سبيل البحث عنها طيلة تلك السنين . .
بدليل تعرفها على بائع العرقسوس بعد خروجه من السجن . . وما إن
هداها إلى عنوان نظيرة أحمد البسيونى فى الصعيد حتى ذهبت إليها فى
البدارى . . وتعرفت منها على عنوان الفتاة . . وفرحتها البالغة عندما عثرت
على عنوانها . . ومبلغ الحمسة جنيهاً الذى أعطته لنظيرة . . لأنها ذكرت
لها العنوان . . ثم طريقة تعرفها على الفتاة فى القاهرة وذهابها إليها فى
الصالة . . أو الكباريه . . وهى كما جاء على ألسنة الشهود جميعاً . .
سيدة وقورة وليست ممن يؤمنون هذه الأماكن . . ثم استمالتها الفتاة إليها،
وتوطيد صداقتها بها وجعلها تتردد عليها فى بيتها كل يوم وكل ليلة . .
ثم أحزانها التى لا حد لها — كما هو وارد فى أقوال الفتاة — من أنها تعمل
راقصة . . ومحاولة إقناعها بترك هذه المهنة بأى ثمن . . ثم — وهذا هو
المهم — استعداد المحبى عليها لأن تهيب الفتاة كل ما تملك من ثروة . .
إن هذه كلها أشياء واضحة الدلالة . . ثم يجيء بعد ذلك دور دسوقى
فى الموضوع . . والدور الخطير الذى لعبه وإنكاره إنكاراً باتناً لهذا الدور . .
وهذا الإنكار له دلالة . . وهو أنه يعرف من غير شك هذا السر ،
وهو أن الفتاة هى ابنة المحبى عليها . . وأنها ولدتها سفاحاً . . وأنها ألفت
بها فى الطريق . . إلى آخر هذه السنوات الخمس التى ظل هو يتردد فيها
على الفتاة . . والمرأة التى تبنتها . . وذهابه بانتظام ليعطيها المبلغ المتفق
عليه . . ومعنى هذا أن دسوقى يعلم كل شىء عن حقيقة أخلاق المحبى

عليها، بل هو الوحيد الذى كان يعلم هذه الحقيقة . والدليل على ذلك أقوال الشهود الثلاثة . . الفتاة والزوجة والزوج . . هذه الأقوال المتفقة فى جميع الوقائع . . والتى لم تتناقص فى واقعة واحدة . . وأنه يعلم هذا ويظل طول هذه السنين على هذه العلاقة الوطيدة بالمجنى عليها . . معنى ذلك أنه هو نفسه الذى كان على علاقة بها - حتى بغض النظر عما جاء فى التحقيق من شبهات كثيرة تؤكد أنه هو والد الفتاة غير الشرعى - واستمرار هذه العلاقة وتوطيدها إلى هذا الحد له دلالة أخرى لا تكاد تقبل الشك . . وهى أن دسوقى كان يحب المجنى عليها . . ويتخذ منها عشيقاً له . . وأنها هى أيضاً تحبه وتتخذ منه عشيقاً لها . . وليس لها عشيق غيره . . وظل يعتقد هذا ويؤمن به إلى أن تبين خطأ هذا الاعتقاد واكتشف أن للمجنى عليها عشيقاً غيره وهو الرجل الذى ضبطته الفتاة يتسلل من مخدع المجنى عليها فى الليل . . ولا يد - بل من المقطوع به - أنه كان لهذا العشيق الحديد مميزات كثيرة . . جعلت المجنى عليها تفضله على دسوقى . . فهو من أبناء الحضر ووجيه . . وطويل القامة عريضها . . وأنيق الملبس . . مما يدل على أنه من أبناء الثراء . . كما جاء على لسان الفتاة التى رآته رؤية العين . . وبديهي أن دسوقى - وهو الرقيق المعدم ، الرث الثياب أو المهملها على الأقل . . والذى لم يزد فى نظر التى يحبها على أنه خادم عندها . . بديهي أنه لم يقدر على منازلة هذا العشيق الحديد . . أو حتى التفكير فى محاربته . . وعز عليه ذلك . . عز عليه أن يرضى

بالهزيمة . . وأن تفضل عليه هذه المرأة . . عشيقاً غيره . . بعد كل هذه
السنين التي قضاها معها . . فلم يجد بداً من ارتكاب جريمته . . ولكنه
ارتكبها من سوء حظه في الوقت الذي كان فيه العشيق الجديد قد توطدت
علاقته بالمجنبي عايبها . . مما جعله ينتقم لنفسه ولها . . بقتل دسوقي . . وهكذا
تأكل النار بعضها دائماً .

فكرت في هذا كله . . وحلته على ضوء منطق الحوادث المدعمة
بالأسانيد التي جاءت على لسان الشهود الثلاثة . . ولما اقتنعت به . .
أحسست بضيق لا حد له . . فقد وقف بي الطريق في هذه القضية عند
هذا الحد . . بعد أن نعيم الظلام عليها إلى الأبد بعد قتل دسوقي وموته
وموت السر معه . .

شعرت بهذا الضيق يزداد عندما ذهبت إلى مكتبي في صباح اليوم التالي ووجدتني مضطراً وعلى الرغم مني وبعد كل هذا الجهد الذي بذلته .. إلى أن تخط يدي هذه الكلمات التي أكرهها جداً والتي تشبه سلسلة من الشعابين الضريرة . . تسبح فوق الأوراق: « يحفظ التحقيق وتقيد الحناية ضد مجهول » . .

وقد فعلت ذلك مضطراً وأخليت سبيل الشهود الثلاثة . . وكانت الفتاة قد تماثلت للشفاء بعض الشيء . . ولما أدخلت سبيلها طلبت مقابلي . . ولما أذنت لها وجاءت .. رأيتها أكثر شحوباً ووجهها أشد اصفراراً، ومع أنها جميلة جمالا رائعا . . إلا أن هذا الجمال اكتشفته فجأة مسحة من القبح أشبه ما تكون تماماً بتلك المسحة من العار التي تقف حائلا بين عينيك وبين الجمال الرائع الذي طمست رواءه الأيدي التي استباحته . . والعيون التي عبثت به . . والفراش الملوث التي تقلب عليه . . ولأنني أعلم تماماً أنها ليست كذلك . . اندهشت كثيراً وتعجبت لهذه النفوس الشفافة التي ترميها الخطيئة بحجر . . وكيف تكون آلام هذه النفوس . . عندما تصيبها الضربة في الصميم . . وكيف تتحول هذه الآلام من كثرة

أوجاعها وحرقة جراحها ولوعة التفكير فيها . . إلى مثل هذه الظلال القاتمة .
 التي تتجمع خيوطها السوداء فوق وجه الضحية فتطمس معالم الطهر والبراءة
 فيه . . وتحوله إلى صورة واضحة للإثم والعار ومهانة النفس . .
 ونظرت إلى الفتاة مرة أخرى ورأيت عينيها الواسعتين الكبيرتين . .
 ونظرات الذلة والانكسار التي تروح وتجيء فيهما خابية شاحبة . . تتأرجح
 كذبالة السراج الذي ينضب زيت . . ويكاد يلفظ أنفاسه . . فأشفقت
 عليها وأحسست وأنا أستقبلها في مكثي كأنني أستقبل قطعة مني . .
 وأذنت لها بالجلوس وطلبت لها كوباً من الشراب المثلج . . وأحسست من
 صمتها ونظراتها الساهمة التي تلتقي بها إلى الأرض دائماً . . وارتعاش شفيتها
 بين الحين والحين . . أنها إنما تريد أن تقول شيئاً . . متحرجة من قوله . .
 فشجعته لكي تقول كل ما تريد . . دون أن تفتن إلى مقصدي . . وقلت
 لها إنها لم تجلس أمامي الآن هذه الجلسة كمنهمة أمام محقق . . كما كانت
 جلساتها السابقة أمامي . . وإنما هي تجلس أمام إنسان يحترمها ويقدرها . .
 ويقدر ظروفها القاسية . . هذه الظروف التي لا دخل لها فيها . . والتي
 كانت هي ضحية لها . . وأن هذه الظروف يجب أن لا تؤثر فيها مثل هذا
 التأثير الذي يكاد يفضي عليها . . وهي ظروف حدثت كثيراً لغيرها . .
 ويحدث كثيراً . . وما دام أن هناك شرّاً . . وهناك خطيئة . . وهناك
 ظلاماً . . يعيش فيه بعض الناس . . فلا بد من وجود ضحايا .
 وقد أثر فيها هذا القول . . ورفع من معنوياتها . . وجعل بعض النور

يتمشى في تلك الدبالة التي كانت توسك أن تنطى . . . وعاد إلى نظراتها
بعض الاستقرار . . . كما عاد إلى وجهها بعض الهدوء . . . وقالت في صوت
خفيض . . . وهي ما زالت تنظر إلى الأرض بعينها المخضلتين بالدموع :
— إنى لا أعرف كيف أشكر . . .

— إن الشكر الذى أريده منك هو أن تعتبرنى بالنسبة إليك الشخص
الذى يهمله أمر . . . وأن تقرى لى دائماً كل ما يحول بخاطرك . . .
قلت لها هذا . . . وأنا أقصد شيئاً بعيداً . . . لم تظن إليه . . . وحتى
أن لم أكن قد فطنت إليه . . . إلا بعد أن طلبت الفتاة مقابلتى . . . وهو أن
أجعل هذه الفتاة تطمئن إلى ، وإلى صداقتى ، حتى لو تطلب منى
ذلك أن ألتقى بها كثيراً . . . وحتى لو كان هذا كما أعرف يخالف العرف
وانتقاليد المرعية . . . انفراد محقق ومهمة أو شاهدة فى قضية من القضايا
سواء أزالته هذه الصفة . . . أم ظلت باقية . . . غير أننى كنت أعتقد أن
هذا هو السبيل الوحيد الذى عن طريقه ربما أتعرف من الفتاة على شخصية
ذلك العشيق الثانى للمجنى عليها . . . والذى قتل دسوقى . . . والذى سوسلنا
معرفة شخصه . . . إلى معرفة الحقيقة كلها . . .

حقيقة إن الفتاة لم تعرف شخصيته حتى الآن . . . وهي لم تحف شيئاً
حاولت إنكاره فى التحقيق . . . ونكنى أعمر بحكم تجاربى الكثيرة وكثرة
ما شاهدت من القضايا . . . ووقف أمامى من المتهمين . . . أن للإنسان . . . كل
إنسان . . . حاسة سادسة تقف بجانبه . . . فى خطوات الحرج . . . هي التي تجعله

متيقظاً أم غير متيقظ.. وفق ما ترى فيه مصلحته .. وأن هذه الحاسة من الذكاء وقدرة التسلط على صاحبها بحيث تجعله يقول الكذب وهو يؤمن بأنه الصديق .. ويقول الصديق وهو يؤمن بأنه الكذب .. وتجعله يصف لك الشمس وبهجة نورها وقوة إشعاعها ومقياس حرارتها وصفاً دقيقاً مقنعاً . في حين أنه لم يكن قد رأى غير الظلام وحللكته .. وسواده الذي كانت تتخبط فيه عيناه !

فإذا زالت لحظات التخرج .. زالت فيها يقظة هذه الحاسة .. وعاد الإنسان إلى طبيعته .. وإلى تذكراته .. التي كثيراً ما تكون صائبة . لهذا كانت مجاملتي للفتاة زائدة .. ولهذا قلت لها في صديق حقيقي .. إنني أرجو أن تعتبرني بالنسبة إليها الشخص الذي يهمله أمرها .. وأن تقول لي دائماً .. كل ما يجول بخاطرها .. غير أنها لم تصدق هذا .. أو لعلها استكثرت على نفسها .. لأنها وقفت عند كلمة معينة قلتها لها .. وكأن ذكائها اللامح – الذي شهدت لها به أثناء التحقيق – لم يصدقها أو يصدق أنني جاد فيها .. لأنها قالت وهي تتمتم في صوت خفيض جداً هذه المرة :

– تقول إنك تريدني أن أطلعك – دائماً – على كل ما يجول بخاطري .. فهل أنت ترحب بلقائي دائماً ؟

فلم أنطق .. لأنني أحسست بقلبي هو الذي يتحدث ويقول :
– إنني أرحب بذلك دائماً .. علم الله ..

- فقلت وقد انفرجت أساريرها بعض الشيء وكأنها تريد أن تبسم :
- إننى حقيقة أشكرك . .
- أتشكرينى لأننى أرحب بلقائك ؟
- أنت الوحيد فى هذا الوجود كله الذى أشكر له هذا الجميل . .
- لماذا أنا بالذات ؟
- لأنك الوحيد الذى عرفت من أنا . .
- وعاد وجهها إلى الأحمرار . . وعادت نظراتها فانطفأت ثانية وامتلأت عيناها بالدموع . وقالت وهى تبكى . . معبرة عما يحول بخاطرها حقيقة :
- إننى خائفة . .
- مم ؟ . .
- أن يقتلنى الرجل الذى قتل أمى . .
- وكان صغتي كـمحقق . . أصبحت طبيعة فى . . لأننى قلت :
- وهل أصبحت مقتنعة فعلاً .. بأن المجنى عليها هى أمك حقيقة ؟
- طبعاً . .
- وعلى أى أساس بنيت هذا الاقتناع ؟
- أحياناً كثيرة لا يستشعر الإنسان حرارة الشمس إلا بعد أن تغيب !
- وأعجبني منها هذا القول . . فنظرت إليها . . فإذا بها تبكى . .
- فتركها إلى أن استطردت وهى تجفف دموعها وتمسح على شفتيها المضطربتين :
- عظمها الزائد . . الذى كنت أدهش له . . حنانها الذى بلغ

من شدة تأثيره في نفسي أنني أنكرته عليها . . وأسأت به الظن . . وقلت إنه نوع من الشباك تجيد صنعه بعض النساء، لتغطي به ما في نفوسهن من سوء . . ولتقطع به الطريق على الفريسة . . وتوقعها في شباكها مهما كانت يقظة حذرة عليمه بأنواع الفخاخ جميعاً . . ثم تخرجها الشديد وارتباكها الزائد ، واضطرابها الذي لا حده . . يوم أن جاءت إلى في الصلاة . . وطلبت مقابلي وقالت إنها تحبني وتقدر في . . وإنها إنما تجيء إلى هذا المكان من أجل فقط . . ومن أجل أن تراني . . ونظراتها إلى وهي تتحدث إلى في أول مرة . . ونور الفرحة الذي كان يشع من عينيها . . ونبرات الحنان التي كانت ترن في صوتها . . وهي تتحدث إلى . . وتنفذ إلى قلبي ووجداني وتضني على مشاعري إحساساً جميلاً بالحياة والدنيا والناس . . كنت لا أستشعر وجوده . . قبل أن تجيء هي إلى وتحدثني وأتحدث إليها . . ثم تلك الرغبة التي كانت تلح عليها إلحاحاً شديداً . . وتود تحقيقها بأي ثمن وهي أن تهني كل ثروتها وكل ما تملك . . فقط أترك مهنتي كراقصة . . وأعيش معها بصفة دائمة ثم واختنقت الفتاة . . بالدموع . . فلم تكمل . . واحتقن وجهها . . وراحت تبكي . . فلم أحاول أن أجعلها تكمل وتستطرد في هذه الذكريات المريرة . . بل تركتها تبكي كثيراً وتتألم كثيراً وتكتوي بحرقه الدموع ما تشاء . . إلى أن فنت هذا كله كيانه . . وراحت تلتقط أنفاسها التقاطاً كالنار عندما تخبو جذوتها . . ويعلو التراب أنفاسها وتختنق . . ولما غدت

كذلك .. تمت هي من تلقاء نفسها واستطردت تلفظ نار تلك الذكري
التي تحرقها ..

ثم تلك الكلمة التي لم أستشعر حقيقتها إلا بعد أن ماتت .. والتي
كانت تناديني بها دائماً .. ابنتي .. كلي يا ابنتي .. اشربي يا ابنتي ..
نامي يا ابنتي ..

وكنت أستمع إلى الفتاة وهي تنطق هذه الكلمات .. وتسترجع هذه
الذكريات .. وأتذكر قولها في أول الحديث : « أحياناً كثيرة لا يستشعر
الإنسان حرارة الشمس إلا بعد أن تغيب » وأتعجب من بعض الظروف
التي يورطنا فيها القدر .. بحيث يجعلنا أحياناً نرى الذهب حديداً ..
والماس زجاجاً .. والبحر العجاج سراباً أو يابسة .. ويجعل أحياناً أكثر
الناس إدراكاً لحاسة الإبصار والسمع أعماهم بصرأ .. وأغشاهم نظراً ..
وأغلقهم عيناً وسمعاً وإحساساً ..

ونظرت إلى الفتاة مرة أخرى وأردت أن أقول لها شيئاً آخر .. وأن
أستطرد معها في أحاديث أخرى كثيرة .. ولكنني تذكرت شيئاً هاماً
قالت لي وكدت أنساه في غمرة هذه الآلام التي جعلتني أعيش فيها حيناً ..
وأشاركها فيها حقيقة .. فقلت :

— تقولين بأنك خائفة من أن يقتلك الرجل الذي قتل أمك ..

— نعم ..

— ولماذا يقتلك ؟

— ولماذا إذن قتل أمي ؟

فأحسست بالجواب فاحملاً . . فقلت :

— من تظنين الذي قتلها ؟

— لا أعرف .

— بعد كل هذه الملاحظات التي كشف عنها التحقيق . . ووضحت

لك هذا الوضوح . . . أليس في استطاعتك ولو مجرد الظن معرفة

من هو صاحب المصلحة في ارتكاب هذه الجريمة ؟

— لعلك أكثر مني معرفة بالظروف جميعاً . .

— أنا أظن أن دسوقي هو القاتل . .

شبهت الفتاة وقالت في زعر شديد وهي تتراجع إلى الخليفة كمن

يباغت بشيء يخيفه :

— لا . . لا . . أبداً . . أبداً . .

وأدهشني صوتها هذا المفاجئ . . وذعرها هذا الشديد . . فقلت :

— ما الذي أخافك ؟

— هذا القول الذي تقوله . .

فتركها قليلاً حتى هدأت . . وقلت :

— وما الذي تستنكرينه في هذا القول ؟

— مجرد هذا الظن الذي تظنه . .

— أنت تستبعدينه . . أم أنك فوجئت به ؟

— أستبعده قطعاً . .

فتركها مرة أخرى قليلاً . . ثم قلت :

— ما الذى يجعلك تستبعدينه . . وترفضين تصديقه . . بعد كل هذه

الحوادث الغريبة التى أثبت التحقيق حقيقتها ؟

— إنك لم تعرف دسوقى . . ولم تعرف طهارة خلقه . . ولا كريم

سجاياه أو نبل قلبه . . لقد كان هذا الرجل الطيب بالنسبة لناس هذا

الزمن . . أشبه بنبي . .

— هل كان يخلص لها ؟

— كما يخلص العابد إلى معبوده تماماً . . كان لها أكثر من أب . .

وأكثر من أخ . . وأكثر من خادم . .

وجعلنى هذا القول أزداد اقتناعاً بما تحدثت به إلى نفسى والنتيجة

التي وصلت إليها . . من وجود علاقة بينه وبين المجنى عليها . . ولذلك

قلت . . وكنت أعتمد على بعض الحبث فيما أقول :

— إلى هذا الحد كان دسوقى يحب المجنى عليها ؟

فقالت الفتاة على الفور دون أن تفطن إلى قصدى :

— كان يحبها إلى حد الجنون.. إلى حد أنها إذا مرضت يوماً.. كان

المريض الحقيقى هو.. وإذا شفيت.. كان الصحيح المعافى هو.. وإذا حزنت

أو غضبت . . كان الحزين هو . . فإذا رآها يوماً ضاحكة أو مبتسمة . .

كاد هذا الرجل العجوز يخرج عن وقاره ويرقص طرباً من فرط فرحته . .

فأحسست بالزهو الذى يحس به من يصدق حدسه . وقلت :

— ألم يداخلك شك فى هذه العلاقة ؟

فأخفهر وجهها فجأة وقالت :

— ماذا تقصد بهذا القول ؟

— أقصد . . أنها أكثر من علاقة بين خادم ومخدومه . .

فازداد وجهها احتقاناً . . وهى تقول :

— ولماذا تسيء الظن إلى هذا الحد ؟

— ولماذا أنكر هو فى التحقيق أنه يعرفك ؟

— ربما لأنه كان يعرف الحقيقة . .

— أى حقيقة ؟

— أنها أمى . .

— ولماذا لم يذكر هذا ؟

فعدت الدموع إلى عينيها وقالت وهى تنظر فى خجل واضطراب

كثير إلى الأرض :

— هل تريد أن تحقق معى مرة أخرى ؟

فأحسست بأننى نكأت جرحها . . دون أن أدرى . . ولذلك قلت :

— إنما أقول هذا فقط لكى أطمئك بأن الذى قتل المحبى عليها لن

يصيبك أنت بسوء .

فقالته وهى تبكى :

— من يدري ؟

— لأنه مات . .

ففغرت فاها وهي تقول :

— مات ؟ !

— نعم . .

— إذن أنت كنت تعرفه ؟

— عرفته فقط بعد أن قتل . .

— ومن هو ؟

— دسوقي . .

فجحظت عيناها بجحوظاً مخيفاً . . وهي تصرخ :

— دسوقي . . هو الذى قتل أمى . . أنا لا أصدق هذا . .

— وأنا أيضاً كنت لا أصدقه . .

فقالت وهي لا تزال شبه صارخة :

— وما الذى جعلك تصدقه إذن ؟

— قتل دسوقي . .

— ومن الذى قتله ؟

— لا أعرف . .

ولم أشأ أن أقول لها بأن دسوقي كان عشيقاً لأملك . . وأنه قتلها

لما عرف بأن لها عشيقاً غيره . . وأن الذى قتل دسوقي هو هذا العشيق

الثانى . . الذى رأيت أنه أنت بعينيك يتسلل من مخدعها فى الليل . . لم أشأ أن أقول لها هذا . . حتى لا أزيد فى جراحها . . هذه الجراح التى كنت أشعر بمدى آلامها فى نفسها . . ولكنها أدركت قصدى . . لأن صوتها اختنق فجأة . . وقالت وهى تحاول أن تجفف الدموع التى كانت تغرق وجهها :

— أرجو أن تذكر . . أنها أمى . . وأنها قد ماتت . . وأن الترحم على الموتى قد يكون ترحماً على الأحياء كذلك . . .

ونهضت لتخرج . . فإذا بى أبجد نفسى دون أن أدري ودون تفكير أيضاً . . أمد يدي إلى ورقة أمامى . . وأكتب عليها رقم تليفونى الخاص فى المكتب وأناوله لها . . وأنا أقول . . وكأن كل جارحة فى . . ترجو وتلح فى الرجاء . . أن تتصل بى ثانية . . وتتصل بى فى أى وقت . . وفى أية لحظة تشاء . . وسوف تجدنى دائماً عند حسن ظنّها . .

فتناولت منى الورقة . . دون أن تنطق . . لأن صوتها كان لا يزال مختنقاً . . ولما انصرفت ، وغادرت الغرفة . . أحسست بأنها قد أخذت منى شيئاً وانصرفت به . . ولكن ما هو هذا الشيء ؟ . . كنت لا أدري . . .

ظل هذا الإحساس يراودنى زمناً . . ويلح علىّ أياماً . . وكنت كلما
 مريوم أحسست به يزداد علىّ إلحاحاً . . وازداد رغبة في رؤيتها . . ولولا
 أننى تماسكت . . لكنت قد ذهبت إليها فعلاً ، ولولا أننى أحاسب نفسى
 دائماً قبل كل خطوة أخطوها . . لكنت قد تصرفت تصرفاً آخر . .
 ولكنى فكرت . . وفكرت كثيراً وطويلاً . . حتى كاد يجهدنى التفكير . .
 أو هو أجهدنى فعلاً . . ماذا أريد من هذه الفتاة ؟ . . وما هو هذا الشيء
 الذى أخذته منى ؟ . . ولماذا أخذته ؟ وهل هى التى أخذته منى ؟ ! أو أنا
 الذى أعطيتها إياه . . ومن هو المتسبب فى هذا الفعل . . الذى أخذ . .
 أم الذى أعطى . . وعلى من تقع التبعة ؟ ! أتقع عليها هى لأنها أخذت
 ما أخذت . . أم تقع علىّ أنا لأننى أعطيت ما أعطيت ؟ !

وخرجت من ذلك بأن هناك تبعة فعلاً . . بدليل حدوث الفعل وهو
 هذا الشيء الذى أخذ، ولكن الذى لم أستطع الوصول إليه هو السبب أو
 الأسباب الحقيقية التى دفعت إلى حدوث هذا الفعل . . أهى الظروف
 القاسية التى التقيت بهذه الفتاة فيها . . أم هو هذا الخلق الطيب الذى
 أعجبت به . . وهذا الشعور المرهف الذى شفت حساسيته إلى هذا

الحد .. حد هذه الانطباعات التي تترك أثرها في الغير .. واضحة كل هذا
الوضوح .. معبرة كل هذا التعبير .. الذي لا تستطيع أن تتركه ..
أو تعبر عنه حتى الملائكة نفسها .. أم هو هذا الطهر الأصيل في جوهره ،
الذي لم تزده النار إلا صفاء .. ولم يزد الاحتراق إلا صقلا وحساسية
وإشراقاً ..

فكرت في هذا كله .. وفي غيره أيضاً .. من أحساسين ثمالة ..
تأثرت بها تأثراً كبيراً .. ومع ذلك لم أبجد جواباً شافياً أطمئن إليه ..
ولذلك وجدتني أسأل نفسي هذا السؤال المفاجئ .. وكأنني محقق أحقق
مع نفسي في قضية هامة يكاد يتوقف عليها مصير إنسان :

— هل أحب هذه الفتاة ؟ !

وشرق حلقى .. وابتلعت أنفاسي .. وتلعثمت ولم أجب .. ولم يكن
سبب ارتباكى هذا المفاجئ ، وحالة الاضطراب هذه التي انتابتني فجأة ،
لم يكن مبعثها عجزى عن الجواب .. لا ، لم يكن ذلك .. وإنما الذي
أربكني إلى هذا الحد وجف له حلقى واضطربت له أنفاسي هو أنني
وجدت الجواب .. يأتي سريعاً وبأسرع مما كنت أنتظر .. و ..
بالإيجاب ..

* * *

إذن أنا أحب هذه الفتاة فعلاً .. وإذن فأنا المتسبب في الفعل ..
لأنني أنا الذي أعطيت وأعطيت شيئاً غالياً ... أعطيت قلبي .. وأعطيته

طواعية . . وعن طيب خاطر . . وبلا أدنى مساومة أو فصال . . أو تأثير . . بل حتى دون علم منها أنها أخذت شيئاً . .

ولكن كيف حدث هذا ؟ ! وكيف أجمعت هذا الجرم . . بحيث إنى أدس فى يد إنسان شيئاً دون أن يدري . . شيئاً قد يضر به . . قد يزيد آلاماً فوق آلامه . . ومتاعب فوق متاعبه . . وحتى إن لم يكن ذلك . . حتى لو رحب به . . حتى لو طرب له ورضى عنه . . أفليس هذا فيه تغرير بالغير . . وأى تغرير أكثر من ذلك : تهب لإنسان هبة . . لست أنت وحدك صاحب الحق فى التصرف فيها . . إنها ملكك حقيقة . . لأنها قلبك . . ولكن هذا القلب . . هناك كثير من مقومات حياته الأخرى . . لها الحق فيه . . مثلك تماماً . . مجتمعك . . عمالك . . أسرتك . . أبوك . . أمك . . مركزك كقاض . . أكل هذا يجعلك تفرط فى هذا الشيء بهذه السهولة التى فرطت بها أنت . .

تبيح لك أن تحب راقصة . . تتزوج من راقصة . . تظهر مجرد الظهور فى المجتمعات مع راقصة . . مع فتاة أنت تعلم قبل سواك . . أنها ابنة سفاح . . ابنة زنا . . ابنة خطيئة . . أمها بغى . . عشقها رجل . . وعشقت غيره . . وماتت وهى تتمرغ فى الوزر . . غارقة فى حمأة الرذيلة . . وأبوها سواء كان دسوقى أم غيره . . هو رجل مجهول . . إلا من الإثم الذى يدل عليه . . والوزر الذى ارتكبه . . والخطيئة التى تشير إلى وجوده . .

وإذا أنت تغاضيت عن هذا كله . . وضربت به عرض الحائط . .
وتحللت من كل القيم . . مجتمعك الذى تعيش فيه . . أسرتك التى
تتنمى إليها . . مركزك الذى تفخر به . . إذا أنت تغاضيت عن هذا
كله . . وألقيت به خلف ظهرك . . وتحللت منه . . فكيف تتحلل من
ضميرك . . عندما تحنث باليمين المقدسة التى أقسمتها على احترام المهنة ..
والمحافظة على قدسيتها . . إذا ما جعلت مطية رغباتك تعبر طريقها فوق
جسر المهنة التى أفسمت اليمين على احترامها . . بأن تحب مهمة . .
كنت أنت تحقق معها فى إحدى القضايا . . ولو لم تكن مهنتك
كمحقق أفكنت تعرفت على هذه الفتاة وأحببتها ؟ .. وهل معنى ذلك أنه
من حقلك ومن حق أى محقق آخر أن يحب عشرات الفتيات والنساء اللواتى
يقفن أمامه فى تهم مماثلة . . أو غير مماثلة ؟ !

إنها الآن قد زالت عنها هذه الصفة . . ولم تصبح متهمة . . وإنما هى
الآن حرة طليقة . . شأنها شأن أية فتاة أخرى . . من حقلك أن تحبها وأن
تتدله فى حبها . . وتزوجها . .

إن هذا قول تغالط به ضميرك فقط . . أو أن ضميرك الذى سكت
عن هذا الجرم هو الذى يغالطك بهذا القول . . وإلا فماذا يكون
موقفك . . لو أنك أحببتها وتزوجتها . . ثم لأمر ما أعيد التحقيق فى
هذه القضية . . واتضح لك أن هذه الفتاة هى القائلة . . هل تتجرّد
لحظتها من ضميرك . . وتحنث بقسمك . . وتخون الأمانة . . وتخرجها

من التحقيق نظيفة اليد من الدماء التي تلوثت بها . . أو أنك ستقدم رأسها
للمشنقة ؟ . . وهبك فعلت . . وكان لك منها أولاد . . وجاءوا يوماً يسألونك
عن أمهم . . هل يصمد ضميرك للسؤال . . أو أنه سيغالطك كما
يريد أن يغالطك الآن . . وكما غالطك من قبل . . عندما كانت صفة
الاهام لا تزال قائمة وكانت تقف أمامك كتهمة . . وأنت تجلس أمامها
كمحقق . . ومع ذلك . . وباسم العطف . . والشفقة . . واستنكار الظلم . .
وما إلى هذه الملاحظات التي تختفي وراءها رغباتنا الحقيقية . . عندما تجابهنا
ضماثرنا . . إذا ما ثبت أنك حدثت عن طريق الحق . . والقانون . .
والعرف . . وتقاليد التحقيقات . . وأنفقت عليها من مالك . . وأعطيتها
نقوداً مما تملك . . وسألت عنها في السجن . . وأمرت بتهيئة أسباب الراحة
لها فيه . .

وسمعت صوتاً في أعماقي يصرخ :

— إذن أنا كنت أحبها حين ذاك . .

— ومنذ أن وقعت عينك عليها . .

وبرغم أن هذا الصوت الذي صرخ فجأة من أعماقي أزعجني كثيراً . .
إلا أن الذي أزعجني أكثر أنني وجدته يتلاشى في نفس الأعماق ويلوذ
بالصمت والصمت المطبق . . مما جعلني أتوجس خيفة . . وأخشى أن
يستيقظ ثانية ويغرقني في هذه الدوامة . . التي أزعجتني هذا الرعب . .

لكن هذا لم يحدث .. فقد خرجت من هذه المعركة منتصراً .. وبدأت أقدر أشياء .. كنت لا أقدرها .. وأسعد بأشياء كنت أشقى بها .. فقد كنت أظن أنه من أشقى ما يشقى الإنسان هو محاسبته لنفسه .. هذا الحساب العسير .. على كل صغيرة وكبيرة .. وقبل كل فرسخ يقطعه أو حتى خطوة يخطوها .. ولكن بعد أن خرجت من هذه المعركة .. التي حاسبت نفسي فيها هذا الحساب المرير .. أحسست بسعادة بالغة لهذه النتائج التي وصلت إليها .. وهذه الخطوة الأولى التي وقفت عندها .. وسددت بها ذلك الطريق الشائك الذي كنت سأخترقه بجهالة غير فطن إلى هذا الشوك .. الذي على جانبيه .. والذي كنت من غير شك سوف لا أفطن إليه أبداً إلا بعد أن تدمى قدمي .. وأعود مشخن الجراح .

ومرت الأيام .. وظل الصمت مطبقاً .. حتى عشت العناكب على كل شيء وحجبته في عالم النسيان .. فنسيت كل شيء .. حتى ذلك الشيء الذي كان قد أخذ مني أو الذي كنت قد أعطيته ؛ فقد أصبح الأمر سواء .. سواء الذي أخذ والذي أعطى .. الذي باع والذي اشترى .. طالما أن السلعة قد بارت .. وأصبحت غير ذات موضوع .. وكما هي عادت غرقت في دوامة العمل .. وحققت عشرات القضايا .. وقدر لي النجاح في أكثرها .. مما جعلني أنسى متاعبي جميعاً .. حتى متاعب الذكرى أيضاً نسيها ولم أعد أذكرها .. إلا كما يذكر المسافر بعض المناظر الجميلة أو القبيحة التي مرت به .

وظللت كذلك . . إلى أن فوجئت ذات يوم بأننى إنما وقعت فى صلال كبير . . وأن هذا النسيان الذى عشت فيه كل هذه الأيام . . لم يكن إلا نوعاً من التخدير . . وأننى ما زلت أحب هذه الفتاة . . وأن هذه الأيام التى مرت . . وهذا النسيان الذى كنت قد ظننته لم يكن إلا ستاراً . . احتجبت خلفه مشاعرى . . حتى ينمو هذا الغرس . . وتمتد جذوره بحيث لا أستطيع اقتلاعها إذا أردت . . وقد اكتشفت هذا فجأة وبلا قصد مى أو رغبة فى اكتشافه . . فقد حدث أن اتصل بى صديق عزيز من الزملاء . . وأخبرنى بأن صديقاً ثالثاً لنا من الزملاء أيضاً . . قد صدر أمر ترقيته . . وأنه يجب أن نقيم له حفلاً بمناسبة هذه الترقية وأن يقتصر الحفل على ثلاثتنا . . باعتبارنا أقرب الأصدقاء إليه . . وطلب منى أن أحدد له المكان الذى سنقضى فيه سهرتنا . . ووجدتنى دون أن أفطن إلى ما أقول أو أفكر فيه أو حتى أثريث فى القول . . أختار له المكان . . وأصر عليه بالذات وهو الملهى الليلي الذى ترقص فيه زينات فى طريق الهرم . . لنقضى فيه سهرتنا . . والغريب أنه عندما وافق . . فرحت كثيراً وفرحت فى جنون . . حتى إننى رحت أعد الساعات الباقية على لقائنا والذهاب إلى هناك . . ولما التقينا . . أحسست وأنا أدخل معهما إلى هذا الملهى لأول مرة فى حياتى . . أننى إنما أدخل اللجنة . . ولذلك جلست معهما إلى المائدة أتحدث وأتندر . . وأضحك على غير العادة فى ابتهاج شديد . . وفرحة زائدة . . تكاد تنطلق نوراً من عيني تبحث فى

أركان الملهى . . عن الفتاة . . وكنت أصور وأنا أجلس معهما إحساسى
عندما أراها . . أو إحساسها هى . . ومشاعرها عندما ترانى فى الصلاة
وتقع عينها على بين الرواد . . وهى ترقص فوق خشبة المسرح . . وأحسست
بشيء من الضيق . . وظللت زائغ النظرات . . أبحث عنها يمينا وشمالا . . وأردت
أن أسأل عنها أحد الخدم . . ولكنى تخرجت من السؤال لوجود من معى
وأيضاً لوجود بعض الزملاء من القضاة ووكلاء النيابة . . يجلسون إلى المائدة
القريبة منى مع زوجاتهم . . وأحسست أننى إذا سألت عن راقصة . .
ارتكبت عملاً مشيناً . . وقام صراع بينى وبين نفسى . . حتى إننى
فكرت فى أن أذهب إلى خارج الصلاة . . وأنتهى ركناً بأحد الخدم
وأبعثه إليها بورقة منى وأقول لها إننى فى الصلاة وإننى أريد رؤيتها بعد أن
تنهى من رقصتها . . ولكنى لا أريد رؤيتها فى الصلاة . . حتى لا يرانى
أحد معها وأترك لها هى أن تحدد لى المكان الذى سأراها فيه . . فكرت
فى هذا لدرجة أننى كدت أهم بتنفيذه . . لولا أننى استهجننت هذا
الفعل . . واعتبرت هذا التصرف نزقاً لا يتفق مع شخصى أمام أحد
الخدم . . مهما كان هذا الخادم والنية الحسنة التى ينطوى عليها تفكيره . .
وتريشت . . وانتظرت حتى تظهر على المسرح وقلت لعلها عندما ترانى
وهى ترقص تتصرف هى نفس التصرف . . وتعفينى من هذا الخرج أمام
خادم من الخدم . . غير أن الذى حدث شيء غريب لم أكن أتوقعه . .
فقد حل موعد النمرة الراقصة وأعلن عنها فى المايكروفون . . كما هى

العادة . . وإذا بالاسم غير الاسم . . وإذا بالتي ترقص غير زينات . .
 وشعرت بضيق شديد لا حد له . . وظللت طوال السهرة . . مشغول البال . .
 أعيش بعيداً عن نفسي . . وعن الدين معي . . ولولا بعض من عقل . .
 وبقية من تراث . . لافتضح أمرى . . وعرف من معي . . لماذا جئت
 بهما إلى هذا المكان بالذات . . ومن غير شك أن معرفة هذا كان سيئاً
 إلى كثيراً . . وظللت أفكر في أشياء كثيرة . . لم تكن لتخطر لي على بال
 من قبل . . ولم أكن لأصدق أنه سيأتي اليوم الذي يجعلني أنا بالذات
 أفكر فيها . . وعندما بدأ الليل ينهي . . وينتهي معه هذا الحفل الساهر . .
 الذي كان إمتاعاً لجميع من شارك فيه إلا أنا . . أحسست بما يشبه
 الاختناق تماماً . . إذ كيف أنصرف دون أن أعرف لماذا هي غائبة ؟
 أو لماذا لم تجئي هذه الليلة . . وهل تغيب هذه الليلة فقط . . أو هي غائبة
 منذ أيام . . وهل هذه هي أول مرة تتغيب فيها . . أو هي متعودة أن تتغيب
 بين الحين والحين . . وهل هي مريضة . . وهذا هو سبب امتناعها عن
 الحضور الليلة . . أو أن هناك ما شغلها عن الحضور . . وإذا كان
 كذلك . . فما هو يا ترى هذا الشيء ؟

أحسست برغبة شديدة في أن أعرف شيئاً . . . أى شئ . . . ومع أن
 الخداع ليس من خلقى . . . وحتى إذا أردت أن أخادع . . . فأنا لا أعرف . .
 مع ذلك لحأت إليه . . . والغريب أنني نجحت فيه نجاحاً لا بأس به . .
 نجاح من تعود تجربته على الأقل . . . فقد تعمدت أن أترك علبة سجائرى
 وولاعنى الذهبية على المائدة . . . عندما انصرفت مع الصديقين . . . وفي
 أسفل السلم تذكرتهما . . . فتركت من معى في هذا المكان البعيد . .
 وعدت إلى المائدة . . . فوجدت أحد الخدم يحتفظ لى بهما . . . فشكرته
 وأظهرت له سرورى لأمانته . . . وانتهزت هذا الظرف المواتى . . . وأنقلته
 مبلغاً ، وسألته على الفور . . . ولكن دون أن يفتن إلى أهمية السؤال . .
 عن زينات . . . ولماذا لم تجئ الليلة . . . وترقص فى الملهى كعادتها . .
 ولما قلت له ذلك . . . ارتسمت-علام الأسف على وجهه . . . وقال فى
 صوت حزين . . . وكأنه يتحدث عن إنسان عزيز مات :

— لقد طردوها من المحل .

فاندھشت على الرغم منى . . . وظهر الاستغراب واضحاً على وجهى . .

وقلت :

— طردوها . . ولماذا ؟ !

— كانت قد آتھمت فى جريمة قتل . . وقبض عليها وسجنت أياماً . .
فتجاهلت . . وقلت له :

— قتل من ؟ !

— قتل سيّدة من أسرة كبيرة جداً . .

— ولكنّها . . على ما سمعت برئت من التهمة . . ونخرجت من السجن .
فقال الرجل فى سداجة الشرقى الطيب القلب :

— لكن المحل يا سعادة البية . . يجب أن يحافظ على سمعته . .

فركته وانصرفت . . ولا أدري ماذا حدث لى . . ولا ما هى الأفكار
والهواجس التى عشت فيها فى هذه الليلة . . ولا فى الأيام التى أعقبتها . .
ولنأما الذى أدريه هو أننى كنت أشعر برغبة لا تقاوم فى رؤيتها . .
وفكرت فى أكثر من سبيل إلى ذلك . . فكرت فى أن أذهب إليها فى
بيتها . . ولكن إذا فعلت . . فهل تستقبلنى استقبالا حسناً . . أو هى
ستمتنع عن مقابلتى . . وتظن فى ظنّاً سيئاً . . ومن حقها أن تظن هذا
الظن . . ومن حق أى إنسان غيرها أن يظن هذا الظن أيضاً . . وإلا فما هى
الدوافع والأسباب التى تدفع شاباً مثلى لزيارة فتاة جميلة فى بيتها . .
وقد انقطعت جميع الرّسميات التى كانت تربط صلته بها . . وهى كانت
أكرم خلقاً . . من أن تظن هذا الظن السيئ الذى لم يخطر لى على بال . .
ولن يخطر لى يوماً على بال . . أليس مجرد زيارتى لها فجأة فى بيتها

وبلا مقدمات . . أو سابق موعد . . كفيلاً بأن يشير الرعب في قلبها . .
ويجعلها تسقط مغيباً عليها ، كما حدث لها أثناء التحقيق . . إذ ستظن
قطعاً أنني جئت لأقبض عليها ثانية . . وأحقق معها مرة أخرى . . ثم أنا . .
أنا شخصياً ماذا سيظن الناس . . لو تصادف ورائي أجده يعرفني . .
أو وقف أمامي يوماً في قضية . . أو كان يدخل العمارة أو يخرج
منها . . أو هو قاطن فيها ورائي أطرق باب راقصة . .

واستبعدت هذه الفكرة نهائياً . . ورفضتها رفضاً باتاً . . ورحت
أفكر في غيرها . . كأن أبعث لها رسولاً مثلاً . . يخبرها بأنني أريد
أن أراها مجرد الرؤية . . لكي أطمئن عليها فقط . . ولا سيما بعد أن عرفت
أنها تركت عملها . . وأترك لها هي تحديد المكان والزمان الذي تريد . .
وحتى هذه الفكرة أيضاً استبعدتها . . ولم أعد أفكر فيها ثانية . . لا لأنها
محفوفة بالمخاطر . . كالفكرة السابقة . . ولكن لأنني لم أجده هذا الرسول
الذي يؤمن بطهارة أخلاق الناس . . وحسن نواياهم .

ومرت عدة أيام . . أنعني التفكير فيها كثيراً . . وبدأت أشعر
بكراهية لا حد لها لهذا المجتمع الذي نعيش فيه . . والذي يفترض
السوء أولاً . . ويفترضه في كل شيء . . بحيث يجعلك تحتاج إلى جهد
قد يفوق جهد الأنبياء . . لتقنعه بالنية الحسنة . . وهذا بلاء كبير . .
يصاب به الخلق في الصميم . . لأن عهد الأنبياء قد انقضى . . ولذلك
فأنت لكي تصل إلى ما تريد وتحقق رغباتك مهما كانت سامية . . يتحتم

عليك أن تفترض السوء أولاً . . وإن أنت افترضت السوء . . كنت سيئاً . .
أو تصبح على الأقل كالأخرين . . وأنا لا أريد أن أكون كذلك . .
حتى مع نفسي على الأقل . . ولذلك أجهدت نفسي كثيراً لكي أهتمنى
إلى الطريق الذى يوصلنى سالماً إلى ما أريد . ومكثت كذلك إلى أن حدث
ذات يوم أن كنت أقود سيارتى فى أحد الشوارع الهامة . . فى طريقى إلى
مستشفى كبير معروف لزيارة مريض هناك . . غير أننى فى وسط المسافة
وجدت الطريق معطلاً . . بسبب حادث تصادم ضخم انقلبت على أثره
إحدى عربات الترام وتحطمت سيارة كبيرة وتناثرت أجزاؤها . . فاضطرت
للعودة واختراق طريق آخر كنت لا أعرف مسالكه جيداً . . ولذلك
كنت بين الحين والحين أضطر للسؤال أو قراءة لافتات الشوارع . . إلى
أن تصادف وقرأت لافتة تجمل اسماً لشارع أذكره جيداً . . وأذكر أن
اسمه تردد أمامى أكثر من مرة . . وأذكر غير هذا . . إن ذاكرتى ما زالت
تحتفظ به إلى الآن . . وتحفظه عن ظهر قلب . . إنه نفس الشارع
الذى تقطنه زينات . . ووجدتنى فى تلهف زائد أتلفت على الرقم ١٤
والشقة الثانية من اليمين التى تطل على الشارع . والغريب الذى اندهشت له
هو التزق . . والطيش . . والرعونة التى كنت فيها . . وأنا أتلفت ذات
اليمين وذات الشمال باحثاً عن هذا الرقم بالذات وهذه الشقة بعينها . . تماماً
كما لو كنت أعتقد أننى إذا تريت فى البحث لحظات . . انتقل الشارع
من مكانه . . وأقفرت معامله واندثرت المساكن التى فيه . . ومع ذلك

عندما بلغت الرقم ١٤ ووقفت أمام العمارة ورأيت بعيني الشقة الثانية من اليمين المظلة على الطريق . . لم أفعل شيئاً ولم أحرك ساكناً . . وكل الذي فعلته هو أنني أوقفت السيارة فعلاً . . وهبطت منها حقيقة . . ولكني لم أتجه إلى تلك العمارة ولم أطرق باب تلك الشقة الثانية على اليمين . . وإنما اتجهت إلى حانوت أمام العمارة مباشرة واشتريت علبة سجائر أضفتها إلى العلبتين اللتين في جيبى . . ومن ثم ركبت سيارتي وانصرفت على الفور . . .

غير أن هذا الحادث أفادنى من غير شك فائدة كبيرة . . فقد اكتشفت وأنا أشتري علبة السجائر أن بجانب الحانوت وأمام مدخل العمارة مباشرة مطعمًا فاخرًا ، عرفت فيما بعد أنه اشتهر بتقديم أجود أنواع السمك . . وقد لاحظت على رواده أن أكثرهم من عليه القوم . . وأن مثلى لا يشعر بخرج إن هو جلس وتناول طعامه فيه . . وكان مبعث سرورى في هذا هو أنني لو تناولت الغداء يوماً في هذا المطعم . . وجلست فيه أكبر وقت ممكن بحجة تناول الطعام . . فربما شاهدتها . . وهى تدخل العمارة أو تخرج منها أو رأيها وهى تعبر الطريق مادام أنه يتحتم عليها أن تعبر هذا الطريق بالذات . . ومع أنني بطبعى لا أحب هذا اللون من الطعام . . وأشعر بأن السمك بالذات يسبب لى متاعب صحية كثيرة . . فقد كنت ممعوداً . . وكانت معدنى مدللة إلى حد الإزعاج . . ومع ذلك ما كاد يأتى ظهر اليوم الثانى وأفرغ من عملى حتى أسرع إلى هناك . .

وكما أن الآلام — إذا كثرت — تعلمك الصبر والأناة وقوة الاحتمال . .
فكذلك الحب إذا طغى . . يعلمك المكر والدهاء . . ويفتق ذهنك عن
أفكار كثيرة صائبة . . فقد تعلمت أن أوقف سيارتي أمام مدخل العمارة
بالذات وليس أمام المطعم . . لأن ذلك يحتم على أن أعبر الطريق ذاهباً
وأن أعبره عائداً . . وقد يحقق هذا الحدث الذي أنتظره . . وتحقيق
الصدقة التي أبني عليها الكثير من الآمال . . ولما دخلت المطعم . .
تعلمت أيضاً أن أختار مائدتى بجوار النافذة المطلة على الطريق . . بحيث
تكون الشقة الثانية على اليمين في مواجهتى تماماً . . وبحيث أرى العابرين
جميعاً . . ومن يدخل العمارة أو يخرج منها بالذات . . ومن ثم جلست
أتناول طعامى الذى لم أر له لوناً . . ولم أعرف أهو سمك أم غيره . .
فقد كانت نظراتى مشدودة إلى الشقة ونوافذها المغلقة التي يرين عليها
الصمت وتكتنفها الوحشة، والتي لولا الشرفة وبعض المقاعد التي فيها لظننتها
خالية مهجورة من زمن بعيد مما جعلنى أحس بالضيق . . وجعلنى أيضاً
أفكر في العودة إلى ما كنت قد صرفت النظر عنه . . وهو أن أبعث إليها
برسول يخبرها بوجودى في هذا المطعم المجاور لبيتها وأطلب استدعاءها إلى . .
وفكرت فعلاً في أن أبعث إليها بأحد من الخدم الذين في المطعم، ولعل الذى
شجعنى على ذلك صبي صغير كان ضمن الذين يقومون بالخدمة في
المطعم . وقد توسمت فيه الذكاء وارتاحت نفسى إليه . . وإلى الابتسامة
التي تعلو ثغره دائماً . . مما جعلنى ألافقه وأسأله عن اسمه . . ولكنى

لم أفعل . . وكل الذى فعلته هو أننى بعد أن جلست ما يزيد على الساعتين تناولت خلالهما طعامى على مهل ممل وشربت أكثر من فنجان من القهوة لأطيل جلستى دون فائدة . . وجدتنى أضع فى يدى هذا الصبى مبلغاً كبيراً من المال وأنصرف . .

ترى هل أدخر أنا هذا الصبى لشيء ؟ ؟ !

وكثر ترددى على هذا المطعم بعد ذلك . . وكنت أتناول فيه طعامى كل يوم ، وأجلس إلى تلك المائدة بالذات التى هى فى مواجهة الشقة الثانية على اليمين ، المظلة على الطريق . . حتى إن الخدم تعرفوا علىّ وكانوا من كثرة ما أجزل لهم فى العطاء ولا سيما ذلك الصبى الصغير الذى لا تفارق الابتسامة شفثيه يحرصون على إعداد هذه المائدة لى بالذات ، وقد نتج عن ذلك . وعن السمك الذى كنت آكله كل يوم ، أن أصبت بنزلة معوية حادة . . ومع ذلك لم أصل إلى نتيجة . . فالنوافذ مغلقة بصفة دائمة . والصمت يطبق عليها من كل جانب ، وكما قدمت ، لولا بعض المقاعد التى كانت فى الشرفة والتى كانت تستبدل أماكنها من حين إلى آخر . . لظننت أن الشقة فارغة ، ومع ذلك لم أياس . . ولم أقطع الأمل . وما كنت أحسب أبداً أن المحب يهون عليه العذاب إلى هذا الحد . . فقد كنت أحتمل هذا كله بهدوء غريب ، وظللت كذلك إلى أن اتخذت مجلسى من المائدة ذات يوم . . وراح ذلك الصبى الصغير الذى كنت أنحاله من فرط فرحته بلقائى يكاد برغم صغرسنه وضعف بنيته

يحملني فوق كتفيه حتى يجلسني فوق مقعدي أمام المائدة . . وجلست في هذا اليوم كما هي العادة أتطلع إلى الطريق . . وأتفحص المارة فرداً فرداً . . وكلما رأيت فتاة أو سيدة تقبل من بعيد وترتدي ثوباً يقارب لونه الثوب الذي كانت ترتديه زينات عندما قبض عليها وقدمت لي لأحقق معها.. خفت قلبي . . وأحسست بفرحة غامرة يعقبها في الحال ضيق شديد عندما لا أجدها هي . . وأروح بين الحين والحين أيضاً . . أتطلع إلى النوافذ المغلقة ومتعمناى لو أن نظراتي استطاعت أن تخترق هذه الحجب وتنفذ إلى الداخل وترى الفتاة رؤية العين . .

وبينا أنا كذلك . . أحسست فجأة بأن شيئاً ما سوف يحدث الآن . . وقد جعلني أومن بأن القلب يرى قبل العين أحياناً وأنه في كثير من الحالات . . تسبق مشاعره وأحاسيسه سرعة النظر . . فقد رأيت على حين فجأة باب الشرفة يهتز من الداخل وكأنه يريد أن يفتح . . ولكن في حذر . . وقد فتح فعلاً . . وفي حذر شديد أيضاً . . وانفرج عن قدر تستطيع العين من الداخل أن ترى منه ما تريد . . وكأن هذه العين اطمأنت إلى أن أحداً لا يراقبها لأن الباب فتح بعد ذلك رويداً . . فدفق قلبي دقات سريعة . . ومن الغريب أنه ظل يدق بل تزايدت دقاته حتى بعد أن فتح الباب على مصراعيه وظهر منه شاب وسيم أنيق الملبس في ثياب فاخرة . . وتناول في سرعة شيئاً ما كان فوق مقعد في الشرفة ثم ارتد وأغلق الباب خلفه سريعاً تماماً كأنه لا يريد لأحد أن يراه . . أو يعرف

أنه الآن داخل هذا المسكن .

من المؤكد أنى رأيت ذلك تماماً . . ورأيت به عيني . . ومما زادنى تأكيداً هو قلبى الذى ظلت ضرباته تدق طوال الليل وكأنها أجراس الهزيمة تدق فى أذن جيش منكسر يتراجع . . ومع أننى فكرت كثيراً إلا أننى لم أكن محتاجاً إلى جهد كبير لتسوية وجود هذا الشاب فى مسكن الفتاة . . فهى كما وضع لى أثناء التحقيق معها أن ظروفها المالية ليست طيبة وأنها لم تدخر مالا تستطيع أن تنفق منه عند الحاجة وأنها لم تكن لتملك غير راتبها المحدود الذى تتقاضاه من الصالة التى تعمل بها كراقصة ، وحتى هذا الراتب كان لا يكفيا لنهاية الشهر بدليل أنها عندما قبض عليها كادت تموت جوعاً لأنها عافت طعام السجن ولم تكن لتملك نقوداً تشتري بها ما تريد مما أثار عطفي عليها وجعلنى أنفق عليها طوال مدة إقامتها فى السجن تحت التحقيق من مالى الخاص ، ومما لا شك فيه أنه لما انتهى التحقيق معها وأطلق سراحها كانت تعتمد على عملها فى الصالة ، ولكنها طردت من عملها ، وطردت وهى لا تملك ملها واحداً . وكان لابد لها أن تعيش وأن تأكل وألا تموت جوعاً ، ولا بد أنها احتملت كثيراً وعانت الفاقة كثيراً ولكنها لم تحتمل . . لم تحتمل الفقر الذى يبلغ بالإنسان إلى حد الجوع . وليس من أحد فى الوجود يستطيع أن يحتمل ذلك . : يحتمل الفاقة . . يحتمل هذا الفقر المدقع . . إن الفقر شىء بغىض . . شىء كريبه . . رحم الله على بن أبى طالب حين قال : « لو كان الفقر رجلاً لقتلته » ، ولكنه

من سوء حظ الإنسانية أنه غير متيسر قتله .. لأنه ليس رجلاً .. ومعنى ذلك أنه قادر على تعذيبنا دون أن نستطيع نحن حتى أن نمسه .. أن نراه .. وكيف نرى أو نمس شيئاً لا وجود له إلا في كياناتنا الداخلى فقط .. وما يصنعه في هذا الكيان من عذابات .. ومن غير شك أنها فكرت في هذا كله وعاشت تحت وطأة عذابات التي لا تحتمل والتي لم يقدر على احتمالها حتى الرسل . ولذلك سقطت صريعة تحت وطأته وانحدرت من فوق القمة إلى هذا المنحدر .. إلى هذا المستنقع .. إلى هذا الشاب تبيع له جسدها لكي تأكل ..

مسكينة المرأة .. إن الرجل إذا تكاثرت عليه ذئاب الفقر : وأوجعته حدة أنيابها وهي تنغرز في أضلأعه .. وجد ما يدفع به هذه النار عن نفسه أو على الأقل ما يهدئ من اشتعالها .. وجد قوته يحفر بها الأرض .. أو يحمل عليها الأثقال كما تحملها الدواب تماماً .. وشقاء أقل من شقاء .. وعذاب أهون من عذاب .. ونار تحرق ذراعاً أو كتفاً .. أهون من نار تأكل الجسد كله .. أمد المرأة فإذا أعوزتها الحياة إلى ضرورة البيع فهي لا تملك غير جسدها تبيعه .. ومن سوء حظها أنه سلعة رائجة ما من أحد إلا ويظمع في شرائها ويدفع فيها الغالى من الثمن .. والنفيس من المال .. وتعجبت من نقائص هذا المجتمع الذى يطرد فتاة من عملها الذى تقتات منه لأنها اتهمت مجرد تهمة ظالمة من الجائر أن يتهم بها أى إنسان غيرها، في حين أنه يبيع لهذه الفتاة بالذات أن تعرض جسدها عارياً على

الناس وهى ترقص وأن تساوم علانية على هذا الجسد وأن تبيعه فى السوق لمن يدفع الثمن أكثر . . وأن يبيع فى أكثر الأحيان وهو راض مطمئن صفقة هذا البيع ، ويجيز عملية هذا الشراء . .

وارتسمت أمام عيني صورة تقرير الكشف الطبي على الفتاة الذى طلبت توقيعه عليها أثناء التحقيق والذى أثبت أنها عذراء ، كما ارتسمت بجانبه تماماً صورة ذلك الشاب الأنيق الذى رأيته بعيني فى مسكن الفتاة وأحسست بشيء فى صدرى يريد أن يتمزق . . إن التبعة من غير شك تقع علىّ أنا وحدى دون سواى لأننى لو اتصلت بالفتاة عقب الإفراج عنها ولم أتردد هذا التردد السخيف الذى كان يشبه تردد الأطفال تماماً لكنت عرفت على الأقل أنها طردت من عملها ، وكنت مددت لها يد المساعدة ، وكنت بذلك أنقذتها من هذه الهاوية التى تردت فيها . . وحلت بينها وبين هذا المنقلب الذى انقلبت إليه ، وكان هناك أكثر من سبب يدفعنى إلى القيام بهذا العمل الإنسانى البحت . . الخلق الطيب الذى وجدت الفتاة عليه . . الظلم البين الذى لحق بها دون ذنب أو جريرة . . الصدمة العنيفة التى هزت كيائها وكادت تطيح بها عندما عرفت أصل مولدها . . وحقيقة الجريمة التى جاءت عن طريقها إلى هذه الدنيا . . وهذا البؤس الذى عاشت فيه طوال حياتها تن تحت ثقل مرارته . . وهذه النار التى ظلت فى قلبها كل هذا العمر الطويل . . ومع ذلك خرجت منها سليمة معافاة . . لم يحترق معها حتى ظفر . . كما ثبت ذلك رسمياً فى

تقرير الطبيب الشرعى . . وأخيراً هذا الشيء الذى كنت أنا الوحيد دون
سواى الذى يعرفه أيضاً وهو الإلقاء بها فى خضم هذه الدنيا بعد إطلاق
سراحها دون أن تملك قرشاً فى يدها . .

فكرت فى كل هذا . . ثم أحسست بأن ذلك الشيء الذى كان
يريد أن يتمزق فى صدرى ينفجر باكياً وتغرقه الدموع كما أحسست ولعل
ذلك لشعورى بالخطأ البالغ حد الجرم الذى ارتكبته فى حق هذه الفتاة . .
أحسست بأننى إنسان آخر . . يختلف عن الإنسان الذى كنته تماماً . .
إنسان عنده من الجراءة أن يفعل ما يريد . . وعنده من الإيمان الثابت
بطهارة خلقه وحسن نواياه أن يضرب صفحاً عن « أنا » وقدرى
ومركزى ووظيفتى ومجتمعى وأبى وأمى وأسرتى وما إلى ذلك جميعه فى سبيل
إنقاذ هذه الفتاة واللحاق بها قبل أن تأتى النار عليها جميعاً وتركها رماداً . .
وليس فى هذا ما يشيننى أو يشين الفتاة . . فالجرح الذى أصيبت به
لم يكن عن قصد منها وإنما أرغمتها قوة خارجة على إرادتها أن تعرض
نفسها إليه وتطعن نفسها به . . وما من أحد فى الوجود يمسك بسكين
ويطعن بها نفسه إلا إذا كان الموت أحب إليه من هذه النفس . . وأنا
موقن معها فى هذه الحال سيكون موقف الطبيب الذى يعرف مكان الداء،
وإذا عرف الطبيب مكان الداء ضمن الشفاء وضمن للمريض البرء منه
نهائياً، وما من إنسان له ضمير وفى استطاعته أن يشنى إنساناً ، يتخلى عن
هذا الواجب .

ولذلك كان أول شيء فعلته هو أنني ذهبت في ظهر اليوم الثاني وفي نفس الموعد المحدد . . لذهابي كل يوم إلى المطعم . . الذي يواجه العمارة التي تقطن فيها الفتاة وجلست على المائدة نفسها وقد عزمت على أن أفعل شيئاً بالذات . . ولذلك رحت كما هي العادة أتطلع إلى الشقة الثانية على اليمين المطلّة على الطريق وإلى نوافذها المغلقة كما هي العادة كل يوم والشرقة التي لم يتغير فيها شيء أو حتى ترحرح مقعد من مكانه . . غير أنني لا أنكر أنني في هذا اليوم كنت أنظر إلى هذه النوافذ المغلقة وأشعر بما يشبه أنياب الثعابين الصغيرة تنغرز في صدري وتقطع في نياط القلب وازددت إحساساً بهذه الآلام أنني بعد أن جلست بدقائق رأيت سيارة أنيقة حمراء تحمل رقماً التقطته سريعاً تقف أمام مدخل العمارة بالذات وخلف سيارتي مباشرة ويهبط منها ذلك الشاب الوسيم الأنيق الذي رأيته بالأمس في شقة الفتاة . . ورأيت أكثر وسامة وأناقة عنه بالأمس ، ورأيت يحمل بعض اللقافات بين يديه واستطعت أن أتبين إحداها وأعرف من طريقة لفها ومن الزجاجاة البارزة من اللقافة أنها زجاجاة من الخمر . . وبعد أن أغلق السيارة أسرع بالدخول إلى العمارة وهو يتلفت حواليه كما كان يفعل تماماً وهو يخرج إلى الشرقة أمس وكأنه لا يريد لأحد أن يراه .

رأيت ذلك كله بعيني هذا اليوم أيضاً . . وكدت أتهاوى في مكاني وكان الهملك اللعين قد قدم إلي . . فلم أشأ أن أنظر إليه ثانية . . فقد

تبدى لعيني أشبه بالشعابين التى تنهش فى صدرى والتى ازددت إحساساً
بآلامها بعد أن رأيت الشاب بعيني يدخل بيت الفتاة . .

وكان الصبي الصغير الذى لا تفارق الابتسامة ثغره يروح ويحيى
حولى وكأنه كلب أليف يصبصلى بذنبه، وما إن رأته حتى واتتني فكرة
نقلتها سريعاً لكى لا أعود فأتقاعس عنها وأخرجت ورقة وقلماً من جيبى
وكتبت للفتاة ما معناه أننى الآن فى المطعم الذى يقابل بيتها مباشرة ، وأننى
أريد أن أراها الآن لأمر هام جداً وأننى فى انتظارها . .

كتبت هذا وأردت ألا أكتب شيئاً آخر . . ولكنى عدت وفكرت . .
ربما ولسبب وجود هذا الشاب عندها الآن يتعذر عليها الخروج . . وأحتاج
إلى هذه المحاولة مرة أخرى . . ولذلك زدت على ما كتبت . . وأنه لو تعذر
عليها مقابلتى الآن فلانى أنتظر منها تليفوناً فى وقت حددته لها وعينت لها
ساعته وهو الوقت والساعة الذى سأكون فيهما فى هذا الرقم الذى دونته لها .
دونت هذا كله سريعاً فى الورقة التى أخرجتها من جيبى وطويتها ثم
أشرت إلى الصبي الصغير بأصبعى فجاءنى يركض ككلب الصيد تماماً . .
فقلت له فيما يشبه الهمس لأننى من غير شك أحسست بخرج عندما
بدأت أنفذ ما اعتزمت عليه :

— هل ترى هذه العمارة ؟

أشرت له بنصف أصبعى حتى لا يلاحظ أحد . . فقال :

— نعم .

— وترى هذه الشقة الثانية على اليمين ذات النوافذ الثلاث المغلقة ؟

— نعم . . نعم .

فقلت وقد ازداد صوتي خفوتاً وأنا أناول الورقة :

— أعط السيدة التي تقطن الشقة هذه الورقة . . وانتظر ماذا

ستقول لك وعد سريعاً .

فقال الصبي في غير مبالاة :

— حضرتك تقصد الست زينات الراقصة ؟

فابتهجت مطمئناً لأنه يعرفها . . وقلت وأنا أبتسم :

— نعم . . نعم . . هي .

فقال الصبي وقد تلاشت الابتسامة من على ثغره . . شأن من يعجز

عن جميل كان يود أن يصنعه :

— إنها تركت هذه الشقة منذ أسابيع والآن يقطنها شخص آخر .

إن الإنسان كتلة من المتناقضات أو أنا كذلك على أقل تقدير . . .
 فقد كان الذى ينتظر أن يحدث عندما سمعت هذا النبأ . . . أن تأخذنى
 المفاجأة . . . فقد كنت أنتظر كل شيء إلا أن أسمع هذا . . . أو أفكر
 فيه . . . وما دمت قد سمعته فكان يجب على أن أضيق به أولاً . . . ثم أضيق
 بنفسى ثانية وأضيق بهذه السلسلة الطويلة من الهواجس السوداء التى عشت
 فيها طوال تلك الأيام والساعات منذ أن رأيت هذا الشاب . . . وظننت فيه
 ما ظننت واتهمت الفتاة بما اتهمتها به . . . ولكن العكس تماماً هو الذى
 حدث . . . لأننى ما كدت أسمع ما قاله الصبي وأعرف أننى كنت خاطئ
 الفهم حتى انتابتنى فرحة جارفة . . . كادت تخرجنى حتى عن وقارى
 الذى اعتدت أن أكونه حتى بينى وبين نفسى . . . ورحت من فرحتى
 أريد أن أفعل شيئاً أو أفعل كل شيء . . . أن أضحك مثلاً بصوت
 عال . . . أحتضن هذا الصبي وأقبله . . . أخرج كل ما فى جيبي من نقود
 وأعطيه إياها . . . أوزعها على هؤلاء الخدم جميعاً . . . أطعم كل هؤلاء الذين
 فى المطعم على نفقتى . . . ولما لم أستطع أن أفعل شيئاً من هذا ، فعلت كل
 ما أريد فى طبق السمك الذى أمامى والذى كان يتبدى لعينى من لحظات

قصار أشبه بالثعابين تماماً . . رأيت في عيني كالفرحة التي أنا فيها وفي ثغري أحلى مذاقاً من الشهد ولذلك التهمته التهاماً وأكلته عن آخره . . ولم أفعل ذلك فقط . . وإنما طلبت مزيداً من هذا الطعام الذي هو من أحلى ما تذوقته في حياتي . .

أكل هذا لأنه ثبت لي خطأ ظني في الفتاة . . وأنها بريئة من هذه التهمة الظالمة التي اتهمتها بها وأن عرضها ظاهر لم يمس وأن ذيلها نظيف لم يلوث ؟ . . وهل إلى هذا الحد يهمني شرف هذه الفتاة ؟ وهل هو يهمني إلى هذا الحد الكبير من أجل « أنا » وخلق الذي بطبعه يستنكر هذا الجرم ويستبشع هذه الجريمة ؟ أو هو يهمني من أجل هذه الفتاة بالذات . وحرصى على سلامتها هي بالذات ؟ من غير شك أنه من أجلها هي . . وليس من أجل أنا . . أو أجل خلق . . أو تربيتي . . أو طباعي . . بدليل أنني عندما رأيت ذلك الشاب وظننت فيها هذا الظن الذي بلغ عندي مرتبة الإيمان . . كنت خالص النية صادق العزم على أن أمد لها يدي وأنتشلها من هذه البئر التي هوت إلى قاعها . . إذن الأمر أمر الفتاة بالذات وليس أمر سواها . وليس هو أمر العطف فقط كما كنت أظن . . أو كما كانت تغالطني نفسي وتريد أن تقنعني . . بأن صلتى بالفتاة هي أنني ربما أستطيع ذات يوم عن طريق هذه الصلة أن أكتشف شخصية ذلك الرجل الذي ضبطته الفتاة في مخدع المجنى عليها والذي أصبح هو المفتاح الوحيد لهذه القضية بعد قتل دسوقي . .

إذن لم يكن الأمر أمر هذا أو بعضه أو كله . .
 إنما هو أمر الفتاة . . والفتاة بالذات . . وإذن . . أنا أحب هذه
 الفتاة . . .

* * *

كانت المشكلة التي واجهتني والتي شغلت بالي وقتاً طويلاً هي كيف
 أعثر على زينات وأهتدي إلى عنوانها . . وأعرف أين تقيم . . وكان هذا
 بالنسبة لي أمراً عسيراً كل العسر . . فقد تبين بعد كل هذه الأحداث
 جميعاً . . وبعد أن تأكدت هذا التأكد البالغ حد الإيمان والذي لا سبيل
 إلى الشك فيه . . أنني أحب هذه الفتاة . . تبينت أنني ما زلت عند
 طباعي التي جبلت عليها . . وهي خجلى الشديد وارتباكى الذى لا حد له
 في كل ما يمس عواطفى الخاصة ويتصل اتصالاً مباشراً بمشاعرى وأحاسيسي .
 وإلا كان عندي أكثر من سبيل لمعرفة مكانها والعثور عليها في ساعات
 ولكننى لم أجرو حتى على مجرد التفكير في ذلك برغم الأسباب القوية التي
 تدفعني دفعاً لرؤيتها واللقاء بها . . لا من أجل الشوق إلى رؤيتها فقط
 أو الرغبة المتزايدة في التحدث إليها والجلوس معها ، وإنما لكي أطمئن عليها
 وأعرف كيف تعيش . . ومن أين ترتزق بعد أن طردت من عملها . . حتى
 لا تضطرها الظروف إلى التورط فيما كنت قد ظننتها تورطت فيه واهتمتها
 به ظلماً . . واهتمتها بلا تريث أو تبصر في خطورة هذه الهم الظالمة التي
 ينهم بها الناس .

وهكذا مكثت ثلاثة أيام كادت هذه المشكلة تنسينى حتى وجودى ككائن بشرى يعيش على وجه الأرض . . . ولما ضاقت بى التفكير ، وثقل على نفسى . . . وبدأت أستشعر ثقله . . . ومرارته أيضاً . . . فكرت فى أن ألتجأ إلى وظيفتى وأعيد التحقيق فى القضية من جديد . . . ومن السهل وجود الأسباب التى تبرر ذلك وأطلب القبض على الفتاة مرة أخرى ولا بد من أنه سيقبض عليها . . . وبذلك يحل هذا الإشكال ، غير أنى استنكرت هذه الفكرة . . . واستبعدتها لعدة أسباب لعل أهمها الظلم الذى سيقع على الفتاة مرة أخرى . . . هذا إذا افترضنا جدلاً أننا سنجد الضمير الذى يبيح لى أن أرضى رغباتى على حساب المهنة التى أحترمها ، وهذا الضمير لن أجده إلا إذا وجدت الموت ، وأنا لست مجنوناً حتى أبحث عن الموت .

وفكرت فى السمارة التى كانت تقطن فيها الفتاة . وفى بواب هذه العمارة بالذات والذى لم أعرفه ، ولكنى أعرف أن بوابى العمارات جنبيها هم دائماً حملة أسرار السكان . . . فالبواب يعرف عن الزوجة ، أكثر مما يعرف زوجها ويعرف عن الزوج أكثر مما تعرف زوجته . . . وهو ودود بطبعه ومتسامح بحكم مهنته حتى الذين يتركون السكنى فى عماراته هو أكثر الناس تتبعاً لأخبارهم . . . فإن كان يبغضهم وسره خروجهم فهو يحلو له أن يعرف ما يسببونه من متاعب لغيره وإن كان يحبهم فهو فى أكثر الأحيان لا يقطع صلاته بهم حتى ولو بعد واديعهم عن واديه . . . وفكرت فى مطعم السمك مرة أخرى . . . وبرغم الملح الذى أحدثه لمعلتى مجرد هذا التفكير . . .

فقد ذهبت إلى هناك وما كنت لأظن أو أتصور بحال من الأحوال أن مجرد هذا الذهاب العابر إلى هذا المطعم سوف يترتب عليه الكثير من الأحداث الهامة ، وبمثل هذه السرعة التي حدثت بها ، فما إن دلفت قدمي إلى هذا المطعم ورآني ذلك الصبي الصغير الذي لا تفارق الابتسامة ثغره حتى جاءني راكضاً تغمره فرحة لا حد لها وتزدحم الكثير من الألفاظ على شفتيه حتى خلته يمسك بها في جهد كيلاً تتساقط قبل أن يذكرها لي . . ولذلك لم ينتظر حتى يحيني كعادته وينحني تلك الانحناءة السمحة التي تعودها . . وإنما قال على الفور وكأننا أصدقاء خلصاء يجب كلانا الآخر الحب كله :

— أين أنت يا سعادة البك ؟ !.. لقد كنت أنتظر مجيئك كل يوم بفارغ الصبر .

— خيراً . .

— الست زينات . .

وما إن نطق هذا الاسم حتى خفق قلبي وأحسست بضرباتهِ تتزايد وقلت :

— ماذا بها ؟

— لقد عرفت سكنها الحديد . . وعرفت أين هي تقيم الآن . .

— عرفت بيتها ؟

— نعم .

— وكيف عرفته ؟

— من يومين فقط . . في اليوم الثاني مباشرة لليوم الذي أعقب
سؤالك عنها لمحتها وأنا أعلم هنا في المحل واقفة أمام العمارة تتحدث إلى
عم خير البواب . فأسرعت إليها في الحال و . .
وأراد الصبي أن يتم حديثه . . لكنني قاطعته في لهفة :
— هل قلت لها شيئاً ؟

فازدادت ابتسامة الصبي تركيزاً فوق ثغره وقال في كبرياء :
— عيب . . محسوبك . . وإن كان صغيراً في السن لكنه يفهم
كل شيء . .

فأحسست بكثير من الحجل يلم بي ويجعلني أكاد أتلغم في الحديث
ولكنني قلت :

— وكيف عرفت عنوانها إذن ؟

— كانت قد تركت بعض متاعها عند عم خير البواب . . وهو عبارة
عن أباجورة صغيرة . . وحقيبة بداخلها بعض الملابس وجاءت لتبحث
عن أحد ليوصل لها هذه الأشياء إلى مسكنها الجديد فتطوعت أنا للقيام
بهذه المهمة .

وابتلع الصبي أنفاسه سريعاً واستطرد قائلاً في نفس الفرحة التي تجعله
يكاد يرقص أمامي وهو يتحدث :

— وقد تطوعت بهذه المهمة عن طيب خاطر من أجل سعادتك فقط .

— لماذا من أجلى ؟

— عفواً . . أقصد من أجل أفضالك الكثيرة التى غمرتني بها . .

— أشكرك على أى حال . . وأين تقيم ؟

— فى مصر الجديدة . .

فقلت فى دهشة :

— مصر الجديدة ؟

— نعم .

— وذهبت أنت إلى مصر الجديدة ؟

— يا سلام . . ولو كانت فى أسوان لذهبت إليها من أجل

خاطر سعادتك .

فازددت نخبلاً وازددت أيضاً تقديرًا لركة إحساس هذا الإنسان

الصغير وقلت له . . ولكن من قلبى هذه المرة :

— أشكرك كثيراً يا عمر . .

— تفضل .

— ماذا ؟

وأخرج عمر من بين طيات ذلك الشريط الأحمر الذى يلتف حول

صدر الثوب الأبيض الذى يرتديه . . ورقة صغيرة ناوها إلى . . فقرأت

فيها الآتى : ١٢٥ شارع السبق . . الدور الأرضى . . شقة رقم ١ —

مصر الجديدة . . .

كان من الأمور التي يسرت لي مهمتي كثيراً وأعفتني من أكثر من حرج كنت أنتظره . . المكان الذي ذهبت إليه في مصر الجديدة وموقع البيت الذي تقطنه الفتاة . . فقد كان المكان هادئاً إلى حد كبير . . والبيت يكاد يكون خالياً من كل جانب وأمام البيت يقع الطريق مباشرة وهو طريق عريض جداً . . يليه مباشرة ميدان السبق الفسيح وكان الوقت ليلاً . . والطريق خالياً من المارة تماماً . . اللهم إلا سيارة تغدو أو تجيء يقودها عاشق ولهان أو محب تجلس بجانبه حبيبة مدلهة . . أو بعض العشاق من الفتيان والفتيات ينقلون الأقدام في خطواتهم فتتكسر أعطاف العذارى اللاتي تمايلن خصوصاً وهن يسرن متأبطات الأذرع بجانب سور الميدان الفسيح . ومثل أولئك أو هؤلاء في استطاعة من كان في مثل حالي أن يطمئن إليهم وإلى أن نظراتهم لا تمتد إلى أكثر من وجه الحبيب ، وأن عيونهم لا تبصر غير بسمه الثغر أو عذوبة الشفاه ولا تتطلع لغير رقة الخد أو لفئة الجيد وإن زادت فإلى استدارة الجبين أو رجفة الشعر . . ومع ذلك تريث كثيراً وتصرفت بحذر شديد وحرص بالغ الدقة . . إذ قطعت الطريق أولاً عدة مرات رائحاً غادياً . . ومع أني لم أجِد إلا كل ما يطمئن . . ومع

وثوقى من أن أحداً فى هذه الضاحية النائية لا يعرفنى من قريب أو بعيد . . .
 فقد ذهبت إلى شارع آخر يبعد كل البعد عن هذا الشارع الذى أريده
 وأوقفت سيارتى هناك . . . وعدت إلى بيت الفتاة على قدمى . . . ومن حسن
 الحظ أنى لم أصعد غير درجات قليلة العدد جداً حتى وجدتنى بعدها
 أمام باب مسكن الفتاة مباشرة . . . وقد سرنى هذا ووقفت لحظات استعدت
 فيها أنفاسى قبل أن أدق جرس الباب . . . ولما دقت الجرس . . . لم يفتح
 الباب سريعاً . . . ولم يرد أحد فى الداخل على الفور مما جعلنى أظن أن
 لا أحد فى البيت ، ولولا أنى رأيت بعض شعاع من نور تسرب إلى عيني من
 خلف شراعة الباب الزجاجية لانصرفت . . . ثم رأيت النور بعد لحظة
 يضىء الصالة من الداخل وسمعت صوتاً أعرفه جيداً وأعرف نبراته جيداً
 أيضاً يقول من وراء الباب :

— من ؟

— أنا .

— أنت من ؟

فأسقط فى يدى وارتبكت ارتباكاً شديداً . . . إذ ماذا أقول لها . . .
 وهل تعرف من أنا إذا قلت لها اسمى . . . وازددت ارتباكاً وأنا أجيب :
 — أنا فكرى . . .

فازدادت دهشة وهى تسأل من خلف الباب أيضاً :

— من فكرى ؟

— أرجو أن يفتح الباب . . وستعرفين من أنا . .

ورأيت خيال يدها من خلف الأسطوانة الزجاجية التي تتوسط شراعة الباب تمتد وحركت في بطاء مزلاج الشراعة من الداخل . . وسمعت لذلك المزلاج الصغير صوتاً بغيضاً خشناً مما يدل على أنه لم يستعمل منذ وقت بعيد . . وما إن انقربت شراعة الباب عن نصف وجهها ورأيتني حتى شحب وجهها فجأة وجحظت عيناها في خوف شديد وقالت متلعثمة وأنفاسها تتدهور في سرعة غريبة ويدها ما زالت ممسكة بمزلاج الشراعة وكأنها ماتت عليه . . ويدها الأخرى ترتجأ أصابعها فوق الصدر وهي تبحث في اضطراب عن فتحة القميص عند الصدر وتلم أطرافها فوق الثديين وتخفيهما مع الصدر في طيات الثوب :

— أرجوك . . إن كان معك أحد من الجنود . . فلينتظروا حتى أرتدى ثيابي على الأقل .

فاندَهشت دهشة بالغة . . وقلت :

— معي جنود . . ولماذا ؟

— ألم تجي لتقبض عليّ ثانية ؟

فانخفض صوتي في كثير من الدهشة . . وأنا أقول بألم بالغ :

— أنا أقبض عليك ؟

ثم استطردت على الفور . . ولكن بصوت عال :

— أنا بحثت فقط لأسأل عنك وأطمئن عليك . .

فارتاحت عيناها على الفور وهدأت أنفاسها وقالت مبتسمة وهي تفتح لي الباب :

— أهلاً وسهلاً . . . تفضل . . .

ولما دخلت . . . لم أرها . . . حتى إنني ظننت أنها إنما انصرفت إلى الداخل . . . ولكني لما استدرت لأغلق الباب رأيتهما مخفية خلفه تلم — وهي تكاد ترتعش من الحجل — أطراف تلك الغلالة الرقيقة فوق ما تعرى من جسدها . . . فأغلقت عيني على الفور . . . حتى لا تتسرب نظرة أخرى على الرغم مني — كما حدث — وترى غير الوركين وثنية الساق التي تشع نوراً من خلف نسج الغلالة الرقيقة السوداء وابتعدت خطوات . . . كان ظهري أثناءها لها . . . ولما انصرفت هي إلى إحدى الغرف وتأكدت من أنني وحدي في البهو . . . فتحت عيني . . . فلم أجد غير كنية واحدة مستطيلة وضعت في صدر البهو وكانت هي كل شيء تقريباً فيه . . . فجلست . . . ومن رحت أتلقت حولي وأتطلع إلى متاع البيت البسيط المتواضع الذي ينم عن ذوق من غير شك . . . ولكنه في الوقت نفسه يعبر عن فقر مدقع ويعبر عنه في صورة واضحة من صورهِ البغيضة التي تتمثل في كل شيء . . . وشاهدتها في كل شيء : في الكنية التي أجلس فوقها وقد تأكل غطاؤها وبرزت نتف القطن السوداء المغبرة على جوانبها أشبه ما تكون بأمعاء بجثة متعفنة .

في المصباح الكهربائي الصغير المعلق في وسط البهو يرسل ضوءه

- الشاحب في صمت . . وقد تركت عليه آثار الذباب بقعاً سوداء أشبه ما تكون بآثار الجحدرى في الوجه السمح . . كما شاهدت هذه الصورة البغيضة للفقر بشكل أوضح في الطاولة الصغيرة التي كانت بجانب الكنبه . والتي رأيت فوقها بقايا طعام متواضع جداً . . نصف رغيف جاف يعث صرصار في قلبه وطبق صغير به بعض حبات سوداء صغيرة الحجم من الزيتون . . وبجانب الطبق ورقة صغيرة ملفوفة على بقايا من قطع الجبن الرومي التي سال زيتها حتى تلوثت به الورقة بحيث أغرى بها صرصاراً آخر راح يلف ويدور حولها .

رأيت هذا كله وشعرت بشيء من الألم كما لو كنت أنا الذى يعيش في هذا الشقاء . . غير أننى بجانب هذا الألم أحسست بشيء من الاغتياب أيضاً . . لأننى تذكرت هواجسى السوداء التي عشت فيها بعد أن رأيت ذلك الشاب الأنيق في شرفة البيت الذى كانت تقطنه الفتاة سابقاً وكنت أظنه يقيم معها . . والأحزان التي عشت فيها عندما ظننت هذا الظن الأسود . . والتبعة الجسيمة التي ألقيتها على نفسى لأننى تكاسلت في البحث عن الفتاة وتركتها حتى أرغمها الفقر على أن تتردى في الهاوية، ولعل هذا بالذات هو الذى جعلنى الآن أشعر بهذا الاغتياب الزائد . . لأننى استطعت أن أعثر عليها في الوقت المناسب . . وأن أمد لها يدي في اللحظة الحرجة . . وبدأت - وأنا جالس في مكاني - أفكر في هذه اليد التي سأمدها لها . .

لكن قطع على تفكيرى أن الفتاة كانت قد فرغت من ارتداء ملابسها وأقبلت تقطع البهو فى روب غامق اللون سميك النسج من الصوف الخشن أغرقت جسمها كله فيه . . وحجبته خلفه كما تحجب السحائب السوداء وجه القمر وتغطيه وتحجب نوره عن العين . . وكأنها أدركت بفطنتها كل ما كنت أفكر فيه قبل مجيئها لأنها قالت وهى تجلس قبالى فوق مقعد صغير كانت قد أتت به معها من الغرفة التى كانت تستبدل فيها ملابسها :

— معذرة . . فأنا ما زلت حديثة العهد بالسكنى هنا . . ولذلك فالبيت لا يزال كما ترى .

— إنه سكن جميل على أى حال .

وحانت منها نظرة عابرة . . فرأت الطاولة التى كانت يجانبي . . والصرصار الذى فوقها يروح وييجىء حول ورقة الخبز . . كما يروح وييجىء العابد حول المحراب . . فهضت سريعاً ونحت الطاولة بعيداً ثم عادت إلى مقعدها وقالت فى شيء من الحجل وهى تحاول أن تبعد أشياء معينة بالذات حتى لا نتحدث عنها :

— أصنع لك فنجاناً من القهوة ؟

— أشكرك .

فنهضت ثانية وقدمت لى سيجارة . . فتقبلتها منها وقلت وأنا أتناولها وأشعل لها سيجارتها :

— أما زلت تلذنين كثيراً ؟

— كثيراً جداً . . .

— ولكن هذا يضر بصحتك .

— ومنذ أيام أصبت بنزلة شعبية حادة . . ألزمتنى الفراش طويلاً . .

فأحسست على الفور بما يشبه وخز الإبرة فى قلبى لمجرد علمى أنها

كانت مريضة . . وقلت :

— لقد سألت عنك . . فى المرقص الذى كنت تعملين به . .

— وماذا قالوا لك ؟

— إنك تركت العمل هناك . .

— شكراً لهم على أى حال .

ثم استطردت وهى تبتسم فى مرارة :

— الحقيقة أنهم طردونى .

فتجاهلت كل شىء وقلت :

— طردوك ؟

— نعم . .

— لماذا ؟

فازدادت الابتسامة الشاحبة التى كانت لا تزال مرتسمة على شفيتها

مرارة وقالت :

— لأننى مجرمة وقاتلة وخريجة سجون . .

فأحسست بأن هذه الطعنات كأنها موجهة لى شخصياً . . فقلت :

— كيف يقولون هذا ؟

— أليست حقيقة ؟

— الحقيقة أنه ثبت براءتك بدليل الإفراج عنك . .

فانخفض صوتها وهى تقول :

— الناس لها الظاهر . . وليس هناك جناح على ما يقولون .

وأردت أن أغير هذا الحديث الذى أدركت أنه يؤلمها كثيراً . . فقلت :

— وماذا فعلت بعد أن تركت العمل ؟

— قعدت فى البيت طبعاً .

— ومن أين كنت تنفقين ؟

— الله يعلم .

ثم اختنق صوتها وهى تستطرد :

— ما زال فى الدنيا بعض الخير . . وقد بعث الله لى بذلك الرجل

الطيب . .

وأرادت أن تنطق اسمه . . ولكن الدموع غلبتها . . فتركها لحالها . .

ولما هدأت قالت من تلقاء نفسها وهى ما زالت تبكى :

— لقد بعث الله بهذا الرجل . . عم خير . . فكان لى أكثر من أب .

وكننت قد نسيت هذا الاسم برغم أنى سمعته مرة . . ولكن أين . .

لا أدرى . . ولذلك سألت :

- من عم خير ؟
- بواب العمارة التي كنت أقطن بها . .
- فأغمضت عيني كما لو كنت لا أريد أن أرى سكيناً تغوص في
صدرى . . وقلت وأنا مغمض العينين :
- لقد أعطيتك رقم تليفوني . . فلماذا لم تتصل بي ؟ !
- ولما خفضت وجهها إلى الأرض . . وأغلقت عينيها الواسعتين على
الدموع الكثيرة التي فيها ولم تجب . . قلت :
- هل ضاع منك الرقم ؟
- إنه الشيء الوحيد الذي أحمله في صدرى دائماً .
- وبرغم سوء الحال الذي أنا فيه . . والسكين التي تغوص في صدرى
وأستشعر آلامها الزائدة . . . قلت كطفل داهمته فرحة زائدة :
- أشكر لك هذا الشعور . . وسوف أحفظ لك ما حييت هذا
الجميل . .
- أي جميل ؟
- أنك تحتفظين برقم تليفوني . .
- إنني في الحقيقة إنما أحتفظ بجميلك الذي أسديته لي . .
- إنك أخت . .
- فانخفض صوتها حتى كدت لا أسمعها وهي تقول وكأنها تخاطب
نفسها :

— أخت ؟ هذه أول مرة أسمع فيها هذه الكلمة من إنسان .
 ومرت بعد ذلك فترة صمت كانت من أثنى الفترات التي مرت بي
 في حياتي . . . ولذلك وددت أن تطول . . . لولا أن لسانى تعجل سؤالها . .
 فقطعت هذا الصمت الجميل الذى لا يتوفر كثيراً في حياة كل إنسان . .
 وقلت :

— إذن . . لماذا لم تتصلى بي ؟

— خشيت أن أثقل عليك . .

— تثقلين علىّ أنا ؟

قلتها في دهشة أثارت انتباهها لأنها رفعت عينها إلىّ . . ولكنها عادت
 فخفضتهما ثانية وقالت وكأنها تصر على شيء :

— نعم خشيت ذلك . . .

— ما هو بالذات الشيء الذى خشيته ؟

— أشياء كثيرة . .

— مثل ؟

ولما لم تجب . . وتذرعت بالصمت . . ظننتها تقصد الحرج من المال
 ومد يد المساعدة إليها . . ولذلك قلت :

— وكيف تثقلين علىّ في أى طلب تطليبه . . إنك بالنسبة لى شيء

هام . . شيء كبير . . وأظنك قد أدركت هذا . .

فقلت وهى لا تزال تلقى بنظراتها إلى الأرض :

— ولأننى أدركت هذا . . خشيت أن أتصل بك . .

— خشيت ماذا ؟

قلتها فى حدة . . وكأننى أنهرها على عمل مشين ارتكبته . . فقالت
وهى تنظر إلى هذه المرة :

— لم يكن ما ظننت أنت هو الذى خشيته أنا . . فأنت أكرم أخلاقاً
من أن يظن فىك هذا الظن . . وقد وضح كرم هذه الأخلاق عملياً
عند تطوعك بالانفاق على وأنا فى السجن . . ووضح أكثر من ذلك عندما
تكرمت وأعطيتنى رقم تليفونك . . ومن غير شك أعطيتنى لهذا السبب . .
وليس لسواه . . أنا أعرف ذلك جيداً . . ولكن الذى خشيته حقيقة . .
وما زلت أخشاه . . وسأظل أخشاه . . هو أننى أخاف عليك .

— تخافين علىّ أنا ؟

— نعم . .

— مم ؟

فانخفض صوتها كثيراً جداً وهى تقول :

— أرجو أن لا تنسى أننى راقصة . .

— وماذا فى ذلك من خوف ؟

— كلام الناس .

— وهل هم يعرفون عنك مثل الذى عرفته أنا ؟

— الناس دائماً لها الظاهر . .

- وما شأننا بهم ؟
- أنسيت أنهم يكونون المجتمع الذى نعيش فيه . . وأنت واحد من هذا المجتمع . . وأنا واحدة فيه . . وأنت شريف ينظرون إليك بعين الاعتبار والتقدير . . وأنا راقصة ينظرون إلى بعين السخرية والتحقير ؟ . .
- وهل أنت كذلك ؟
- فصمت حيناً . . ثم قالت ؟
- ألسنت راقصة ؟
- فنطقت فى دهشة بالغة . . وبصوت مرتفع وكأننى أصرخ :
- ماذا تقولين ؟
- هل تريدنى أن أكذب عليك ؟
- أنت محتقرة وموضع سخرية من الناس ؟
- نعم أنا كذلك ؟ . .
- كيف تقولين هذا ؟
- قلت لك إننى راقصة ؟
- الرقص مهنة . .
- والبغاء أيضاً مهنة . .
- قالت ذلك وهى تزم شفتيها فى مرارة . . فقلت :
- كيف تقولين هذا القول ؟
- لا أدرى لماذا . . إذا كذبت على الناس جميعاً . . فأنا لا أستطيع

أن أكذب عليك . .

— وأنا كذلك . .

— إذن . . لماذا تغالط نفسك ؟

— أنا لا أغالط نفسي أبداً . . وإنما أتكلم عنك أنت . . وأتكلم

عنك في صدق . .

فاعتدلت في جلستها وتحدثت في روية وهدوء حديث الواصل تماماً :

— أنا لا أتحدث الآن عنى « أنا » وإنما أحدثك عن نفسي . .

أحدثك عن مهنتى كراقصة . .

— الرقص فن . . وفن معترف به . .

— اعترفنا به فقط . . ونبيحه . . تماماً كما اعترفنا بالبغاء . . وقلنا

عنه إنه يدفع عن المشتغلين به غائلة الفقر .

فأحسست بغیظ شديد لهذه الهمة الظالمة التى تريد أن تلصقها

بنفسها . . وقلت محتدّاً :

— كيف تقولين هذا . . وتقرنين السيء بالحسن . . دون مبالاة

بهذا الفرق الكبير بين الاثنين ؟

فقلت في نفس الهدوء الذى تتحدث إلى به :

— هذا الفرق الذى تتحدث عنه — فى نظرك فقط — وفى نظر القانون

أيضاً . . ولكن لا وجود له أبداً فى نظر التى تحترفه . . أقصد فى نظر

الأخلاق . . إذا ما أردنا أن نتحدث عنها كأخلاق . . وإلا فقل لى

أنت . . ما الفرق بين التى تعرى جسمها فى الظلام لقاء بضعة قروش . .
والى تعريه علانية تحت الأضواء نظير بضعة قروش أيضاً ؟ . .
وكأنها لم تنتظر منى الجواب . . لأنها قالت مستطردة :

— قد تقول إن الفرق فى الامتلاك ، وأقول أنا لك حتى هذا الفرق
أدنى إلى الاستهانة منه فى النور إلى القذارة والاستهانة به فى الظلام . .
ومع أننى لم أفهم هذا المعنى الأخير من قولها . . ومع أننى هممت
فعلاً أن أسألها تفسيراً . . إلا أنها قالت وهى تشير إلى بأصبعها ونبرات
صوتها تكاد تشتعل غلاً وغيظاً وربما خغينة أيضاً :

— وأعتقد أنك أنت بالذات . . وأنت من خيرة المثقفين اول من
يؤمن بهذا . .

— أو من بماذا ؟

— بأن لا فرق عندك . . بين البغى والراقصة . .
فقلت مستنكراً فى شدة :

— هذه تهمة ظالمة . . تلصقنيها بى . .

فقالت فى هدوء وهى تنظر إلى الأرض هذه المرة :

— إذن لماذا طلبت توقيع الكشف الطبى علىّ للتأكد من صحة أقوالى

وتعرف أعذراء أنا . . أم غير أعذراء ؟ . .

وفجأة دارت بى الأرض وأدركت هى ذلك لأنها ابتعلت أنفاسها

سريعاً وقالت :

— معذرة . . إذا قلت هذا الآن . . ولم أقله لك في حينه . . وصدقني
أننى سررت كثيراً لأنك فعلت ما فعلت برغم ما فى هذا من استهانة بجرمة
فتاة . . لأنك لو لم تفعل لرميتك بالغباء . . وشبهتك بالأبله الذى يصدق
أضخم الأكاذيب . .

— أرجوك ... إننى أتألم . .

ولما رأتنى أتألم حقيقة . . قالت وهى تشعل لى لفافة من علبها وتشعل
لها أخرى :

— أظنك الآن أدركت لماذا لم أتصل بك تليفونياً بالرغم من أننى أحفظ
برقم تليفونك إلى الآن . وبالرغم من أنه كما قلت لك أعز شىء احتفظت
به فى حياتى . .

— إننى أشكرك . . ولكن الذى أريد أن أعرفه . . طالما أن نظرتك
لمهنتك هى هذه النظرة ، فلماذا تشتغلين بها ؟

وكنتم أرى من وراء هذا السؤال إلى شىء . . فقالت :

— لأننى لا أريد أن أثقل على أحد . . كما أثقلت مثلاً على عم خير
بواب العمارة التى كنت أقطنها سابقاً . . بعد أن طردونى من عملى . .
— يخيل لى أنه رجل طيب فعلاً . .

— وددت لو عشت حياتى بجانب هذا الرجل الطيب العجوز . .

— ولماذا تركت السكنى فى عمارته ؟

. كان الإيجار غالباً وقد ظل هذا الرجل يسعدنى إلى أن أعجزته

- الظروف عن هذه المساعدة ففضلت هذا السكن لعدة أسباب . .
- أليست مصر الجديدة بعيدة وتكاليف مواصلاتها كثيرة ؟
- لم أعود أن أخرج من بيتي أبداً . . لا في الليل ولا في النهار . .
- إلا في أوقات عملي فقط . . وهذا السكن قريب من عملي بالجديد الذي سألتحق به بعد يومين .
- أى عمل ؟
- فقلت وهى تبسم ابتسامة شاحبة ؟
- راقصة طبعاً .
- فى أى ملهى ؟
- عم خير له شقيقة تعمل خادمة فى منزل مدير ملهى حلمية بالاس . . وقد توسطت لى فى العمل هناك برغم تفاهة الأجر . .
- كم ستتقاضين هناك ؟
- خمسة عشر جنيهاً . .
- فقط ؟
- فقط .
- ولماذا قبلت هذا الأجر التافه ؟
- تعبت من التعطل . .
- فصمت حتى أعالج بعض آلامى . . وقلت وأنا أنظر إليها وأريد أن أبكى :

— منذ متى وأنت بلا عمل ؟

— منذ اليوم الذى خرجت فيه من السجن .

— كل هذه المدة ؟

— نعم . . .

— ومن أين كنت تعيشين ؟

فقلت ضاحكة وهى تنهض لتصنع لى فنجاناً من القهوة بعد هذا

الحديث الطويل :

— كان عم خير يردد دائماً مثلاً ظريفاً جداً . . . وكنت أردده دائماً

معه « الحر بيت على الطوى . . . ويصبح بالاطمئنان شبعان » . . .

— أنت ملاك أيتها الفتاة . . .

قلتها لنفسى بعد أن انصرفت لتصنع لى القهوة . . . غير أنها لم تكد

تنصرف حتى عادت ثانية وطلبت منى علبة الثقاب لتشعل الوابور . . .

فطلبت منها فى إخلاص وصدق ورجاء أيضاً أن تأذن لى فى مساعدتها

فى صنع القهوة . . . وذهبت معها إلى المطبخ . . . ورأيتها وهى تشعل الوابور

فى ابتهاج شديد . . . ورأيت ناره وهى تنعكس على وجهها وتنير قسماته

التي تغيرت فجأة . . . من حزن إلى فرحة غامرة زادت بهاء . . . وأضفت على

سماته إشراقة من نور إلهى يسر العين أن تتطلع إليه . . . فلم أملك نفسى

من الفرحة وقلت لها :

— أراك الآن سعيدة . . . فلماذا ؟

— لأننى أصنع لك بيدى فنجاناً من القهوة . .
— زينات . .

نطقت هذا الاسم دون وعى ، ثم تداركت نفسى سريعاً ، حتى لا أنهار وتهار قواى أمام هذا الجمال الإلهى . . أمام هذه النفس الصافية التى تشبه تماماً هذه الإشعاعات من النور التى تنبثق من قسبات وجهها . .
والتي تتدفق نوراً باهراً يشع من عينيها الواسعتين الجميلتين ، فملاً قلبى نوراً ، وصفاء ، وبهجة . . خشيت وأنا أنظر إلى هذا كله أن أخرج راعماً عند قدميها . . أن أسجد للأرض التى تقف عليها . . ولذلك أمسكت عن القول . . وزمت شفتى . . فلم أنطق بعد (زينات) بحرف . . وكأنها أدركت شيئاً . . أدركت على الأقل أننى كنت أريد أن أقول شيئاً ثم أمسكت عن القول . . فقالت وهى تبتسم وتنظر لى نظرة حنان لم أعودها من أحد :

— كنت تريد أن تقول شيئاً ؟ . .

— وإذا قلت . . فهل تصدقينى ؟

— ثنى أننى لو لم أصدق كل كلمة . . تصدر منك . . لما سمحت

لقدمك أن تخطو خطوة واحدة فى بيتى . .

— إذن أنت تثقين فى . .

— كما أثق فى نفسى تماماً . .

— وإننى بالنسبة إليك شئ هام . . كما أنك بالنسبة إلى شئ

هام جدًّا . . . وكبير جدًّا . . .

فارتعشت يدها . . . وهي تحمل صينية القهوة . . . وتخرج من المطبخ . . .

وقالت ويدها ما زالت ترتعش :

— أنا لا أدري أقلت لك أم لا . . . إننى منذ أن رأيتك برغم الظروف

القاسية التى رأيتك فيها وبرغم الظروف الأشد قسوة التى تكشف عنها

التحقيق . . . والتى عرفت منها من أنا . . . وكيف ولدت . . . ومن هى أمى . . .

وكيف ماتت . . . والهزة العنيفة التى هزت كيانى . . . وكادت تودى بى . . .

برغم كل هذا . . . أحسست بوجودى فى الدنيا لوجودك أنت فيها . . . فإن

كنت قد قلت لك هذا فأرجو أن تصدقه . . . وإن كنت لم أقله . . . فلأن

إحساسى يستشعر أنك تعرفه تماماً . . . ولست فى حاجة إلى أن تعرفه منى . . .

* * *

وكنا قد وصلنا ومعنا صينية القهوة إلى البهو . . . والكنبة التى كنت

أجلس إليها . . . فلم أجعلها تجلس على المقعد الذى كان أمامى . . . وإنما

أجلستها بجانبى . . . ومن ثم رحت . . . وفى طفولة بريئة . . . وفى قلب لا ينبض

إلا صدقاً . . . وفى أحاسيس ومشاعر لا تنطق عن الهوى . . . رحت أقص

عليها كل شىء وأحدثها عن كل شىء . . . وأروى لها فى إخلاص الكثير

من الرغبات . . . وأحسست وأنا أتحدث فى انطلاق السيل . . . والكلمات

تزدحم على شفتى وتندفع كاللوج . . . أحسست كقماض . . . أن الخطب

والعبارات الرنانة والأحاديث والجمل الطنانة . . . كل ذلك لا قيمة له



ولا نتيجة فيه . . طالما أنه لم يقم على دليل . . لذلك رحت أقيم الدليل تلو الدليل . . وأذكر لها كل دقائق الماضي . . وما حدث فيه . . منذ اللحظة التي ودعتها عيني فيها آخر مرة . . قصصت عليها الجهد الكبير الذي بذلته عندما ذهبت لأول مرة في حياتي إلى « الصلاة » وما قمت به من حيل في سبيل أن أعرف شيئاً عنها والليلة التي قضيتها مع آلام الدنيا التي تجمعت في مرقدي وأنا أهتف بالغمض لعلى أجد فيه درعاً تقيني من الألم بعد أن عرفت بأنها طردت من عملها . . وبسبب هذه القضية بالذات . . ثم محاولاتي بعد ذلك التي بذلتها في سبيل رؤيتها والاتصال بها . . وما جرى لي في مطعم السمك والتزلزلات المعوية التي أصبت بها . . وتلك الابتسامة التي كانت لا تفارق ثغر ذلك الصبي الصغير . . والتي كانت تخفف عني كثيراً . . والتي كنت أعقد عليها الكثير من الآمال . . ثم تلك الليلة أو الليالي التي قضيتها . . ولا يعلم غير الله كيف قضيتها . . بعد أن وقعت عيني على ذلك الشاب الوسيم الأنيق الذي رأيته في شرفة البيت وكنت أظن أنها لا تزال تقطن فيه . . وذلك الحجاب العسير الذي حاسبته لنفسى والتبعات الجسيمة التي ألقيتها عليها والتقصير الذي اتهمتها به والعذاب الذي عشت فيه طوال تلك الأيام والليالي والذي كنت سأعيش فيه ما حييت لولا أنني اهتديت إلى الحقيقة في آخر لحظة . . واهتديت إليها على يد ذلك الصبي الصغير الذي أدين له بالفضل . . كل الفضل ما حييت . .

قصصت عليها كل هذا . . . وهي صامئة لم تنبس . . . حتى إذا أنهيت حديثي هذا الطويل المدعم بالأدلة والأسانيد . . . فتحت عينيها الكبيرتين . . . وشالت بهديها الطويلين إلى أعلى . . . ونظرت إلى . . . وقالت هذه الكلمة التي ما زال رنينها العذب . . . ونبراتهما الحنون . . . منطبعة في القلب :

— فعلت هذا كله من أجل ؟ !

— إنك أكثر من أخت . . .

— قل هذه الكلمة مرة أخرى . . .

ولما قلتها سريعاً مرة أخرى . . . استلقت على صدرى فجأة . . . كطفلة تلوذ بصدر حنون . . . وألقت برأسها الصغير الجميل على كتفى ومن ثم راحت تبكى . . . وتجهش في البكاء . . . ومع أننى لا أذكر أننى بكيت في حياتى أبداً . . . إلا أننى كنت فى أكثر الأخايين أستشعر رغبة زائدة فى البكاء . . . وأحس أننى إن بكيت . . . فسوف تخفف غنى الدموع الكثير من الآلام . . . بل سوف تقل أحزاني جميعاً . . . لذلك لم أشأ أن أسكتها . . . وإنما تركتها تبكى . . . وتتلف الكثير من الدموع دون أن أقول لها شيئاً أو حتى أنبس . . . إلى أن هدأت . . . فجففت لها دموعها بيدي . . . ولم أفعل ذلك فقط . . . وإنما أدخلتها الحمام وغسلت لها وجهها بيدي . . . ولما أعدتها إلى مكانها . . . وأجلسها على الكنب . . . كنت قد لاحظت وأنا أمر على باب غرفة نومها . . . أن زجاجة صغيرة من الكولونيا موضوعة على الكومودينو بجانب السرير . . . فذهبت أحضرها لها . . . وكانت أول مرة

أدخل فيها مخدعها . . وبرغم الأشياء الكثيرة التي كانت تلفت النظر في هذا المخدع المتواضع جداً . . والتي تم في مجموعها عن فقر وفاقه . . إلا أنني استشعرت هدوءاً وطمأنينة ورائحة زكية أشبه ما تكون برائحة الطهر تماماً ، تملأ نفسي أمناً . . كذلك الذي نستشعره ونحن . . نخفض الجباه . . في مكان له قدسيته . . كما لفت نظري شيء وقفت عنده عيني حيناً . . ورحت وأنا في مكاني أتأمله في شيء من الرهبة وأنظر إليه وهو تحت الوسادة وأتذكر ما قالته في التحقيق المهمة الثانية نظيرة أحمد البسيوني من أن الفتاة تحرص دائماً على أن تضع مصحفاً كريماً تحت وسادتها لتستأنس به في وحشتها . . ويكون لها هدياً في هذه الظلمة التي تعيش فيها . . وطالت وقفتي أمام لقاء المخدع الطاهر بالمصحف الشريف وأخيراً انتهت إلى زجاجة الكولونيا التي كانت أمامي على الكومودينو فتناولتها وانصرفت . . ولكن بعد أن فعلت شيئاً . . إذ دسست يدي تحت الوسادة ووضعت بجانب المصحف مباشرة كل ما كان فيها . . ولا أدري إلى اليوم ما هو الذي كان فيها على وجه التحديد . . وهل كان الذي فيها ورقة واحدة . . وهل كانت هذه الورقة من فئة الخمسة جنيهات . . أو فئة العشرة أو هي تزيد على ذلك . . وتصل قيمتها إلى شيء كبير . . وهل كانت ورقة واحدة أو أكثر . كل هذا إلى اليوم لا أدري عنه شيئاً . . وكل الذي أذكره تماماً أن كل شيء في كان يرتعش . . وأنا أفعل خشية أن تراني . . ولما تأكدت أنني فعلت ما فعلت وأنا في مأمن من أي عين

خرجت من الغرفة مبهجاً جداً . . . ومن ثم جلست بجانبها . . . وكانت فعلاً قد هدأت كثيراً . . . دون حاجة إلى ماء الكولونيا . . . وقد أطربني ذلك . . . وما قمت به في الخفاء من واجب . . . للدرجة أنني ضحكت . . . وظللت بها حتى ضحكت . . . وعادت إلى وجهها إشراقته وإشعاعات النور التي تنبثق من قسماته . . . وظللنا كذلك إلى وقت بعيد من الليل . . . إلى أن أحسست أنني جائع . . . أو بمعنى أصح أنا الذي تعتمد هذا الإحساس . . . وكاد يزعجها أنه لا يوجد في البيت ما يؤكل في هذا الوقت . . . وفكرت في أن تستدعى البواب ليأتي لنا بطعام من الخارج . . . ولكنني طلبت منها أن أقوم أنا بهذه المهمة . . . وأشهد بأنها لم تقبل إلا بعد جهد . . . وما زلت أذكر برغم مضى هذا الزمن الفرحة التي أحس أنني أعيشها الآن وأنا أكتبها . . . والتي كانت تغمرني وتفيض على وأنا أقف وسط أول حانوت بقالة التقيت به في هذا الوقت المتأخر من الليل في تلك الضاحية النائية وأطلب ما أريد . . . وكلما طلبت شيئاً غمرني فرحة جديدة وكلما رأيت حقيبة الورق التي أمامي تمتلئ ، امتلأت فرحتي وطلبت مزيداً حتى وددت أن أنقل كل ما في ذلك الحانوت الكبير إلى بيتها مرة واحدة ، وشعرت بهذه الفرحة تتزايد وأنا أسير في الليل على قدمي حاملاً بين ذراعي هذه الحاجيات وكأنني أحمل سعادة الدنيا جميعاً . . . ولما دخلت عليها محملاً بكل هذه المؤن وكل هذه المواد الغذائية المحفوظة وغير المحفوظة التي تفيض عن حاجة أسرة كاملة لشهر أو يزيد . . . فغرت فاها في دهشة

زائدة ، ورميتى بالحنون ، واتهمتنى بالتبذير وبأننى لا أصلح لكى أكون رب أسرة أبداً ، وبأنه لو قدر لى أن أتزوج . . كان أول قرار يجب أن تتخذه زوجتى صباح الزواج مباشرة هو الحجر على . . ولا أدري لماذا أحسست فى قرارة نفسى بارتياح لهذا القول للدرجة أننا كررناه ثانية ونحن على المائدة نتناول طعامنا ونضحك ونحدث فى كل شيء . . ونضحك كثيراً . . ولم نمسك عن الضحك إلا عندما تناول حديثنا موضوع القضية مرة أخرى وتحدثنا فيها طويلاً هذه المرة . . ورحنا نستعرض ظروفها القاسية مرة ثانية . . وكيف أن دم القتيلة ذهب هدرأ بعد أن أغلقت جميع الأبواب والنوافذ بعد مقتل دسوقى الذى كان الوحيد الذى يمسك بالحيوط كلها فى يده ، ولم أشأ أن أقص عليها ثانية تكييفى المنطقى للجريمة وأقول لها إن الذى قتل أمك هو دسوقى بعد أن تأكد أنها أصبحت عشيقة لغيره . . لم أشأ أن أقول لها ذلك حتى لا أزيدها ألماً ولا سيما بعد أن عرفت منها أنها منذ أن انتهى التحقيق وعرفت ما عرفت وخرجت من السجن ، وهى حريصة على أن تذهب فى صباح كل يوم جمعة إلى قبر المحبى عليها وتقرأ عليها الفاتحة وترحم عليها مبتهلة إلى الله أن يغفر لها ذنوبها وأن يجعل الجنة مثواها . .

لهذا لم يتركز حديثنا على المحبى عليها ، ولا على دسوقى أيضاً ، بقدر ما ركزناه على هذا الرجل الذى شاهدته يخرج من مخدع القتيلة قبل الحادث بعشرين يوماً كما قالت فى التحقيق . . هذا الرجل الذى ما زالت شخصيته

مجهولة ، وأغلب الظن أنها ستظل إلى الأبد مجهولة لأنها هي نفسها لم تتأكد من رؤيته كل التأكد . . مع أنه لو اكتشفت شخصيته لتغير وجه القضية على الفور وأمكن معرفة كل الحقائق التي لا يعرفها سوى هذا الرجل المجهول .

كان هذا تقريباً هو محور حديثنا في تلك الليلة التي سعدت بها سعادة لا تقدر لدرجة أنني لما انصرفت من بيتها على أن نلتقى في الليلة التالية ، كانت غاية الأمانى عندي أن أغمض عيني وأفتحها على هذه الليلة الثانية التي سأراها فيها ، وأنس إليها كما رأيته وأنست إليها في هذه الليلة . غير أن الأمانى جميعاً حتى التي نشقى منها ليس من السهل تحقيقها ، وإن هي تحققت فدون ذلك العذاب ، والدليل أنني بعد أن خرجت من عند زينات في تلك الليلة لم يتغير شيء ، فقد ظل الليل يسير في ببطء كعادته من ملايين السنين ، والقمر في السماء يسير إلى مستقر له كعادته أيضاً لم يتغير فيه شيء ، وحتى الشمس عند ما جاء الصباح طلعت كعادتها من الأفق ، وظلت تسير في ببطء وتكاسل ممل طوال اليوم كله ، لم يتغير حتى لون إشعاعها ، وكذلك عقارب الساعة لم يتغير شيء فيها هي الأخرى ، منذ أن وجدت من مئات السنين ، بل أغلب الظن أنها قد تغير فيها شيء لم أفطن إليه إلا هذا اليوم ، فقد بدأت تواصل سيرها في ملل وضيق وجبن . . وفي خوف كذلك . . فقد كانت دقائقها مضطربة أشبه ما تكون تماماً بضربات قلب الخائف الوجل .

مرت الساعات التي كانت باقية على لقائنا الثاني وكلها ملل وضيق . .
ولما جاء الموعد سبقتني الفرحة إلى هناك .. وقد بلغ من فرط إحساسي
بذلك أنني شعرت وأنا في الطريق إليها بشيء من الغيرة حيال هذه الفرحة
التي سبقتني إلى هناك . إذ كيف يسبقني إليها شيء ، حتى لو كان
هذا الشيء هو فرحتي باللقاء .

ولما ذهبت إليها في الموعد المتفق عليه ، وكانت الساعة الثامنة والنصف ،
أطربني أنني وجدت عندي من الشجاعة والجرأة ما جعلني أوقف
سيارتي أمام منزلها مباشرة ، ولم أبحث عن مكان خفي أوقفها فيه ، كما
حدث مثلاً في الليلة الماضية ، وكذلك وجدت عندي من الجرأة والشجاعة
ما جعلني أهبط من السيارة علانية وأدخل البيت وأصعد ذلك السلم الموصل
إلى باب مسكنها دون حرج أو خوف من أن يراني أحد . . . غير أنني
عندما طرقت الباب فوجئت بشيء غريب لم أصدقه في أول الأمر . .
ولكني تأكدت منه أخيراً . . وهو أنها ليست في البيت تنتظرنى كما كنت
أتوقع . . . وإنما وجدت البيت مظلماً . . بل مغرقاً في الظلمة والصمت ..
فاندعشت . إذ أنها لم تتعود الخروج من البيت كما قالت لي . . ولم يحن

بعد موعد ذهابها إلى الملهى الذى ستعمل فيه ابتداء من الليلة . . فقد أخبرتنى أنها لن تذهب إلى هناك الا عند الحادية عشرة ، وهو الموعد الذى ستقوم فيه برقصتها كل ليلة . . وقلت إنه لا بد أن يكون قد طرأ طارئ استدعى خروجها الآن ، وتمنيت مخلصاً أن يكون خيراً ورحت أنتظر . . وانتظرت طويلاً جداً حتى تعبت قدمائى من كثرة الذهاب والإياب أمام المنزل فى انتظار عودتها كما تعبت أيضاً من طول جلستى فى داخل السيارة أنظر إلى كل غاد ورائح . . ومكثت كذلك حتى اقتربت الساعة من الحادية عشرة وقطعت الأمل من مجيئها . . وكان لابد لى أن أراها على أى وضع لكى أطمئن عليها ، ولذلك لم أجد بداً من الذهاب إلى الملهى . . وكانت هذه أول مرة أذهب إلى هذا الملهى الليلى ، وابتعت تذكرة ووقفت فى وسط هذا المكان الجميل الهادئ أتطلع إلى مائدة بعيدة عن الرواد ، أجلس إليها . . إذ شعرت بحرج إذا أنا جلست بينهم . . فقد لاحظت أن كل رجل يجلس معه سيدة قد تكون زوجته وقد تكون غير ذلك ، ولكنها سيدة على أى حال . . ولم أرواحداً يجلس بمفرده حتى الذين جاءوا دون أن يصطحبوا نساء معهم . . إنما فعلوا ذلك لغرض ، وهو صلتهم ببعض الفتيات اللواتى يعمان فى الملهى واللواتى يجلسن معهم علانية على الموائد أمام الجميع ، وغير ذلك فلم أر مائدة واحدة خالية من الخمر وأنا لا أشرب الخمر أبداً ، فكيف أجلس فى وسطهم بلا خمر وبلا نساء . . لهذا كله بحثت عن مائدة بعيدة عن

الناس جميعاً ، وجلست إليها . . ومن ثم رحت أنظر من بعيد إلى هذا الخليط الغريب من الناس ، وإلى هذه الأماكن بالذات . . التي تظهر فيها أخلاق الناس على حقيقتها . . وإلى هذا التنافر العجيب وهذا التناقض الذي لا تجده إلا في هذه الأماكن ، أو هذه الأوضاع التي لا تقبلها كرجل شريف إلا في هذه الأماكن فقط . . وتعجبت لماذا نحن نقبلها وفي هذه الأماكن بالذات . . ورحت أتأمل هذه المائدة التي يجلس إليها زوج وزوجته ، وتلك التي تجاورها تماماً ويجلس إليها عشيق وعشيقة ، وكيف أنك تستطيع بسهولة أن تتبين هذا من ذاك وأن مجرد نظرة عابرة إلى هذا الرجل المتزمت الذي يصطنع الوقار اصطناعاً والذي يضع نصف تقطيعه دائماً فوق جبينه ، تستطيع أن تعرف أنه زوج ، ونظرة إلى ذاك الذي يضحك ويهرج ويتحدث بهذا الصوت الصاخب وهذا الانطلاق بلا تحفظ تستطيع أن تعرف أنه عشيق .

وكذلك النساء فأنت من السهل عليك جداً في هذه الأماكن بالذات أن تتعرف بمجرد النظرة الخاطفة إلى شخصية كل واحدة منهن . . فهذه التي تجلس مرتدية كل هذه الثياب من الوقار والحشمة والتزمت الذي تعرف كيف تصنع منه في لحظة واحدة عدة ألوان . . والتي تجلس وكل آمالها أن تتبّع رفعة المائدة حتى تبتعد أكثر وأكثر عن الرجل الذي تجلس معه . . هذه هي زوجة من غير شك . . أما تلك التي على نقيضها تماماً والتي تغافل حتى نفسها وتقرب مقعدها من حين إلى حين إلى مقعد الرجل

الذى معها حتى تكاد تلتصق به من غير أن تدري . . فهذه عشيقه من غير شك . . ورحت أتعجب من هذه الأوضاع التى كان يجب أن تكون على العكس تماماً . . وأتأمل حياتنا الغربية التى نعيشها والتى نرتدى فيها دائماً ثوب النفاق . . دون أن يرغمنا على ذلك أحد . . كأن النفاق فريضة فرضتها علينا الأديان التى نعتقها . . أو كأن الصراحة التى يجب أن نجابه بها أنفسنا جريمة نعاقب عليها ؟

وكدت أغيب فى دوامة هذا التأمل . . لولا أن أقبل الجرسون وانحنى أمامى تلك الانحناءة التى يرتسم الاحترام الكبير فوق ظاهرها فقط . . ونجملت أن أطلب منه قهوة أو شايًا أو كوباً من المثلجات . . ومع أن هذه الأشياء موجودة فعلاً فى هذه الأماكن وموجودة ليطلبها الناس إذا أرادوا . . ولكن طلبها يجعلك دائماً موضع سخريه . . لماذا ؟ لا أدري . . ولذلك نجملت فعلاً أن أطلب شيئاً من هذا . . وطلبت زجاجة من البيرة . . ولما جاء بها . . ووضعها أمامى على المائدة . . رحمت أحسبها على مضض . . وظللت كذلك أشاهد بعض الألعاب والنمر التى كان يعرضها هذا الملهى على رواده . . إلى أن انطفأت أضواء المسرح فجأة فانطفأ معها شيء كان فى وجهى . . ما هو . . ؟ لا أعرف . . لماذا انطفأ . . ؟ ! لا أدري . . ولكن الذى حدث أننى شعرت بانقباض شديد . . وأنا أرى تلك الفرقة الموسيقية تخرج إلى المسرح وتعزف لحناً راقصاً . . وفجأة تعالى تصفيق يكاد يصم الآذان . . وكان له وقع الصواعق

في أذنى . . ثم خرجت على إثره زينات تكاد تكون عارية تماماً إلا من بعض قطاعات محددة من جسمها ، وحتى هذه القطاعات أيضاً كادت تبدو عارية لولا بعض الأشرطة الحمراء والصفراء التي انعقد بعضها فوق أسفل البطن . . وتدلّ بعضها الآخر وتناثر فوق الوركين ومؤخرة الأرداف . . وما إن رأيت ذلك حتى أحسست بما يشبه النار في عيني . . فأدبرت وجهي حتى لا أرى هذا الجسد يتعري هكذا أمامي وأمام هذا الحشد الكبير . . وتذكرت حديث زينات لي ، عن الفرق بين البغى والراقصة ولست أدري لماذا أحسست أنها كانت على حق عندما عقدت هذه المقارنة وأن الفرق لا يكاد يذكر ، أو هو يذكر فعلاً إذا ما تحدثنا عن الأخلاق . . — أي أخلاق — وقارنا بين التي تدفعها الحاجة إلى أن تتعري في الظلام ولعين واحدة . . وهذه التي تتعري تحت الأضواء ولثلاث العيون . . ورحت أسأل نفسي ... ما هو الشرف .. وما هو مفهومه عند المرأتين وما هو الشرف في مفهومه عند المجتمع ؟ ! . .

وظللت كذلك إلى أن دوى التصفيق في أذنى مرة أخرى . . فاستدعيت الخادم وأنقذته ثمن زجاجة البيرة وأجزلت له بعد ذلك في العطاء . . وأعطيته ورقة زينات قلت لها فيها . . إنني في الصلاة وإنني أنتظرها . .

ومن ثم رحت أنتظر . . وانتظرت فعلاً ساعات طويلة . . ولما انصرف الناس جميعاً . . ولم يبق غيري تقريباً . . نظرت في ساعتي

فوجدتها الثالثة صباحاً . . اندهشت وسألت عنها أحد الخدم . . فقال
 ساخراً وهو ينظر لى فى كثير من الازدراء . . بأن الست زينات إنما
 انصرفت من ساعات طويلة . . أى عقب أن أنهت رقصتها مباشرة . .
 فازدادت دهشتى وانصرفت . . وذهبت إلى بيتها . . ولكنى عندما بلغت
 البيت انصرفت على الفور لأننى وجدت نفسى فى حاجة إلى جرأة أهل
 الأرض جميعاً . . وحتى لو ظفرت بها لما استطعت أن أدخل بيت راقصة
 فى هذا الوقت المتأخر من الليل . . وفى اليوم الثانى . . وجدت نفس
 الشئ . . ذهبت إليها فى البيت فلم أجدها . . ولم أشأ أن أذهب إليها
 فى الصلاة ثانية . . فقد أحسست أنى لن أقدر على هذا مرة أخرى . .
 ومر يوم آخر . . ولم أجدها أيضاً . . وهكذا مرت ثلاثة أيام لم أرها ولم
 تحاول أن تتصل بى مما زاد مخاوفى وجعلنى أترك عملى وأذهب إليها فى
 النهار ما دام قد تعذر على وجودها فى الليل .

لا حظت شيئاً غريباً عندما وصلت إلى البيت . . فما إن كدت أوقف سيارتي وأهبط منها وأصعد إلى باب المسكن حتى رأيت رجلاً عملاقاً - عرفت فيما بعد أنه البواب - يعترض سبيلي . . ويسألني في غلظة وخشونة عما أريد فارتبكت . . وشعرت بشيء كثير من الحرج . . إذا ماقلت له عما أريد . . وبشيء كثير من الحرج أيضاً إن لم أقل له شيئاً . . وماذا سأقول له إن أنا أنكرت عنه الحقيقة ؟ وكأن الرجل لاحظ على هذا الارتباك لأنه قال مستطرداً وقد ازدادت لهجته جفاء :
 - إذا كنت تريد الست زينات . . فهي لا تريد أن تقابل أحداً . .
 - هي التي قالت لك ذلك ؟ . .
 - طبعاً . .

فلم أنطق . . ورحت أهبط الدرج ثانية . . وكان هو أيضاً يهبطه خلفي . . فقلت له ونحن عند الباب الخارجي :
 - قد تكون الست زينات تعني أحداً آخر لا تريد مقابلته ؟
 ثم استطردت وأنا أخرج ورقة من جيبى لأكتب عليها شيئاً :
 - فهل لك أن تخبرها بوجودي . . وتعطيها هذه الورقة . .

فلم يشأ الرجل حتى أن يصغى إلى . . وإنما قال وهو ينصرف لينهى الحديث .

— أنا لا أعرف أحداً آخر يتردد عليها . .

فرققت خزيان . . إذ فهمت من حديث الرجل أنني المقصود بالذات . . ومما يزيد هذا تأكيداً . . محاولة تهريبها منى في الأيام الثلاثة الماضية . . وقد اندهشت دهشة كبيرة لهذا الانقلاب الغريب ، إذ مازلت أذكر اللحظة التي ودعتها فيها . . ونحن على أحسن حال ، وبعد أن تفاهمنا تفاهماً صريحاً وجميلاً . . وطيباً في الوقت نفسه ..

ورحت أفكر في شتى الأسباب البعيد منها والقريب . . . والطيب منها وغير الطيب . . وحتى الحديث الذي لا يتأتى إلا لذوى النفوس السيئة . . ومع ذلك لم أهتم إلى سبب واحد معقول أو حتى غير معقول . . يجعل زينات تفعل معى هذا الذى فعلته . . ولو كنت وجدت سبباً ، ولو كان تافهاً ، فربما كنت أرحت نفسى من هذا العناء ، وعملت أنا من جانبي على تلبية هذه الرغبة ، ولكننى لم أجده . . ولذلك كان على أن أراها . . وأن أراها بأى حال ، ومهما كلفنى ذلك من ثمن . . ولهذا قمت بعمل جريء لم يكن أمامى سواه . . وهو أن أنتظرها عند منتصف الليل أمام منزلها . . فهى كما قد عرفت تنهى دائماً من رقصتها فى الملهى حوالى الساعة الحادية عشرة والنصف . . وهى كما تعودت وعرفت أيضاً . . تنصرف عقب الانتهاء من عملها مباشرة . . وهى تنصرف دائماً إلى

بيتها . . . وسواء أكان ذلك أم غيره فهي لا بد أن تذهب إلى البيت . . .
 وإذن فخير السبل إلى أن أراها وأتحدث إليها وأعرف منها حقيقة هذا
 التغير الغريب هو أن أنتظرها في هذا المكان بالذات .

* * *

ما كادت الساعة تقترب من منتصف الليل حتى كنت أجلس
 داخل سيارتي أمام مدخل البيت مباشرة . . . ومن ثم رحت أنتظر . . . ولا
 أدري هل انتظرت طويلاً أو لا . . . ولا أدري حتى ما هي الأفكار التي
 كانت تدور برأسي طوال ساعات هذا الانتظار . . . وهل كانت من
 السواد بحيث إنى كلما حاولت أن أبعدا اقتربت هي . . . أو أنها كانت
 من الأفكار المطمئنة التي تريح البال وتجعل الإنسان يتمسك بها ويدور
 ويلف حولها كما تدور الفراشة حول مصباح من نور . . . أو تلف النحلة
 حول زهرة متضوعة العطر . . . وإنما الذي أدريه تماماً هو أنني رأيتها بعد
 منتصف الليل بعشر دقائق على وجه التحديد . . . وهو القدر الذي قطعته
 في الطريق من الملهى إلى البيت بعد أن فرغت من عملها مباشرة . . . رأيتها
 مقبلة من بعيد في سيارة أجرة . . . ولما وقفت بها السيارة بالقرب من البيت
 وهمت بأن تغادرها كانت قد رأيتني ، فإذا بها ترتد سريعاً إلى داخل
 السيارة وتختبئ في قلبها وهي تأمر السائق بأن ينطلق سريعاً وقد انطلق
 بالسيارة وبها فعلاً . . . فاندبهشت . . . اذ تأكدت من أشياء كثيرة . . .
 كنت أحاول أن لا أصدقها . . . أو حتى أسمح لنفسي بالتفكير فيها . . .

وما دامت قد حدثت .. وما دمت قد تأكدت منها .. فلا بد لي على الأقل
 أن أعرف أسبابها .. ولذلك تصرفت تصرفاً لا يصدر عن عاقل أبداً ..
 إذ كنت أشبه بصبي صغير حدث السن .. وأنا أطاردها بسيارتي
 وأتبعها في كل مكان تحتفي سيارتها فيه .. ولما أدركت أن لا مفر لها
 وأني سوف أتبعها مهما حاولت الهرب مني .. أوقفت السيارة وهبطت
 منها وصرفت السائق ثم جاءني حانقة نائرة وقالت وكل شيء فيها يرتعش
 من الغيظ :

— لماذا أنت تتعقبي ؟ !

— ولماذا أنت تهربين مني ؟ !

— أرجوك .. ابتعد عن طريقي ..

فازدادت دهشتي وقلت :

— هكذا دون ما سبب ؟ !

— أجل .. دون سبب .. دون سبب ..

فقلت وأنا أنظر إلى وجهها المحتقن وعينيها المغرورتين بالدموع :

— لا بد من سبب ..

— السبب هو أنت .. أنت ..

— أنا ؟ !

نطقها في ذهول لاحد له .. ثم أطبقت ولم أنبس .. ورأيت كل شيء
 فيها يرتعش ويهتز .. ففتحت باب السيارة وأجلستها بجانبتي ومن ثم قلت

لها وأنا أنظر إلى شيء في عينيها يحترق :

— أنا السبب ؟ !

فانفطرت الدموع من عينيها وقالت :

— أجل . . أنت السبب . .

فتوجست خيفة . . وظننت فعلا أنني إنما ارتكبت شيئاً أغضبها وأغضبها إلى هذا الحد . . حدها أنها تهرب مني . . وحدها أنها تبكي بهذه الحرقلة . . ولهذا سألتها وأنا أضطرب كما لو كنت فعلا قد ارتكبت عملاً مشيناً :

— لماذا أنا السبب . . وماذا فعلت ؟ !

فلم تجب . . وصمتت بعض الوقت . . ولما جففت دموعها قالت وكأنها تخاطب إنساناً لا تعرفه ولم تره من قبل :

— ماذا تريد مني ؟ !

وكنت أنتظر كل شيء إلا أن أسمع منها هذا القول الذي أخرجني حرجاً شديداً . . وزادني حرجاً أنني لم أجده جواباً أرد عليها به . . ولذلك صمت . . ومرت فترة صمت ثقيلة كدت أرزح تحتها خجلاً ومع ذلك استطعت أن أخرج من هذا الصمت وأن أتكلم . . وقلت لها :

— أنا أريد لك . . ولست أريد منك .

— تريد لي ماذا ؟ !

— الخير . .

فقلت في سخرية جارحة وهي تبسم في مرارة :

— حتى الذى يسرق . . يظن أحياناً أنه يفعل الخير . .

— وهل أنا لص ؟

فقلت في خشونة :

— إنك تريد أن تكون كذلك . .

— إنك تخرجينى بهذا القول . .

— بل أنت الذى تريد أن تخرجنى . . وكأن تلك الجراح التى

تعرفها . . لم تؤثر فيك حتى تريد أن تخرجنى هذا الجرح الذى
سيودى بحياتى . .

فخرجت عن طورى حتى كدت أختنقها . . ولكن يدي تجمدت

بجانبي . . وقلت :

— ما هذا القول الذى تقولينه ؟

— بل قل أنت . . ماذا تريد منى . . وماذا يريدك شاب فى مثل

سنك من فتاة مثلى . . لماذا يريد أن يصادقها ، ويوطد علاقته بها . .
ويتردد عليها فى بيتها . . ويلاحقها فى كل مكان تذهب إليه . .

فنظرت إليها لكي أتأكد من أن هذه هى زينبات التى كنت أتحدث

إليها طيلة أمس الأول حتى الثالثة صباحاً . . ولا تأكدت من أنها هى

فعلاً . . قلت وكأني أهذى :

— ما الذى غيرك هذا التغير المفاجئ ؟

— أرجوك . . إني أسألك ماذا تريد مني ؟

— قلت لك لا شيء . . .

— إذن . . لماذا لا تركني ؟

— لأنني لا أستطيع . .

— ولماذا لا تستطيع ؟

فازددت حرجاً . . وارتبكت ارتباكاً شديداً . . ولما لم أجب . .

قالت وكأنها تريد أن تصرخ :

— قل . . تكلم . . لماذا لا تستطيع ؟

— لأنني أحبك . .

نطقها سريعاً . . وبلا تريث . . وبلا وعى أيضاً . . فقالت وقد

هدأت على الفور وكأنها ما كانت تريد سوى أن تنتزع مني هذا

الاعتراف :

— هذا ما كنت أخشاه . .

— تخشين أني أحبك ؟

— أجل . .

— ولماذا تخشين هذا ؟

فقالت . . وكأنها تنتزع القول انتزاعاً :

— أتريدني أن أصدقك القول ؟

— من غير شك . .

— لأننى لا أحبك ..

— أنت تكذبين .. لأن ما لمستك منك حتى ليلة أمس الأول على الأقل يؤكد غير ذلك .. ثم إنه لا يمكن أن يكون هذا هو شعورى
نمرك وأنت لا تبادلينى نفس الشعور ..

— جائر جداً ..

— لا ..

— أمن الحتم أن نتبادل الشعور ؟

— إن الزهور دائماً لا يصدر عنها غير العطر ..

— كثير من الزهور لا عطر لها ..

— ليست من فصيلة الزهور إن لم يصدر عنها العطر ..

— أليس من الجائز أن يكره الأخ أخاه ؟

— فى السراء فقط .. أما فى الضراء فهو شقيقه ابن أمه وأبيه ..

فاختنق صوته كثيراً وهى تقول :

— وهذا هو الضر الذى أخشاه .

— أى ضر ؟

— أن تحببى وأن أحبك ..

— أضر .. أننا نتحاب ؟

— بالنسبة لى على الأقل ..

فازددت حيرة وقلت :

- أتشكين في حبي لك ؟
 - ليس هذا هو الذى يعذبني ..
 - ما الذى يعذبك إذن ؟
 - أنك تحبني كل هذا الحب ..
 فأمسكت بيديها ووضعتهما بين يدي .. وقلت وأنا أتحنس ظهر
 يدها وكأنني أحنس شغاف قلبي :
 - إذن ما الذى تخافينه ؟
 فاختنق صوتها مرة أخرى واغرورقت عينها بالدموع ثانية وقالت :
 - إني أسأل نفسي .. ما هو مصير هذا الحب .. وما هي
 نهايته ؟

- لن تكون له نهاية أبداً ..
 - لكل شيء نهاية ..
 - شيئان ليست لهما نهاية .. الله .. والحب ..
 - ومع ذلك فإني خائفة ..
 - مم ؟
 - لا أدري ..
 - هل تشكين في طهارة خلقي ؟
 فقالت صارخة وهي ترتجى على صدرى وتبكي :
 - لا .. لا .. ليس هذا ما أخافه .. ليس هذا ما أخافه ..

— فيم الخوف إذن ؟

فأجهشت في بكاء طويل وقالت في خوف شديد وهي تلوذ بأحضاني مرتعشة . . وكأنها تبحث بين خبايا صدري عن مكان تختبئ فيه :

— إننى خائفة عليك . . خائفة عليك منى . . أفهمت ؟

فربت على صدرها المختبئ في صدري وقلت :

— تحدثنى . . قولى كل شيء . . تخافين على مم ؟

— قلت لك منى . . منى . .

ولما كانت ثقتى في خلقها فوق الشبهات جميعاً . . قلت :

— منك أنت يازينات ؟

— لست أخاف عليك من زينات التى تعرفها أنت . . وإنما أخاف

عليك من زينات الراقصة التى يعرفها الناس . .

فأدركت على الفور كل ما تعنى . . وكل ما يجول في خاطرها . .

كما أدركت أيضاً لماذا أغلظت لى في القول أول الأمر . . ولماذا

كانت تريد أن تنصرف عنى . . وكيف أنها كانت جادة عندما تهربت

منى . . ولا أدري لماذا قدرت لها هذا الشعور تقديراً معيناً . . وتأثرت به

إلى حد أننى كدت أبكى وأنا أضرم شغاف القلب على هذا الشعور النبيل

وهذا الجميل الذى جعلنى أحس لأول مرة في حياتى بأن لى في هذا الوجود

من يحببنى ويحرص على ويريد لى أكثر ما يريد له لنفسه من خير ، والشعور

بذلك ليس من السهل احتمال السعادة به ولا الصبر على الاعتراف به . .

فإظهاره والاعتراف به هو خير حافظ للفضل نفسه . . إن كنت حقيقة تريد أن تبقى عليه وتثبت أنك جدير به . . لهذا كله لم أتمالك نفسي فبكيت حقيقة . . بكيت وأنا أضرم هذه السعادة كلها إلى صدري وأحتويها بين حنايا الضلوع . . وأنا أربت على كتفها الصغيرة التي كانت لا تزال مستلقية على كتفي . . ودموعها لا تزال تنساب دافئة فوق صدري . . ولما أحسست بذلك الدفء يتسرب إلى قلبي رفعت ذلك الرأس الصغير الذي أحبه إلى عيني ومن ثم تحسست بشفتي ذلك النور الذي فوق الجبين وعند مفروق الشعر تماماً. أودعت قبلي التي قدر لها منذ هذه اللحظة أن تكون العنوان الجميل لكتاب حبنا السماوي . . . حبنا الذي عشنا له وبه زمناً . . فكان هو الزمن وكان هو العمر وكان هو الدنيا وهو الحياة . . حبنا الذي كان لنا أشبه بالكتاب المقدس الذي يهدي إلى سواء السبيل ويعلم الطهر والصفاء . . والخلق الطيب . . ويخلق من البشر أناساً يترسمون خطي الملائكة فيما يقولون وفيما يعملون وفيما يحبون لأنفسهم ويحبون لغيرهم من الناس.

* * *

ويهدي من هذا الطهر والصفاء . . والبعد عن الغرض . . توطدت علاقتنا واستقامت حياتنا بعيدة عن الشوائب وبعيدة أيضاً عن كل ما يعمل في النفس من سوء أو ما يشوبها من متاعب . . فقد تجنب كلانا كل ما يضايق الآخر. وكل ما يؤدي شعوره أو يسبب له المتاعب. فقد كان أشد ما يؤذيها أن ترى قدمي تنزلق إلى الصالة التي تعمل فيها ، ويراني أحد

روادها وأنى لا أزيد أو أنقص عن أولئك الذين يعيشون فى الظلام كما كانت تسميهم . . وكان أشد ما يؤذى شعورى ويؤرقنى طوال الليل ويجعلنى أتقلب على فراشى أتوجع من حرقه النار المشتعلة فى مرقدى هو أنى أراها ترقص أمام الناس وأن أرى تلك العيون النهمة وهى تنطلق معربة كالسهام وتنغرز فى كل موضع تعرى من جسدها أو اختفى خلف الثياب . . ولا أدرى لماذا كان هذا يسبب لى كل هذه الآلام . . وكل هذه النار التى تحرقنى فى الليل وفى النهار . . تحرقنى وأنا مغمض العينين تحرقنى أيضاً وأنا مبصر أرى تلك العيون التى كانت تنغرز سهامها الماوية فى قلبى أنا . . لقد كنت أحس وأنا أتوجع حقيقة أنى إنما أتوجع لنفسى وليس لأحد آخر . . ولشد ما كان يزيدنى هذا الإحساس توجعاً فلا أملك غير أن أبكى وأبكى طويلاً دون أن تنسكب دمة واحدة من عيني . . ولقد علمنى هذا أن حر البكاء وأشدّه حرقه وإيلاماً هو الذى من غير دموع . . ولما أدركت هى هذا بفطنتها . . وكنت أخرج فى أن أظهرها عليه حتى لا أزيد من آلامها امتنعت عن الرقص وطلقت هذه المهنة ولم تعد إليها بعد ذلك أبداً . . وكانت بهذا سعيدة . . سعادة لا تقدر كما قالت لى فيما بعد . . لأنها استطاعت بذلك أن تجعلى أتجنب مواطن الزلل . . بأن أبتعد عن ارتياد هذه الأماكن التى كان انهيار القيم فيها وتحطيم المقدسات وركلها بالنعال . . هو غاية كل من يرتادها كما كانت تقول!

استأجرت لزينات شقة صغيرة منعزلة في حي هادئ من أحياء القاهرة..
وأثنائها أثنائاً لا بأس به . . وزودناها بكل ما تحتاج إليه فتاة في مثل
خلق زينات .. أحب الأشياء إليها هو أن تكون بعيدة عن الناس وأسعد
الأيام عندها هي التي تقضيها وحيدة بين جدران بيتها لا ترى أحداً
ولا يراها أحد . . وكنت أتردد عليها من حين إلى آخر . . لأطمئن
عليها أو أقضى لها ما تكون في حاجة إليه . .

وعلم الله الذي أشهده على نفسي وأنا أدون الآن هذه المذكرات، والقلم
يرتعش في يدي . . ويكاد يرتعد فرقاً كلما اقتربت من الأحداث الجسام
التي أروىها في صدق وأثبت كل صغيرة وكبيرة فيها بأمانة وإخلاص . .
أقول أشهد الله على أنني ما ترددت على بيتها الجديد بعد ذلك أو ذهبت
إليها فيه مرة في الليل أو في النهار إلا كما يتردد العابد على المحراب ليستمتع
بلحظات من الهدوء والسكينة ورضا النفس والزلفى إلى الله بالنية الحسنة
واطمئنان البال .

وبرغم أن ترددى عليها كان قليلاً نظراً لكثرة مشاغلي التي كانت
أحياناً تستغرق مني النهار والليل كله . . فقد كانت تطرب له كثيراً
وتفرح له فرحاً زائداً . . وكان هذا يسرني سروراً بالغاً . . إذ كان أقصى

أمانى أن أنزل الطمأنينة إلى قلبها دائماً ، وكنت كلما وجدت متسعاً من الوقت قضيته معها إما فى البيت أو فى نزهة بالسيارة فى الحلاء وأحياناً كنا نذهب إلى السينما ، وكثيراً ما كنت أسأل نفسى وأنا معها . . لماذا أنا سعيد كل هذه السعادة وأنا فى صحبتها ؟ ! وكانت هى أيضاً تسأل نفسها هذا السؤال عينه . . وكان الجواب يجىء دائماً واحداً لا يتغير.. لأننا نحب لغير ما غاية ولغير ما هدف.... كان حبنا كالزهر تماماً .. غاية ما ننشده منه هو أن تظل رائحته تتصوع عطراً .

وهكذا ظللنا وظلت سفينة السعادة تمخر بنا عباب النعيم تحيطها إشعاعات من نور باهر الضياء يهديها دائماً إلى الطريق القويم ويجنبها عوادي الغرق أو يكتسح أمامها الصخور حتى لا ترتطم بصخرة منها فتتحطم . . وما كنت لأظن أبداً أو حتى يظن القدر نفسه أن سفينة سعادتنا هذه سوف تتحطم وبهذه القسوة وهذا العنف . . وأن موجة عاتية سوف تقذف بها فجأة فتجعلها فى سرعة الغمض تتحطم وتتناثر أشلاؤها فوق الصخرة وتذهب معالمها فى بجوف البحر وأن يحدث هذا كله سريعاً جداً . . وقبل أن تقوم من مقامك . . أو حتى قبل أن يرتد إليك طرفك . فقد كنت فى تلك الليلة على موعد مع زينات لنشاهد فيلماً كان يعرض إذ ذاك فى سينما « ديانا » بشارع ألفى بك . . وبينما كنت أنتظرها على باب السينما . . شاهدت سيارة أبى الحمراء الكبيرة يجىء بها عم أحمد السائق ويقف بها أمام مطعم سان جيمبس ، كما شاهدت

أبى خارجاً من المطعم بعد تناول العشاء وكان فى صحبته أحد أعيان الدائرة الانتخابية الذى سيساعده فى الانتخابات ، وكنت لم أر أبى من عدة أيام فذهبت إليه وصافحته وتحدثت إليه فى بعض الشئون ، وسرنى كثيراً أننى وجدته مبتهجاً إلى سیر المعركة الانتخابية التى قربت نهايتها والنّى تبشر بالنجاح المؤكد ، ثم صافحنى مرة أخرى وانصرف مع من معه وانصرفت أنا أخترق عرض الطريق لكى أنتظر زينات . . غير أننى شاهدتها واقفة فى الظلام على الطوار الجانبى بجوار مطعم نيو كورسال فذهبت إليها وما إن اقتربت منها حتى وجدت فى حالة اضطراب شديد وذهول يكاد يفقدها صوابها . . فاندبهشت وزادت دهشتى عندما وجدتها تمسك بذراعى يديها المرتعشتين وتسألنى وهى تكاد من الخوف تصرخ فى الطريق :

— من هذا الرجل الذى كنت تتحدث إليه ؟

وكانت طريقة إلقاء السؤال غريبة .. ومريبة فى الوقت نفسه .. فقلت :

— لماذا ؟ ..

فهزتنى فى عنف من كفى وهى تصرخ هذه المرة :

— تكلم .. قل .. من هذا الرجل الذى كنت تتحدث إليه ؟

— لماذا أنت مضطربة هكذا ؟

فقلت وهى تكاد تسقط إغماء .. لولا أنها استندت إلى كفى :

— هل تعرف من هو هذا الرجل ؟

— من ١؟

— إنه الرجل الذي رأيته بعيني هاتين يتسلل من مخدع «أمى» قبل أن تقتل بأيام ..

ففتحت عيني وأغمضتها آلاف المرات .. قبل أن ألتقط أنفاسي وقلت وكأنني أخاطب شعباً خرج إلى في الظلام :

— ما هذا القول ؟

فلم تصنع إلى ما أقول .. واستطردت وهي ما تزال تهزني من كفتي :

— لماذا أنت تنتظر .. أستيقظ .. أسرع خلفه .. أمسك به .. اقبض عليه .. إنه هو الذي قتل أمى ..

فلم أستيقظ كما كانت تريد .. وإنما ظللت في مكاني منحجراً أشبه ما أكون بتمثال من الحجر تماماً .. ولم أفق إلا على شيء يتسرب من بين أصابعي ويتطاير في الهواء .. عرفت فيما بعد أنه كان تذاكر السينما .. ثم ذهبت معها إلى البيت ولا أدري حتى الآن .. هل ذهبت معها إلى البيت في سيارة أجرة أو في سيارتي .. وهل كنت أقودها أو لا .. وهل كدت أرتكب أكثر من حادث في الطريق أو أنني كنت ممالكا لقواي العقلية والجسمانية .. وهل كانت هي من الإعياء والفرع بحيث حملتها على كفتي حتى أدخلتها البيت أو هي التي فعلت معي ذلك .. كل هذا لا أذكر عنه شيئاً الآن .. ولكن الذي أذكره جيداً هو أنني كنت وأنا معها نتحدث كلما أفقت من غشيتي ...

وعادت هي فأكدت أن هذا « الرجل » هو نفسه الذى شاهدته بعينها يخرج من بيت المحبى عليها . . فعدت ثانية إلى فقدان صوابى ، كما أذكر شيئاً آخر وأذكره جيداً . . وهو أننى لم أقل لها من هو هذا الرجل ولا ما هي صلتى به . . وهل أعرفه أنا معرفة جيدة أو هي معرفة عابرة ؟ كما أذكر شيئاً ثالثاً وأذكره تماماً . . لأنه لا ينسى وهو أننى بعد أن غادرت بيتها في الساعة الثالثة صباحاً في هذه الليلة وقطعت ثلاثة أرباع الطريق إلى بيتى . . عدت ثانية فرجعت إليها لأسألها بعض أسئلة جديدة اتضح أننى سألتها لها أكثر من مرة . . مثل هل هي متأكدة من هذا القول الذى تقوله . . ومثل رجائى لها أن تكون مخطئة في الفهم . . ومخطئة في النظر . . ومخطئة في الرؤية . . ولكن المسكينة لم تستجب لرجائى ولم ترحم قلبى . . فجعته في أعز ما يملك . . وهو حياته . . وراحت تؤكد لى كل حرف قائلة . . وتدعم قولها بالأسانيد والأدلة والوصف الدقيق للرؤية . . وهي تعيد على نفس المشاهد التى رأتها بعينها ووصفتها في التحقيق وصفاً دقيقاً وكيف أنه كان يضع صحيفة على وجهه حتى لا تراه . . ولكنه عندما استدار ليخرج من الباب . . استطاعت أن ترى نصف وجهه . . بل ثلاثة أرباع الوجه . . وكيف أنه هو نفس الوجه ونفس الشارب ونفس العيون الضيقة التى تميل إلى السواد . . ونفس الياقة المنشأة والدبوس الماسى الذى يلتصع بريقه فوق رباط العنق ، بل نفس الطول والعرض واللون الذى يميل إلى السمرة .



ولما أعادت على مسامعى كل هذه الأوصاف للمرة العاشرة بعد المائة . . أو المائة بعد الألف تركتها وانصرفت ثانية إلى الطريق أو إلى البيت لا أدري . . وأنا أصبح فى دوامة من الهواجس الغريبة والأفكار السوداء . . ترى هل هو أبى حقيقة . . ولو كان هو . . فما هى العلاقة التى كانت بينه وبين هذه المرأة . . وهل أبى كذلك . . ممن لهم علاقات نسائية ؟ ! ولكنى أعرفه جيداً . . إننى ابنه . . . وأكاد أعرفه أكثر مما يعرف هو نفسه . . حقيقة إنه كأى إنسان آخر فيه الكثير من صفات الخير ومن صفات الشر . . ولكن صفة الشر هذه بالذات ليست أبداً من صفاته . . إن كل ما فيه من صفات الشر حقيقة كما أسميها أنا « صفات شر » هو حب المادة . . وجمع المال . . والبحرى خلف الشهرة والمجد بأى ثمن وقد بلغ من ذلك كل ما يريد بل أكثر مما يريد . . فهو يملك ما يزيد على أربعة آلاف من الأفدنة . . . غير العقارات الكثيرة التى تدر عليه أموالاً طائلة . . وبلغ من الشهرة والمجد ما لم يبلغه غيره . . فهو « باشا » وهو مرشح للوزارة .

مثل هذه الصفات أعرفها فى أبى . . ولكن هذه « الصفة » بالذات لا أعرفها عنه أبداً ، ولا أستطيع أن أكون خالص الضمير إذا اتهمته بها . . ولو كان كذلك . . أفىكون هذا مع تلك المرأة ؟ ! إنها كما هو ثابت من التحقيق فى الخامسة والأربعين من عمرها . أى أنها عجزت لم يفثها القطار فحسب . . وإنما فات عليها فعلاً حتى كادت عجلاته

تأكل شبابها وتلدوس أنوثتها بدليل الآثار التي تركتها في الوجه هذه العجالات
الحمس والأربعون .. حقيقة إنها كما يتضح من صورها كانت لا تزال
بها بقية من جمال .. وبقايا من أنوثة .. ولكن ليس إلى هذا الحد ..
حد الفتنة والعشق .. و .. القتل أيضاً .

وكدت أسترسل في هذه الأفكار ، وفي غيرها .. لولا أنني فجأة ..
رهيت نفسي بالسخف .. وقصر النظر وبلادة التفكير .. إن الذي
يعينني الآن ليس هذا أبداً .. ليست هذه العلاقة وأسبابها إن مجرد التفكير
في ذلك معناه أنني قطعت بأنه أبي حقيقة .. إن الذي يتحتم عليّ أن أفكر
فيه أولاً : أهو أبي أم لا .. وكنت كلما فكرت في ذلك ورأيت
الظنون تسبقني إلى تلك النافذة السوداء .. التي سأطل منها على الحقيقة ،
أحسست بنار السكين التي تنغرز في صدري .. وكلما فكرت في العكس
أو أملت في أن يكون العكس هو الصحيح أحسست بتلك السكين تتسلل
من صدري وتخرج منه .. والغريب أنني كنت أشعر في الحالين بنفس
الأوجاع .

واتتني فكرة لا أدري لماذا ارتحت إليها بعض الشيء . . وأحسست بعدها أن آلامى قد نامت . . كماتنام تماماً آلام الطفل الذى تلهب رأسه الحمى إذا ارتفعت درجة حرارته إلى حد الهذيان .

إن زينات قد رأت أبى وهو يتحدث إلى فى الليل ، وعيون الليل مهما كانت مبصرة فهى لا ترى ماتراه عيون النهار . . فلماذا لا أمكن لزينات من رؤية أبى مرة ثانية فى النهار . . ومن المقطوع به أنها بذلك سوف تزداد تأكيداً إن كان هو أم لا . . ولكن كيف أمكن لها من ذلك دون أن أجعله يراها . . حتى لا يعرفها . . حقيقة إنه من المقطوع به حتى الآن أن أبى لا يعرف زينات ولم يرها فى حياته . . ولكن إذا كان هو فعلا الشخص الذى شاهدته زينات يتسلل من غرفة القتيلة ، هذه الغرفة التى كانت زينات تقف على بابها تلك اللحظة . . فمن المقطوع به أنه رآها وأنه سوف يعرفها فى الحال إذا وقعت عينه عليها . . وأنا ليس من صالحى ، حتى الآن على الأقل ، أن يعرف أبى من هى زينات . . فكيف إذن أمكن لها من أن تراه دون أن يراها هو؟ ... رياه ! أن رأسى يكاد ينفجر . .

وهكذا مر الليل بطوله . . ولما جاء النهار . . كان أسوأ حالا بكثير

من الليل الطويل الذى مضى ، فقد واتنى فكرة لا أعرف كيف اهتديت إليها . . . ولذلك نفذتها فى الحال . . . فقد كانت فكرة صائبة فعلاً . . . كان المكتب الذى اتخذته أبى لنفسه فى ذلك الحين ليدير منه أعماله ويعقد فيه اجتماعاته ويستقبل فيه من يريد استقباله من أهل دائرته الانتخابية يقع فى إحدى عمارات الحديدى بشارع عماد الدين ، وكان المسكن الذى يجاور مكتب أبى مباشرة ولا يفصله عنه سوى باب المصعد فقط هو مسكن مدام إيلين مصممة الأزياء المعروفة ، وكانت بحكم مهنتها تتردد عليها نساء كثيرات من شتى الطبقات ، وكنت أعرف ذلك جيداً لأن أمى كانت فى يوم ما إحدى زبائن مدام إيلين . . . وكثيراً ما كنت أذهب معها إلى هناك . . . فقد كانت أمى مقلة جداً فى الخروج ، ولا تخرج إذا خرجت إلا فى صحبتي أنا بالذات . . . فلماذا لا أشتري بعض الثياب لزيينات وأجعلها تذهب بها إلى مدام إيلين وفى وقت يكون أبى فى مكتبه يستقبل ويودع بعض زواره الذين كان يصر - ولا سيما فى هذه الأيام الأخيرة للانتخابات - على أن يودعهم لا إلى باب المكتب فقط ، وإنما إلى باب المصعد بالذات ، وبذلك تستطيع زينات من خلف شراعة باب مسكن مدام إيلين أن تراه جيداً دون أن يراها هو . . . ونفذت هذه الفكرة . . . وقامت زينات أيضاً بتنفيذ كل ما اتفقت معها عليه بدقة زائدة . . . وجلست أنا أنتظرها فى قلب سيارتي أمام «بار فنيكس» الذى لا يبعد عن العمارة إلا بأمطار قلائل . . . وكل جارحة فى وكل نقطة دم

تجربى فى عرق من عروقى ترجو وتتمنى وتضرع إلى الله أن يخيب ظن الفتاة .. وأن تكون الرؤية التى رأتها خاطئة .. وبرغم أننى انتظرت طويلاً .. وانتظرت ما يزيد على الساعتين تقريباً ، إلا أننى لم أشعر بملل الانتظار ولم أضيق به ، بل التمس تماماً هو الذى كنت أشعر به .. كنت أود أن يطول انتظارى النهار كله والليل أيضاً بل العمر بطوله .. فقط لا تأتى زينات وتقول لى إنه هو .. كنت أشعر فى هذه اللحظات أنه فى مقدورى أن أحتمل كل شيء .. أحتمل حتى أن تموت زينات قبل أن تجيء إلى أو أن أموت أنا قبل أن تجيء زينات .. أما الذى كنت لا أستطيع حتى مجرد التفكير فيه فهو أن تتحقق رؤية الفتاة .. وأن يكون الرجل الذى سوف تراه الآن هو نفسه الرجل الذى رآته يتسأل من مخدع المجنى عليها قبل ارتكاب الجريمة بأيام .. ولذلك عندما وقعت عيني على زينات وهى خارجة من باب العمارة .. ذلك الباب الذى ظلت عيني مسلطة عليه ما يزيد على الساعتين حتى لكان نظراتي مشلوبة إليه بجمل .. أغمضت عيني على الفور .. حتى أطيل فى عمرى لحظات قبل أن أرى وجه زينات .. وأرى الفاجعة مرتسمة عليه وعلى قسماته .. ولما أقبلت وجلست بجوارى فى قلب السيارة وفتحت عيني ورأيتها رؤية العين .. كانت كل الأسئلة التى أردت توجيهها إليها تسبقنى الأجوبة عليها ممثلة فى كل شيء فيها .. فى وجهها الشاحب المصفر الذى يشبه فى صفته وجوه الأموات تماماً .. فى عينيها المضطربتين ونظراتها الملتبنة التى

تندفق منهما . كما . تندفق السنة اللهب من فجوتين صغيرتين . . في شفيتها
المرتعشتين كشفاه محموم . . في صمتها المطبق الثقيل الذي لا يستشعر
رطاة ثقله سوى المفجوع فقط .

سارت بنا السيارة وتحدثنا . . تحدثنا أحاديث كثيرة . . ولكني لا
أستطيع أن أذكر من هذه الأحاديث شيئاً حتى أثبتة الآن بحرفيته . .
فقد كنا ونحن نتحدث إذا تنفست هي بسهولة واستقامت ألفاظها أصبت
أنا بالصمم فلا أسمع شيئاً . . وإذا تفتحت أذناي وأصبحت حاسة
السمع عندي قدرة على التقاط حتى صوت تراحم الدموع في عينيها
اختنقت أنفاسها وأطبقت على شفيتها . . فلم تعد تنطق . . ولهذا لا
أذكر من هذا الحديث الطويل شيئاً اللهم إلا سؤالها لي من حين إلى
حين . . . من هو هذا الرجل . . ؟ وما اسمه . . ؟ وهل أنا أعرفه
أو . . ؟ ! ولماذا لم أقبض عليه حتى الآن .

وكذلك لا أعرف أيضاً ما الذي حدث بعد ذلك في هذا اليوم
بالذات . . وهل قضيته مع زينات في بيتها . . أو قضيته بمفردي أسير
وحدي على غير هدى كإنسان آلى تحركه قوة هائلة من قوى الشر . .
وكنت كلما رأيت هذه القوة تستبد بي تقيت عن خاطري نفيّاً باتّاً كل
هذه الأحداث جميعاً . . . المحنى عليها التي قتلت . . القضية التي
حققت فيها . . زينات التي تعرفت عليها وأحببتها . . دسوقي الذي اغتيل
في ظروف غامضة . . تكييفي للأحداث بعد مقتل دسوقي . . دسوقي

الذى كان عشيقاً للمجنى عليها .. المجنى عليها التى عشقت غيره ..
 الرجل الذى شوهه وهو يتسلل من مخدع المجنى عليها .. قتل دسوق
 للمرأة التى خائنه وفضلت عليه رجلاً آخر .. هذا الرجل الذى قتل
 دسوق .. أبى وأنا أتحدث إليه أمام سان جيمس .. زينات التى كاد
 يغنى عليها عندما رآته .. المعاينة التى تمت فى الخفاء فى بيت مدام
 إيلين .. كل ذلك كنت أنفيه عن خاطرى .. وأبعده عن يدي
 الاثنتين كما يبعد الإنسان الذباب من على وجهه تماماً .. ولكن هذا
 الذباب وأسفاه كان أقوى من أن تبعده يد .. وكان كذلك أكثر من
 أن تتجاهله عين .. ولو كانت عين .. عين .. ابن ..

وفى الصباح ، ولعل هذا من سوء الحظ أيضاً ، حدثت حادث
 خلقت الصدفة البحتة .. فقد استيقظت مبكراً على غير العادة وارتديت
 ثيابى وخرجت حتى دون أن أتناول طعام الإفطار كما هى العادة قبل أن
 أغادر البيت .. وبينما أنا أهبط سلم القصر الرخامى التقيت بأبى يهبطه
 هو الآخر .. فقد كان كما قال لى .. على موعد مع أحد الوزراء فى
 بيته فى هذا الوقت المبكر .. فلاحظت وأنا أتحدث إليه شيئاً مخيفاً
 للغاية .. تسمرت نظراتى عليه .. فقد رأيت — ولعل هذا عن طريق
 المصادفة أيضاً — البدة التى كان يرتديها فى هذا اليوم .. ورأيتها
 سوداء مفرقة فى السواد وذات خطوط رفيعة بيضاء ولا أدري لماذا
 نظرت إليها جيداً وتفحصتها بعينى بدقة كادت تلفت نظره لولا أننى

كنت أكثر لباقة من أن أجعله يظن إلى هذا .. ولما انصرف .. وانصرفت أنا إلى طريقى .. تذكرت أنني استمعت إلى وصف دقيق إلى هذه البدلة وأن هذا الوصف ملون بحرفيته فى شىء ما ، ولذلك كان أول شىء فعلته ، عندما ذهبت إلى مكتبى هو أنني استدعيت سكرتير التحقيق وطلبت منه دوسيه الجناية رقم ١١٠٧ .. ورحت معه أراجع أقوال بعض الشهود وبعض الذين كانوا قد اتهموا فى هذه القضية .. وقرأت مرة أخرى الوصف الدقيق الذى وصفت به زينات ذلك الرجل الذى رأيته يتسلل من مخدع المحنى عليها .. ووقفت عيني طويلاً على وصف البدلة التى كان يرتديها ولونها الأسود الغارق فى السواد وخطوطها الرفيعة البيضاء كما استوقف نظرى فى أوراق التحقيق بعض أشياء أخرى .. أشياء كثيرة دونتها خلصة فى ورقة صغيرة أمامى وأحفظتها جيبى خلصة أيضاً .. ومن هذه الأشياء التى استرعت انتباهى ... بصمات الجاني التى وجد بعضها فوق مزلاج باب الغرفة التى ارتكب فيها الحادث ... ووجد بعضها الآخر على « فاقة » وجدت ملقاة على الأرض . كان الجاني قد قذف بها المحنى عليها قبل أن يرتكب جريمته بالمسدس .. ومنها أيضاً نوع المسدس الذى استعمل فى الحادث .. ولست أدري لماذا استرعى انتباهى هذا كله .. ولست أدري أيضاً لماذا ضربت بكل أفكارى السابقة عرض الحائط .. ولم أعد أفكر فى غير شىء واحد فقط .. وهو التأكد أولاً من إبعاد هذا الشك القاتل ، وهو علاقة أبى

بهذا الحادث . . هذه العلاقة التي برغم كل ما حدث ما زلت أستبعدا وأنفيها بكل قوتي . . وكنت كلما تقيتها نقياً باتتاً وأبعدتها عن خاطري بعد السماء عن الأرض ، عادت بعض الأفكار السوداء التي لا قبل لي بإبعادها تأكل في خاطري وتقرضه بأنيات موجهة للغاية . . أحاديث أبي . معي عن القضية . . حديثه عن دسوقي بالذات . . أرض الهجنى عليها المتاخمة لمزارع أبي تماماً . . وإمكان إيجاد صلة عن هذا الطريق . . وحتى لا تتناثر أفكارى أو يغيب بعضها عن البعض الآخر ويمتد بي هذا العذاب المصنئ طويلاً . . رحت أدون هذا كله في مذكرات خاصة بي حملتها في جيبى واحتفظت بها بين طيات ثيابى .

ومن ثم بدأت إجراءات السرية الخاصة التي قمت بها بمفردى ولا يعلم بها أحد غير الله وأنا وهذه المذكرات التي بدأت تتكاثر صفحاتها ... والتي كنت أدون فيها أولاً بأول حتى أفكارى التي كانت تدور في الظلام بينى وبين نفسى . . هذه الأفكار التي كانت بالنسبة لى . أشبه بالسم الذى يفرى جسدى ولا سيما عندما أمسك بنحيط مجيد يزيدينى قرباً من الفاجعة ويجذبني إليها على الرغم منى . . وقد مكثت كذلك إلى أن حدثت فى يومين اثنين فقط بعض الحوادث الهامة جداً التي أطارت صوابى وأطاحت بكيانى من جذوره . .

استيقظت كالعادة في الصباح وارتديت ثيابي . . وكان أبي قد عرف بذلك قبل أن أخرج فاستدعاني لأتناول طعام الإفطار معه كما هي العادة إذا تواجدنا معاً في البيت وقت تناول الطعام.. وبينما أنا أجلس معه على المائدة نتناول طعام الإفطار ونتحدث عدة أحاديث كانت تدور جميعها حول معركة الانتخابات التي قربت نهايتها بجداً . . لاحظت أنه بعد أن شرب من كوبه الماء التي أمامه على المائدة ووضعها ثانية مكانها . . لاحظت أن أصابعه قد تركت بعض البصمات عليها ، وكانت واضحة تماماً . . ولست أدري لماذا استرعى هذا انتباهي وفكرت فيه جيداً . . ولست أدري لماذا أيضاً تعمدت أن أطيل من تناول طعامي على غير العادة حتى فرغ أبي من طعامه وودعني وانصرف . . وانتهزت هذه الفرصة وصرفت عم إدريس الخادم إذ طلبت منه أن يحضر لي شيئاً من غرقى بالدور العلوي . . وأسرعت بتناول الكوبه في حرص شديد للغاية ووضعتها في علبة من الكرتون وجدتها فوق البوفيه في مائدة الطعام . . وكان بها بقايا من بسكويت ومن ثم حملتها وانصرفت إلى مكبي دون أن يفتن أحد إلى ذلك . . وفي المكتب استدعيت أحد الذين يعملون معي في المكتب

وكنـت أثق فيه ثقة عمياء وطلبت منه أن يقوم.. وبطريقة سرية للغاية.. بمضاهاة هذه البصمات الـتي تحملها هذه الكوبـة بالبصمات الـتي تركها الجاني على مزلاج باب الغرفة وعلى الفـازة في الجـناية رقم ١١٠٧ وأن يحضر لى الكوبـة ثانية مع التقرير الـذى سوف يجيىء به إلى بطـريقة غير رسمية .

وفي الـيوم الثـانى . . . مباشرة ولكن فى الـليل . . حدث أن ذهبت إلى البيت فى وقت متأخر من الـليل فوجدت أمى قد انتابها أزمة الربو بشكل مزعج هذه المرة مما استدعى إحضار الطيب فى الحال ، ووجدت الطيب عندها ودمعه أبى فى حالة قلق زائد فانضمت إليهما ، وبعد أن أسعفها الطيب وبدأت عيناها تغفو طلب منى أبى الـذى كان بمـلابس النوم أن أحضر له علبة سجائره من غرفة نومه الـتي كانت تجاور غرفة والدتى مباشرة لا يفصلها عنها سوى ممر قصير لا يزيد على عدة أمتار ، ولما ذهبت لأحضر له علبة السجائر وفتحت باب الغرفة ودخلت . . لفت نظرى مسدس أبى ، فى جرابه الجلد الأصفر ، موضوعاً فوق الطاولة بجوار علبة السجائر . . وما إن رأيته حتى واتتنى فكرة مجريئة جداً ومع ذلك نفذتها فى الحال . . ونفذتها بدافع قوى لعله نفس الدافع الـذى جعلنى اختلست بالأمس كوبـة الماء . . ولكن ما هو هذا الدافع ؟ . . لا أدري حتى الآن . . ولكن الـذى أدريه هو أننى كما اختلست كوبـة الماء ووضعها فى حرص شديد داخل علبة الكرتون كذلك اختلست المسدس . . واستبدلت به مسدساً آخر كنت أحمله فى

جيبى دائماً ، من حسن الحظ أو من سوءه لا أدري . . فى نفس الحجم بحيث إننى لما وضعت فى الجراب وأعدته إلى مكانه لم يتغير شيء . . ومن ثم حملت مسدس أبى فى جيبى وانصرفت . . وأعطيته علبة السجائر . . وظللنا نتحدث أنا وهو والطبيب إلى أن انصرف كل منا إلى حال سبيله .

وما إن انصرفت أنا إلى غرفة نومى وأغلقت بابها خلفى وتأكدت من ذلك جيداً ومن أننى وحيدى دون رقيب حتى أخرجت المسدس من جيبى وتفحصته . . وما إن فعلت حتى شعرت بدوار شديد . . كما شعرت بأن الضوء الذى ينير غرفتى يظلم فى عينى . . أو هو على الأقل يخفت إلى حد أننى لم أستطع معه أن أدون فى مذكراتى الخاصة هذه النتيجة المربعة لهذا الفحص الدقيق الذى قمت به والذى ثبت منه ثبوتاً قاطعاً أن هذا المسدس هو نفسه الذى استعمل فى الجريمة وأنه ماركة « براونج » عيار ٧ ، وأن « المشط » الذى يتسع لسبع الرصاصات كاملة العدد ليس به سوى أربع رصاصات فقط . . وأن ثلاث الرصاصات الناقصة هى التى استعملت فى الحادث وهى التى هتكت فروة الرأس وحطمت الجمجمة ونفذت إلى المخ فأحدثت الوفاة فى الحال . . كما جاء فى تقرير الطبيب الشرعى .

وشعرت بأننى أختنق . . وبأن كل ما تحتوى عليه غرفتى من أثاث إنما هو كابوس يحتم فوق صدرى . . ويخنق أنفاسى . . ففتحت الباب

سريعاً وهربت . . . وفي الطريق لا أدري أين ذهبت في الليل . . . هل رحلت
 أجوب الطرقات وحدي في الظلام . . . أو جلست في قلب سيارتي أحترق
 ككومة من نار تندلع منها ألسنة اللهب . . . أو ذهبت إلى زينات
 وأيقظتها من نومها في هذا الوقت المتأخر من الليل . . . وأنها هي التي جعلتني
 أفطن إلى ما أنا فيه من سوء حال وإلى النار التي تشتعل في صدري
 وجمراتها التي تتقد في عيني . . . وكيف أن المسكينة ظلت بقية الليل
 تطفئ في هذه النار وتلقى فوق ألسنها المشتعلة بكل ما تملك من أحاسيس
 ومشاعر وروح وقلب ووجدان . . . فلم تزد على أنها زادت اشتعالاً . . . إلى
 أن جاء الصباح . . . فركتها هي التي تحترق وانصرفت . . .

وفي مكنتي وحوالي الظهر تقريباً كانت قد حلت الفاجعة . . . إذ جاءني
 نتيجة مضاهاة البصمات التي تمت بطريقة سرية كما طلبت تماماً فإذا بها
 نفسها بصمات القاتل . . . وبذلك استقامت أركان الاتهام جميعاً . . .
 واستقامت بما لا يقبل الشك . . . أو يحتاج إلى دليل . . . وبذلك أيضاً
 انقلبت جميع أفكارى العقلية والمنطقية وحتى الاستنتاجية التي كنت قد
 كونتها لنفسي . . . فلم يكن دسوقي هو الذي قتل المحبى عليها . . . لأنه
 اكتشف أنها فضلت عليه عشيقاً غيره . . . ولم يكن ذلك العشيق الحديد
 هو الذي قتل دسوقي انتقاماً منه لأنه قتل عشيقته . . . وإنما الأمر غير
 ذلك كله . . . وأن الذي قتل المحبى عليها إنما هو هذا الرجل الذي
 شاهدته زينات يتسلل من مخدعها في الليل والذي هو . . . رباه ! ...

إننى لا أقدر حتى على مجرد نطق هذا الاسم . . ولكن الذى أقدر عليه وعلى التفكير فيه لأنه فوق طاقة البشر تجاهله . . . هو . . . لماذا ارتكب أبى هذه الجريمة ؟ ! . . لماذا سفك دماء المحبى عليها ؟ ! . . لماذا قتل أبى زينب عبد العال الشوباشى وأطلق عليها ثلاث رصاصات من مسدسه فأرداها قتيلة ؟ ! . .

إن الثابت والمقطوع به . . أنه كان على علاقة مشينة بها . . بدليل تردده على بيتها فى الخفاء حتى لا يراه أحد . . وبدليل رؤية زينات لهما فى هذا الوقت من الليل وهما فى حالة تكاد تشبه التلبس يقطع بريبتها أكثر من سبب . . . خلو البيت حتى من الخادمة التى أبعدت عن البيت لنفس الغرض التى قطعت زينات بأنها كانت خارج البيت فعلا، بدليل أنها التقت بها مقبلة من الخارج بعد خروج أبى، وبدليل رؤية زينات للحادث رؤية العين . . . الاثنان فى قلب المخدع . . . النور الذى انطفأ فجأة . . . ارتباك الرجل وتسببه سريعا من قلب الغرفة . . . ارتباك المحبى عليها الشديد والحالة المريبة التى كانت عليها . . . وقميص النوم الخفيف الذى كانت ترتديه . . واضطرابها الزائد عندما شاهدت زينات . . كل ذلك يقطع بوجود العلاقة المشينة بين الاثنين . . وهذه العلاقة ظلت قائمة إلى ما قبل ارتكاب الحادث بأيام قلائل . . فما هو الذى حدث حتى جعل هذه العلاقة تنقطع فجأة . . . وهى لم تنقطع فحسب ، وإنما انقلبت إلى هذا المنقلب . . من حب . . وغرام . .

وهيام . . وجراً متناهية في سبيل تحقيق الغاية . . إلى البغض . . والكراهية
 البالغة هذا الحد . . حد القتل . . سفك الدماء ارتكاب
 أشنع الجرائم . . ومن الذى يفعل هذا كله . . أبى؟
 ودارت بى الأرض دوراناً شديداً . . وأحسست بمقت وكراهية
 لكل شيء . . للناس جميعاً . . لبيتى . . ولمكتبى . . ولأبى . . وأمى . .
 وزينات . . وحتى نفسى . . وأردت أن أهرب . . أهرب من هؤلاء
 جميعاً . . وقد هربت فعلاً . . وذهبت إلى فندق متواضع فى حى غير
 معروف . . واضطرت ولأول مرة فى حياتى لكى لا أرى أحداً أو يتعرف
 على أحد أن أزور وأن أقيد نفسى فى الفندق تحت اسم غير اسمى . .
 ومكثت ثلاثة أيام فى غرفتى لم أبرحها . . ثلاثة أيام هربت فيها فعلاً . .
 من الناس . . والدنيا . . وكل ماله صلة بالحياة . . وبهذا العالم الذى
 نعيش فيه . . ومع ذلك لم أقدر على أن أهرب من نفسى . . من الشيء
 الحقيقى الذى وددت أن أهرب منه . . من المذكرات التى بلغت الكثير
 من الصفحات . . والتى دونت فيها هذه الأحداث جميعاً . . واحتفظت
 بها فى جيبى . . بين طيات ثيابى . . بين محاجر عيى . . خوفاً من أن
 يراها أحد غيرى . . ثم خرجت بعد هذه الأيام الثلاثة وبى رغبة ملحة
 إلى شيء . . شيء أحسست أنى لو عرفته فربما انطفأت هذه النار التى
 كادت تخلف جسدى تراباً . . هذا الشيء هو أن أعرف لماذا ارتكب
 أبى هذا الجرم . . وقتل هذه المرأة فى عقردارها ؟ . .

رجعت إلى بينى في مساء اليوم الرابع . . وما كدت أقرب من مدخل القصر حتى رأيت شرفاته وردهااته وحديقته الواسعة تموج بجموع من الناس تهتف وتصفق وتملأ ضحكاتها أرجاء القصر . . وتعطر الفرحة الكبيرة أبهاءه جميعاً .. لقد نجح أبى في الانتخابات وتحقق الحلم الكبير الذى كان يسعى إليه ودخلت في غمار هذه الجموع وضحكت أنا أيضاً مع من ضحكك وصفقت أنا أيضاً مع من صفق وارتميت في أحضان أبى وعانقته وذابت الفرحة التى غمرتني في خضم الموج الزاخر الذى كان يصطخب في صدر أبى أنساً وفرحاً وإبتهاجاً .. ومن ثم انتحيت بجانباً .. وجلست أبجفف العرق الذى كان يتصبب منى بغزارة ، والذى لا أعرف حتى الآن سببه .. ورحت وأنا في جلستى هذه أقرب أبى وهو يروح ويحيى وكل شىء فيه يرقص .. حتى الأرض التى يسير عليها . . حتى الملابس التى يرتديها . . حتى تلك الياقة المنشأة وذلك الدبوس الماسى الذى تتحلى به ربطة العنق .. ولا أدري لماذا استقرت عيني على هذا الدبوس بالذات وهذه الياقة المنشأة بالذات . . وتذكرت أننى شاهدتهما كثيراً من قبل . . وأننى أيضاً استمعت إلى وصف دقيق لهما ذات

مرة أو ذات مرات . وأن هذا الوصف مدون في بعض الأوراق .
 ومر أبى من جوارى وهو يروح ويحيى بين الناس وأقبل على مرة أخرى
 وقبلنى مرة ثانية مهنتاً بنجاحه .. كأنه نسي أنه هنأتى وقبلنى من قبل . .
 وأطال هذه المرة من تقبيلي ومداعبتي ، وراح يربت على وجهي بأصابعه
 وأحسست بدفء هذه الأصابع وحلاوة حنانها وهي تمر على وجهي . . .
 وتعجبت كيف يمكن لهذه الأصابع التي تعرف مثل هذا الحنان وتعرف
 مثل هذا العطف والتي لها مثل هذه اللمسات الإلهية التي تذوب رقة
 وحناناً . . . وحباً . . كيف يمكنها أيضاً أن تضغط في قسوة وفي ظلم
 وفي وحشية على مفتاح مسدس لترهق روحاً من الأرواح . .

ومكثت كذلك فوق مقعدي أشبه ما أكون بحجر كبير وضع فوق
 قاعدة من القواعد . . لا أنطق ولا أتحرك . . ولا أتكلم . . إلى أن انتصف
 الليل وانصرف الناس وخلا القصر من الرواد جميعاً . . . ولم يبق في
 هذا القصر الفسيح الأرجاء سوى أنا وأبى في الدور الأول الذي ما زالت
 الأنوار تتلألأ في قاعاته كالشموس المشرقة . . وأمى في الدور العلوي
 راقدة في فراش المرض كجثة محنطة حديثاً وموضوعة في خوض من
 البلّور . . ونظرت إلى أبى وهو يجلس أمامي في إحدى شرفات القصر
 التي تطل على الحديقة الواسعة، وتأملته وهو يرفل في الفرحة التي تحيط به
 من كل جانب . . وأحسست بالدموع تغمر عيني . . لماذا ؟ ! . . .
 لا أدري . . كما أحسست بأنى أريد أن أقول له شيئاً . . وأن قوة فوق

طاقتى تدفعنى دفعاً لأن أقول له هذا الشىء . . ومع ذلك لم أقدر . . .
 كانت شفتى أشبه بقطعتين من الجلد الجاف تماسكتا والتصقتا بحيث
 لا ينفذ من بينهما حتى خيط من هواء و . . وكأنه لاحظ على ذلك
 فسألنى : لماذا أنا صامت هكذا ؟ ! . . فلم أجب . . وزاده صمتى
 إصراراً على السؤال أو زاده إحساساً بما أعانى من فزع وخوف . . فقال
 وهو ينظر إلى شفتى المطبقتين المرتعشتين :

— إنك تخفى شيئاً . .

ولما لم أجب أيضاً . . تحققت شكوكه . . وقال وعلائم الدهشة ترسم
 على وجهه :

— إنك تريد أن تقول شيئاً . . .

— فعلاً . . أريد أن أقول أكثر من شىء . . .

فقال وهو يقترب منى فى حنان الأب ويضع يده على كتفى :

— أعرف أنك غير راض من أول الأمر عن هذه المعركة الانتخابية

التي خضتها والتي كبدتني هذه المبالغ الطائلة . . ولكن العشرة آلاف
 جنيه التي أنفقتها ليست بذات بال إزاء هذا النجاح الذي جعلني الآن
 أكاد أجلس فوق كرسي الوزارة .

يا لله ! . . إنه ما زال يتحدث عن أطماعه . . وعن كرسي الوزارة

الذي يحلم به . . لماذا لم يقطن إلى ما في خاطري . . ويحدثني عنه ؟ . .
 رباه ! . . لماذا لم تجعل للبشر حاسة سادسة أو سابعة أو ثامنة تمكن لهم

من معرفة ما يدور في نفوس الغير . . وما يحرق هذه النفوس حتى كان
أبى على الأقل يعرف ما بخاطري ويحدثني هو عنه ، حتى لا يكلفني هذا
العناء الشديد . . وحتى لا يترك لهذه العقدة تمسك بشفتي كما تمسك بها
تماماً أنياب أفعى قاتلة تنفث السم ؟!

ولما رأيته يريد أن يستطرد ثانية في أحاديثه هذه البغيضة إلى نفسي ..
عن المجد والطموح والعظمة وكرسی الوزارة الذي بات يحلم به . . لما رأيته
كذلك قلت له وأنا أخفض صوتي . . فقد كان منأى أن لا يسمع ما
أقول :

— إن الذي أريد أن أقوله . . فوق هذا كله . .

— ما هو؟ . . وماذا تريد أن تقول ؟

— إنك متهم بجريمة قتل . .

فأريدت سحنة الرجل على الفور . . وقال :

— إنك تهذى . .

— ليتني كنت كذلك . .

فانقبضت قسماً وجهه . . وهو يقول ثانية :

— قلت لك إنك تهذى . .

فاختمت صوتي حتى كدت لا أستطيع التنفس . . وأنا أقول :

— من المؤسف أنني مازلت متالكاً لكل قواي . .

فدوى صوته كالرعد هذه المرة :

— كيف تجرؤ على أن توجه إلى أبيك مثل هذه التهمة ؟
 — لست أنا الذى يوجهها . . وإنما الذى يوجهها هو القانون . .
 فغابت التجاعيد التى على وجهه . . خلف موجة داكنة من السواد . .
 وقال وكأنه هو الذى يهذى حقيقة :
 — إننى ألقى بك من هذه الشرفة . .
 وأخرج المسدس من جيبه سريعاً وهو يستطرد :
 — أو أفرغ هذه الرصاصات فى صدرك . . قبل أن أسمع منك
 هذا القول عن أبيك .
 فنظرت إلى المسدس الذى فى يده . . وتذكرت المسدس الآخر الذى
 أحفظ به . . وقلت وأنا أتلاوى من الألم :
 — إنه من السهل عليك أن تفعل ذلك إن أردت . . أن تلقى بى من
 الشرفة . . أو تفرغ رصاصات هذا المسدس فى رأسى . . ولكن ليس
 من السهل أن يعفبك هذا من تهمة القتل . .
 — أى تهمة يا مجنون ؟
 — تهمة قتل المحبى عليها زينب عبد العال الشوباشى . . .
 — إننى لا أعرف واحدة بهذا الاسم . .
 فنظرت إليه فى دهشة غريبة . . دهشة امتزجت فى نفسى بفرحة
 زائدة حتى إننى وددت لو أنه يعيد على مسامعى هذا القول مرة أخرى .
 كما أحسست بشيء آخر . . وددت لو يدوم إحساسى به وهو أن بى

رغبة أكيدة لتصديق هذا القول . . ولماذا لا أصدقه . . ولماذا لم يكن
 حقيقة ؟ ! . . ولماذا لم يكن أبى صادقاً فيما يقول ؟ ؟ . . ويكون هو
 المفترى عليه . . وأنا الذى يفترى . . . حقيقة إن عهد المعجزات قد
 انقضى . . وإن طاقة فى السماء لن تفتح مرة أخرى . . ويتسلل منها نور
 يضىء الكون أو ظلام يعتم الدنيا . . أو يخرج منها للناس رسول يهdy
 إلى الحق أو نبي ينصف الناس . . حقيقة إن هذا كله قد انقضى ولن
 يرجع إلى أن تقوم القيامة ويخلق الله الناس خلقاً جديداً . . ولكن لماذا
 هذا القطع . . لماذا نحن البشر نقطع بذلك . . أليس هذا فيه ما فيه
 من جهود . . أليست اليد التى خلقت كل هذه المعجزات من أجل
 هناة البشر قادرة على أن تجنب فئة أخرى من الناس هذا الشقاء الكبير
 الذى يعيشون فيه . . حتى لو تطلب هذا خلق معجزة جديدة . . .
 رباه . . إنه شقاء كبير فعلاً . . وأى شقاء يكون هذا الذى يتعذب
 به ولد من أجل والده ؟ !

ووضعت آمالى جميعاً فى هذه المعجزة . . التى سوف تبعد ذلك
 الرجل عن أبى وتبعد أبى عن ذلك الرجل . . وتستبدل قتيلة بأخرى لا
 يعرف أبى عنها شيئاً ولم يسمع باسمها من قبل كما قال لى الآن . . رباه ! اللهم
 اجعل قول أبى هو الصدق . . فليس سوى هذا يطفى هذه النار التى
 تحرقنى . . . رباه ، إنك أعلم بحرقه النار لأنك أعلم بقلبي الذى يتمزق !
 تعلقت بأذيال هذا كله سريعاً . . ودعوت الله من أجل أبى . . ثم

قلت وأنا أنظر إلى وجهه الذى تغيب ملامحه أمام عيني فى أفق مظلم
حالك السواد :

— ولكن ماجاء فى التحقيقات يثبت أنك تعرفها . . ويؤكد أنك
قتلتها .

— قتلت من ؟ !

فقلت مرة ثانية :

— المحبى عليها زينب عبد العال الشوباشى . .

— ومن الذى يثبت ذلك ؟ !

فأشفقت عليه من الإجابة . . وصمت . . ولم أنطق . . فقال وهو
يدق الأرض بقدميه . . كما يدقها تماماً الثور الهائج . . وقال :

— أكل هذيانك وقل . . ما الذى يثبت ذلك ؟

— أشياء كثيرة جداً . . الراقصة زينات شوقى التى شاهدتك تخرج
من مخدع المحبى عليها قبل الحادث بأيام . . . تعرفها عليك عندما
شاهدتك بعد الحادث . . وصفها . .

فقاطعتى وكأنه يبعد شيئاً عن أذنيه :

— إننى لا أسألك عن الراقصة زينات شوقى . . وإنما أسألك عن
جريمة القتل . . ما دليلك عليها ؟ . .

— البصمات التى تركها الجانى والتى اتضح أنها بصماتك أذت

بالذات . .

— ولكن أحداً لم يأخذ بصماتي .. حتى يتحقق هذا ..

فلم أصنع إلى هذا القول ... واستطردت :

— والمسدس الذى استعمل فى الجريمة .. واتضح أنه مسدسك

أنت .. ماركة براونج عيار «٧» والرصاصات الثلاث التى أطلقت منه على رأس المجنى عليها فأردتها قتيلاً للحظتها ..

— ولكن مسدسى فى جيبى لم يأخذه منى أحد حتى يعرف ذلك ..

قال هذا وأخرج المسدس من جيبه .. ولكنه ما كاد ينظر إليه

حتى جحظت عيناه جحوظاً غريباً مخيفاً وقال وهو ينهار أمامى فوق أحد

المقاعد ويجهش باكياً كطفل ..

— كيف سولت لك نفسك أن تفعل هذا ؟

فأغمضت عيني .. لأننى لم أجرؤ على أن أرى الدموع تنهمر من

عينيه .. ولا كرر على السؤال اضطرت إلى أن أروى له الحقيقة

كاملة .. وهى أننى فعلت ذلك اضطراراً بعد أن عجزت عن احتمال ذلك

الشك القاتل الذى كان يغرس أنيابه البسامة فى صدرى .. وكانت كل آمالى

أن أثبت لنفسى سوء الظن وأن أقطع لها براءة أبى .

فظل يبكى .. ولا نرف الكثير من الدموع تتم وهو يتلوى وكأنه

جواد جريح مضروب على أم رأسه :

— وبعد أن عرفت ؟

— أسألك لماذا قتلت ؟

- وهل يعفى هذا من الجريمة ؟
 — قد يخفف هذا من الجرم .
 — إننى أسألك . . هل يعفى هذا من الجريمة ؟
 — لا . .
 — ولو اعترفت بالجرم ؟
 — ولو اعترفت بالجرم . .
 — ولو كانت الدوافع قاسية ؟
 — ولو كانت الدوافع قاسية .
 فيكى ثانية . . وصمت مرة أخرى . . ثم استطرد وهو يجفف دموعه :
 — ولو أن الذى قتل أب . . من أجل ابنه ؟
 فجحظت عيناي . . ونظرت إليه . . وقلت مشدوهاً :
 — أى . . . أب وأى ابن ؟ !
 — ألم تسألنى لماذا قتلت ؟ إننى قتلت . . . من أجلك أنت يابنى . .
 — من أجلى أنا ؟ !
 فلم ينطق . . وظللت أنظر إليه بجاحظ العينين . . ومرت فترة صمت
 لا أدري حتى الآن كيف مرت ولكن الذى أدريه أنها طالّت إلى حد
 كبير . . كبير جداً . . وظللنا كذلك أنا وهو إلى أن نهض متهاكاً على
 نفسه . . وجلس يجوارى . . ومن ثم أمسك بيدي التى كانت ترتعش
 وتهتز بين يديه والتى كانت تزداد ارتعاشاً كلما تساقطت عليها نقاط

الدموع التي كانت تتساقط من عينيه كنقاط من نار . . والتي ظلت تتساقط طوال هذا الحديث المفرع الذي كنت أستمع إليه . .
قال أبي وهو يرجوني أن أصغى إليه جيداً . . وهل كنت أملك غير أن أصغى إليه جيداً :

— تعرفت على المجنى عليها منذ ثلاثين عاماً أو يزيد . . وكنت إذ ذاك لا أزال في ريعان الشباب . . وكنت فقيراً معدماً لا أملك سوى راتبي الذي كان في ذلك الحين لا يتجاوز الخمسة جنيهات وكانت هي كل أجرى الذي أتقاضاه عن عملي كناظر للزراعة في أحد تفتيش جددك لأملك هذه . . وكان هذا لا يرضى طموحي وأطماعى التي كانت عريضة واسعة لا يعرف لها حدود . . . وكان هذا يقض مضجعي ويؤرق عيني في الليل وفي النهار أيضاً . . ولذلك كانت عيوني دائماً مشبوبة بأفاق عليا . . آفاق مليئة بكل شهوات النفس التي كنت أحلم بها . . من مجد وجاه ومال وثناء . . ومن يكن كذلك لا يغمض له طرف . . إنه يكون دائماً أشبه بالصائد الذي يتتبع القنينة بعين يقظة . . وإلا غابت عنه في الأرض . . أو غابت عن عينيه في السماء . . . إن (الفرصة) كالعقاب الذي لا يخلق إلا عالياً جداً لكي يتعذر عليك رؤيته ولذلك فهو لا يقع عليك أبداً . . وإنما عليك أنت أن توقعه . . ولكي تتمكن من ذلك يتحتم عليك أن تكون صياداً ماهراً تحذق فنون الرماية وتجيد إصابة الهدف . . ومن سوء الحظ أنه كانت عندي هذه القدرة .

أعرف أن هذا سوف يؤثرك يا بني .. ولكنى الآن أعترف ..
والاعتراف لا يكون مطهراً للنفس إلا إذا نبع من ذات النفس التي
تعترف بآثامها .. عند ذلك يكون الاعتراف صادقاً .. والصدق حسنة
.. حسنة قد لا تكون بذات بال عند ابن .. ولكنها عند قاض شريف
شيء له قيمته ..

قال ذلك وصمت لحظات .. جفف خلالها بعض الدموع ..
ثم استطرد في هدوء .. وفي وضوح أيضاً .. وقال :

— وذات يوم وابت الفتنة .. وكانت مغرية بحيث انشبت عيني
فيها على الفور وتعلقت بها ، حتى في لحظات الغمض كانت عيني أشد
تعلقاً بها .. كما لو كانت في الحلم أكثر منها إغراء في الحقيقة ..
وهكذا دائماً يكون الشيء الثمين .. تفكر فيه وهو في يدك كما تفكر
فيه وهو في قاع البحر .. إنه في يدك تخاف عليه .. وفي قاع البحر
تبحث عنه .. ومن الغريب أن أملك في الحصول عليه لا يقل عن أملك
في الاحتفاظ به .. حتى الفرصة ذاتها أمل .. ولذلك عندما جاءت
كانت هي أمل .. الذي عشت عليه حياتي كلها .. هذا إذا افترضنا
أنه كانت لي حياة في ذلك الحين ..

كانت أرض هذه السيدة — زينب عبد العال الشوباشي — تقع
بجوار التفيش الكبير الذي كنت أدير أعماله .. والذي أصبح فيما بعد
ملكاً لي كما هو اليوم .. وكان موقع هذه الأرض غريباً .. وقد اتخذت

من غرابته هذه وسيلة لأول حجر ألقيت به فوق الشجرة لكي يطير العصفور وأخرجه من عشه حتى أراه ، وأصوب له البندقية ..

كانت هذه الأرض التي تملكها هذه السيدة .. وتريد مساحتها على الخمسين فداناً .. تقع بين فكي تفتيشنا الكبير .. كانت أشبه ما تكون باللسان .. وأرض هذا التفتيش الواسعة هي فكاه .. وكانت هذه السيدة قد مات عنها زوجها وهي في العشرين من عمرها .. فترملت عليه برغم هذه السن .. وبرغم جمالها الذي كان يضرب به المثل بين النساء والرجال معاً .. فقد كانت جميلة جمالا ليس من سبيل إلى وصفه .. كما كانت أيضاً طيبة العنصر .. دمثة الخلق .. متدينة إلى حد كبير .. وقد قنعت من الغنيمة بالإياب .. فلم تشأ أن تتزوج ثانية .. ولم تفكر في ذلك .. أو حتى تدخله في حسابها .. ولكن هذا لم يمنعني من التفكير في الزواج منها .. ومن تنفيذ رغبتى مهما أصرت هي على الرفض .. ذلك لأننى إن فعلت وأمسكت بهذا الشيء الثمين في يدي فسوف أربح أرباحاً طائلة .. سوف أربح جمالا .. وأربح أخلاقاً .. وأربح عنصراً كريماً .. ونفساً طيبة .. وقلباً طاهراً .. وأربح كذلك مالا .. حقيقة إن المال عندي كان هو الربح الحقيقي الذي أطمع فيه وتصبو إليه نفسي .. وخمسون فداناً ليست بالربح القليل .. وهذه بالذات سوف تكون أكثر ربحاً إذا ما جمعتها هذه الصفات الأخرى .. ولكن السبيل إلى ذلك كان صعباً وطويلاً .. كان كالطريق الطويل في

الصحراء القاحلة ليس فيه سوى الرمال الى تحرق قدميك .. ومع ذلك
عرفت كيف أقطعه .. دون أن تتعثر قدمي ...

أعلنت عليها الحرب في الخفاء .. وأعلنتها حرباً لا هوادة فيها ..
اتخذت من طبيعة الوضع الجغرافي للأرض التي تملكها هذه السيدة ساحة
لهذه الحرب التي أعلنتها .

فهى إن طلبت الماء منعه عنها .. وهى إن استكفت منه أغرقها به ..
وإن هى زرعت شيئاً زرعت أنا غيره .. وهى إن تصادف وانطلقت دابة
من أرضها وخطت حتى مجرد الشبر فوق أرضنا ، أطلقت أنا دواب
التفتيش جميعاً وماشيته تلدوس أرضها .. ومع أن هذا فيه ما فى من
ظلم وافتئات على الحقوق وعدم مراعاة للحفاظ بالجار .. إلا أنه كان
السييل الوحيد لهزيمتها ، وليس من سبيل سواه .

وهكذا ظلت هذه الحرب قائمة بيننا ثلاث سنوات .. ثلاث
سنوات كاملة .. ثم انتهت آخر الأمر باتفاقنا .. اتفقنا على كل
شئ .. على الحب وعلى الإخلاص وعلى الوفاء .. ثم أخيراً على الزواج
الذى سوف نتزوج به . هذا كله آخر الأمر .. وأشهد بأنى كنت مخلصاً
فى ذلك الإخلاص كله .. وكنت محباً لها أيضاً الحب كله .. مما جعلها
ترك زمام أمورها جميعاً الى .. حتى زمام نفسها .. شخصيتها ..
ذاتها .. حياتها .. كل ذلك أنصرف فيه كما أريد .. وكما أشاء ..
وتشاء رغباتى جميعاً .. حتى تلك التى تعيش منها فى الخفاء .. وفى

ذات كل إنسان . . وترسب في باطنه . . ولا نفطن إليها إلا في ظروف معينة . . وحين تتحرك من تلقاء نفسها وتتمطى كما تتمطى الأفعى الملتفة حول نفسها في قلب العشب . . حتى هذه الرغبات أسلمت لي قيادها أيضاً . . وتركتني أحققها على الوجه الذي أريد . . وأشهد أن هذا كان فيه سعادتها . . لأنها وجدت فيه سعادتي .

وهكذا عشنا زمناً كما يعيش العشاق تماماً لا عمل لهم إلا البحث عما ينمي سعادتهم ويزيد من الهناءة التي هم فيها . . وعشنا أيضاً كزوجين لا ينقصهما غير التوقيع على ذلك الصك الذي نعلن به على رؤوس الأشهاد زواجنا . . ولكننا لم نفعل ذلك . . أو حتى نفكر فيه . . ولم يكن هذا لسبب من الأسباب ولكن لأن تيار سعادتنا كان جارفاً بحيث أبعدنا عن الناس بدرجة أننا نسيناهم ولم نذكرهم إلا عندما تجدت بعض الظروف التي أرغمتنا على ذلك ، وكثيراً ما تأتي بعض الظروف التي لم تكن في الحسبان فترغمك على تنفيذ ما كنت أهملت تنفيذه . . أو هي تذكرك به على الأقل . . فقد جاءني زينب ذات يوم وأخبرتني بأنها حامل . . ولا بد لنا من أن نعقد العقد حتى لا يفتضح أمرنا . . ورحبت بهذا ترحيباً كبيراً لأنني كنت خالصة النية — في كل ما اتفقت معها عليه — واتفقت معها فعلاً على اليوم الذي ستتزوج فيه وحددناه . . غير أنه حدث فجأة حادث غريب لم نكن لنتظر حدوثه . . وهو موت جدك الباشا لأملك هذه . . وكان رجلاً محبوباً منا جميعاً . . ومنى أنا

بالذات . فقد كان رحمه الله يحبني ويعطف عليّ ويقربني منه ويعتبرني كشخصه تماماً بدليل أنه كان يطلق يدي في كل شؤونه جميعاً .. في هذه الأموال الطائلة .. والتفاتيش الكبيرة التي تزيد مساحتها على الأربعة الآلاف من الأفدنة .. كان كل ذلك زمامه في يدي أتصرف فيه كما أريد .. ويعلم الله أنني كنت حقيقة جديراً بهذه الثقة .. مخلصاً لهذا الرجل الذي لم ينجب غير ابنة واحدة قدر لها منذ طفولتها أن تصاب بمرض في ساقها كثيراً ما كان يقعد بها عن السير .. وأعني بها والدتك هذه .

وكان لوفاة هذا الرجل الطيب وقعه السيئ على نفوسنا جميعاً ولا سيما على نفسي أنا بالذات ولذلك كان من غير المعقول أن أتزوج عقب وفاته مباشرة .. وهذه تقاليد لها في الأرياف اعتبارها الكبير .. وأحسست أنني لو فعلت ذلك وتزوجت زينب في ذلك الحين برغم هذه الظروف القاهرة التي كانت تدفعني إلى ذلك فسوف أفقد احترام الناس جميعاً ، — وعلى رأسهم — جدتك التي حزنت حزناً شديداً على وفاة زوجها ، وربما أثر هذا على كمشرف على هذه الأعمال جميعاً ، وباعتبارها هي صاحبة هذه الأملاك بعد وفاة زوجها أردت أن أكون عند حسن ظنها .

وقد تقول لماذا لم أتزوج زينب في الخفاء .. طالما أنه قد حدث ما حدث .. ثم أعلن عن زواجنا في الوقت المناسب .. وقد فكرت في ذلك فعلاً .. وفكرت فيه جدياً .. فاتضح لي كما اتضح لزينب أيضاً أن مثل هذا الزواج وفي الأرياف بالذات سبة تظل عالقة بالزوجين إلى

الأبد . . وتزول الدنيا ويفنى العالم ولا تزول الأيدي أو تفنى الحجارة
التي يرى بها مثل هذا الزواج . . وأنا أريد أن أكون زوجاً شريفاً في
نظر الناس طالما أنا كذلك فعلاً في نظر نفسي أو على الأقل كنت أظن
أننى كذلك .

لهذا اتجه تفكيرى إلى وسيلة أخرى ووافقتنى عليها زينب عن طيب
خاطر . . ورجبت بها ترحيباً كبيراً . . وهى أن أسافر معها سرّاً إلى
القاهرة وهناك بواسطة أحد الأطباء نزيل هذه العقبة التي ترغمننا إرغاماً
على أن نسرع بالزواج حتى إذا ما انتهت هذه الظروف القاسية ومرت
أيام الحداد التي يمتد طولها في الريف إلى ما يزيد على العام أتممنا العقد
وتزوجنا علانية وأعلنناه على رؤوس الأشهاد .

وصمت أبى لحظات . . كانت برغم قصرها طويلة ممضية في الطول
والثقل . . ثم استطرد حديثه بعد أن جفف دموعه الغزيرة التي كانت
تغرق عينيه . . قال :

— غير أننا عندما ذهبنا إلى الطبيب وعرضت زينب نفسها عليه
وفحصها فحصباً دقيقاً اتضح أن أى إجراء يعمل لإزالة هذه العقبة فيه خطر
كبير على حياتها ، ولم يكن هو وحده الذى قرر هذا ، وإنما قال به
كل الأطباء الذين عرضتها عليهم . . وقد أثر هذا في حالتها النفسية
فرضت مرضاً خطيراً وأصيبت بتضخم في الكبد . . . وهبوط شديد في
القلب مما استدعى ملازمتها للفراش عدة شهور ، وقد اضطرها هذا إلى

أن تختفى عن الناس ، فاستأجرت لها مسكناً في القاهرة ظلت فيه طوال شهور المرض . . ولما تماثلت للشفاء كانت شهور الحمل قد أوشكت أن تنتهى . . وبدأت آلام الوضع تتابها وكانت تعيش بمفردها وليس معها في البيت أحد . . وكنا حريصين على ذلك حتى لا يقف الناس على سرنا . . لذلك نقلتها إلى المستشفى لتلد هناك ولتكون تحت الرعاية الكافية . . فأدخلتها مستشفى (فؤاد الأول) للولادة وأنزلتها باسمى - أى أنها زوجة لى - ولم أبجد أية غضاضة في ذلك فقد كانت زوجتى فعلاً أمام الله وعمما قريب سوف تصبح زوجتى أمام الناس .

وكانت دموع أبى طوال هذا الحديث لا تنقطع . . وكان لا يصمت إلا ريثما يجففها فقط . . ولست أدري لماذا كانت هذه اللحظات القصار التى كان يصمت فيها أبى ليجفف دموعه تثير الرعب في قلبى . . لقد كنت أنظر إليه وهو يتحدث وأنظر إلى شفتيه وهى تتحرك وتهم بالكلام كما أنظر تماماً إلى شفتي قاض تعلق مصير حياتى بكلمة سوف تصدر من هذه الشفاه .

واستطرد أبى بعد صمت قصير ، قال :

- وكنت وهى في المستشفى تنتظر الوضع أتردد عليها بين الحين والحين . . كنت أجيء إليها من الريف في أول النهار ثم أعود في آخره . . أو أسرق نفسى في الليل وأذهب إليها ثم أعود إلى عملى في الصباح . . وكنت في كل مرة أجيء فيها إلى القاهرة أدعى بأننى إنما أجيء بسبب أعمال تتعلق

بالتفتيش أو التفاتيش التي أصبحت أدير أعمالها جميعاً بعد أن مات صاحبها . . . وذات يوم كنت في القاهرة . . . فاستدعيتني « أنجه هانم » صاحبة هذا الثراء كله والتي شاء القدر فيما بعد أن تكون هي جدتك لأملك هذه . . . أقول استدعيتني إلى القصر وهناك فاجأتني مفاجأة مذهلة . . . مفاجأة لم تكن في يوم لتخطر لي على بال . . . قالت لي إنها بما سوف تطلب مني تنفيذه إنما تنفذ وصية زوجها الباشا رحمه الله وتحقق له رغبة تمنى لو تحققت قبل موته كما أنها هي أيضاً تود أن تحققها قبل أن تموت حتى تموت مرتاحة البال .

قالت لي إنها تعيش الآن في أيام حياتها الأخيرة وإنها لن تترك لها وريثاً غير ابنتها هذه التي قدر لها أن تعيش حياتها هكذا مريضة بساقها . . . وإنها إن ماتت وتركتها دون أن تتزوج فسوف لا يتزوجها إلا طامع في مالها فقط . . . وهذا سوف يسبب لها كأم الكثير من القلق حتى بعد الموت . . . ولأنها - أي الأم - تعتبرني خير من يصلح للزواج منها لأنني خير من يحفظ لها مالها ويحفظ لها أيضاً كرامتها كزوجة ثرية ولكنها مريضة . . . لذلك فهي تعرض عليّ الزواج منها طالما أنها تثق في كل هذه الثقة . . . وطالما أنني غير طامع في مال . . . أو ثراء . . . أو جاه . . . ياللعجب !

قالت لي « أنجه هانم » هذا القول . . . فدارت بي الأرض وعشت لحظات في دوامة هذا الحلم الكبير . . . الذي كان أشبه بطاقة من السماء

انفتحت لى أنا وحدى دون سائر البشر جميعاً . . لقد كان كل منى وكل ما كنت أطمع فيه من دنياى . . وتصبرو إليه نفسى هو أن أتزوج زينب عبد العال الشوباشى لأمتلك هذه الأفدنة التى لا تزيد على الخمسين . . وأصبح من أصحاب الثراء . . وأحقق حلمى العريض الذى كنت أحلم به . . فما بالك إذا تزوجت « منيرة هانم » وأصبحت أنا المالك الوحيد لهذه الأربعة الآلاف فدان غير كل هذه الأملاك والعقارات الأخرى التى نملكها الآن . . مرة أخرى . . ياللعجب ! . . .

قلت لك إن الحلم كان كبيراً بحيث جرفتنى دوامته . . ولم أفق منه إلا وأنا الزوج الشرعى . . . لهذه السيدة التى شاء القدر أن تكون هى أمك أنت يابنى .

فهتفت وأنا أكاد أصرخ :

— وزينب التى فى المستشفى تضع غلاماً منك ؟

فقال :

— لم أجرو على أن أذهب إليها ثانية . . أو حتى أراها رؤية العين . . وإلا فكيف كنت سألتقى بها وكيف كنت سأراها . . وماذا كنت سأقول لها ؟ ! . .

وصمت لحظات أخرى نظر فيها طويلاً إلى أصابع يديه وهى ترتعش . . ثم قال :

— كل الذى فعلته أننى كتبت لها خطاباً وبعثت به إليها فى

المستشفى . . وقلت لها فيه : إننا أردنا شيئاً . . وأراد القدر غيره ،
وسألت لها الله أن يمد لها يد العون وأن يخرجها من هذه الأزمة فهي
لا تستحق أبداً كل هذا الشر الذي أوقعها أنا فيه بحسن نية . .

— وهل هذا يكفي ؟

— هذا ما حدث . .

— وماذا فعلت ؟

فانخفض صوته كثيراً وهو يتحدث ويلقى بوجهه إلى الأرض :
— أشهد بأن الصدمة كانت بالنسبة إليها قاسية لا أعرف حتى
الآن كيف احتملتها . . كانت تماماً أشبه بمن وقع في الفخ وأطبقت
عليه أسنانه من كل جانب بحيث إنه لا يستطيع حتى أن يصرخ . . .
فهي لا تستطيع أن تطالبني علانية بشيء وسيف هذه الخطيئة مسلط
على رقبتها . ومثل هذا الجرم قد يغتفر . . يستطيع أن يغتفره حتى الإله
نفسه . . واكنه في الريف حيث تعيش هذه السيدة وحيث عاشت كل
هذا العمر تتمتع بالسمعة الحسنة والخلق الطيب . . أقول إنه عندنا في
الريف ذنب لا يغتفر ذنب دونه القتل . . أو الرجم . . أو
الحرق علانية في راحة النهار . . ولذلك فهي لم تستطع أن تبوح بشيء
أو تطالبني بشيء علانية أو حتى في السر . . كل الذي فعلته أنها بعد
أن وضعت وخرجت من المستشفى لم تملك إلا أن تتخلص من هذا العار
بأن تلقى بالطفلة التي ولدها سرّاً في الطريق .

فقلت صارخاً . . . وكأن شيئاً في قلبي يتمزق :

— إذن هذه الطفلة هي

فقاطعتني أبي على الفور والدموع تغمر وجهه وكل شيء فيه هذه المرة يرتعش :

— أربجوك . . . دعني أعترف . . . دعني أطفئ هذه النار التي تحرقني . . . لقد عرفت الآن حقيقة لماذا يذهب الناس ويعترفون بخطاياهم عن طيب خاطر . . .

ولما بكى كثيراً هذه المرة قال :

— أجل يا بني . . . إن هذه الطفلة بالذات هي التي شاء لها القدر أن تكون أختك غير الشرعية . . .

فصرخت مرة أخرى :

— زينات . . . أختي ١٩

— ومن ذات الصليب الذي بجثت منه أنت . . . علم الله . . .

— اسكت . . . اسكت . . . لا أستطيع أن أسمع . . . لا أستطيع

أن أسمع . . .

هتفت بذلك مرات في وجهه ثم انخرطت أنا في بكاء طويل . . .

وظل هو يتحدث : قال .

— كانت عاطفة الأمومة عندها أقوى من أن تجعلها تنظف ثوبها

نهائياً من دم هذه الفتاة كما كانت تماماً عاطفة الأبوة عندي أقوى

من أن تجعلنى أسكت على سوء يمسك . . حقيقة إننا أحياناً نقتل أولادنا بأيدينا ولكننا لا نفعل ذلك إلا إذا قتلنا أنفسنا أولاً . . إننا حينما نقتل أنفسنا ونموت حواسنا وتتجمد مشاعرنا ويحف الدم الذى يجرى فى عروقنا نهائياً . . عند ذلك فقط نستطيع أن نمد أيدينا وننشق أنفاس من نحب . ولذلك بعد أن ألفت بالطفلة فى الطريق تتبعتها خلصة حتى رأت اليد التى بعثها الله وجعلها تمتد إلى هذه الطفلة البريئة وهى قطعة من اللحم ملقاة فى الأرض . . إننى لا أعرف حتى الآن لماذا يد الله التى تمتد بكل هذا الخير والحب والعطف والإشفاق على الناس . . . هذه اليد التى تفجر الماء من قلب الحجر الصلد لتروى غلة الصادى وتنبت الزرع فى الأرض الصماء ليأكل الجائع . . لماذا هى أيضاً لا تمتد إلى أنفاس هؤلاء الذين يتعذبون كل هذا العذاب فتريحهم من هذا الشقاء . . إننى لا أدري لماذا وجد الموت إن لم نكن هذه هى إحدى حسناته . . لماذا لم أمت ؟ . .

واستطرد أبى وهو يبكى بحرقة هذه المرة وكأنه يبكى لأنه لم يمت . .

وقال :

— ثم لما عرفت الأم المكان الذى استقرت فيه ابنتها . . ذهبت إليها فى اليوم التالى ، وأوصت التى تكفلت بها خيراً . . وأعطتها المال . . وظلت تنفق عليها بعد ذلك إلى أن حدثت كل هذه الأحداث التى شاء القدر أن يطلعك أنت عليها وتستعرضها أمامك واضحة جليلة فى

التحقيق .. أما الذى لم يتوضح إليك حتى الآن فهو أسباب هذه الجريمة والدوافع التى دفعت إليها .. وإليك هذه الحلقة المفقودة .. إليك هذا السر الذى ظل مستتراً كل هذا الزمن .. وإليك كذلك هذه الخيوط الدقيقة التى سوف تجعلك تربط بين الخيوط جميعاً وتوضح لك حقيقة الوالد الذى قتل من أجل ولده .. وحقيقة الأم التى قتلت من أجل ابنتها ..

واستطرد أبى فى شجاعة هذه المرة فقال :

— لقد اتضح لى^٦ أن نعمة النسيان التى وهبها الله للناس لتسيهم أحزانهم لم تكن قادرة على أن تنسيهم الأحزان الكبيرة .

وأن هذه الستر السميككة — السوداء أو البيضاء — التى يسلمها النسيان على أحزاننا إنما تبلى أحياناً بمرور الزمن ، وتتهراً بمضى الأيام .^٧ وأنها إن بليت أو تهراً نسجها انتكست أحزاننا وعادت إلينا بجراحها أعمق غوراً وأكثر ألماً وأعنف ناراً من لحظات الجراح نفسها . . بدليل أن الأم عندما افتقدت الطفلة بعد أن تزوجت نظيرة محمد البسيونى وانتقلت إلى الصعيد مع زوجها وتركت الطفلة ضالة فى الطريق .. ظنت الأم بعد زمن وجيز أنها قد نسيت الطفلة نهائياً ؛ وإن ظلت تذكرها بعد ذلك ، فلأنما من أجل الذكرى فقط .. كما نذكر موتانا أحياناً ونترحم عليهم بين الحين والآخر . . . ولكنها لم تكن لتظن أو يدور بخلدتها فى يوم ما أنها تعيش على هذه الذكرى كل هذه السنوات الطويلة

التي افتقدتها فيها، وأن هذه الذكرى هي التي كانت تقيم أود الأم لتعيش وتلتقي بابنتها . . . وليس أدل على ذلك من الفرحة التي فرحتها الأم لحظة أن علمت بأن ابنتها لا تزال على قيد الحياة وأنها سوف تراها وتلتقي بها . . . وليس أدل على ذلك أيضاً من ذلك العذاب الذي تعذبه الأم عندما عثرت على ابنتها ورأتها ورأت ذلك المنحدر الذي انحدرت إليه وجلست تنظر إليها في « الصالة » وهي ترقص . . . وترى مئات العيون التي تهافت عليها كالنمل . . . وتلف وتدور حول ما تبدى عارياً من جسدها وتتحسسه بهذه النظرات النهمية حتى إذا ما وجدت ملمساً غرزت أنيابها فيه ونقشت سمومها . . . عند ذلك أحست الأم بأنها هي التي تقف عارية وسط هذه العيون . . . وأن هذه النظرات النهمية إنما تحترم جسدها هي وليس جسده هذه الفتاة التي ترقص أمامها . . . فأصابها لوعة وانتابها سعار مجنون . جعلها تركب عقلها وتفقد صوابها وتضع الأمور جميعاً في كفة . . . والظروف والملايسات والأوضاع الاجتماعية وغير الاجتماعية وسمعة الناس وأقدارها وما يمكن أن يكون وما لا يمكن أن يحدث وتقويض بيت وهدم أسرة وموت رجل وانتحار غيره . . . كل ذلك جميعه وضعته في كفة . . . وأن أعترف بينوة هذه الراقصة في كفة أخرى .

ومد أبي أصابعه بحكم العادة ليجفف دموعه . . . ولكنها كانت قد نضبت . . . ولما لم يجد غير قلة من نقاط حمراء بلون الدم . . . واصل حديثه وهو ينظر إلى أصابعه التي ترتعش :

— أنا أعرف جيداً أنها ابنتى .. وأعرف أننى المتسبب الأول فى هذا الجرم الذى وقع .. وأعرف كذلك أن ضميرى يحاسبنى حساباً عسيراً وكان يثوق عيني ويقض مضجعى وكثيراً ما كان يضغط على قلبى بعنف حتى ليكاد يسحقه .. وكان هذا يسبب لى آلاماً كثيرة لا يعرفها إلا ضمير الأب فقط .. ولكن هذا الضمير نفسه .. هذا الضمير ذاته .. كان أيضاً يحاسبنى على أشياء أخرى .. لعلها كانت عنده أكثر أهمية وهى كذلك فعلاً .. ذلك لأن الشقاء بها فى هذه المرة لن يكون وقفاً على وحدى وإنما هو أيضاً على غيرى من الناس .. إنه يحاسبنى فعلاً على هذا الشقاء الذى سببته لابنتى .. وهو اليوم يريد أن يحاسبنى على هذا الشقاء الكبير الذى أريد أن أسببه لابنى .

إن الذى حدث يختلف تماماً عن الذى يحدث .. إن الذى حدث يكون كالיום الذى مر .. ليس من سبيل إلى إرجاعه .. أو إصلاح الخطأ الزمنى الذى وقع فيه .. أما الذى سيحدث فيكون كالغد .. يتحتم علينا أن نعمل له حساباً .. وإلا تورطنا فى الخطأ نفسه الذى تورطنا فيه بالأمس .. إن هذه الفتاة قد قدر لها أن تعيش كما عاشت وتنشأ كما نشأت وتقتنع بأن هذه المرأة التى تبنتها هى أمها ... وترضى بما قسم لها من حظ .. أو تسخط عليه .. على حد سواء .. إن الحظ قد تحدد بدليل أنه حدث .. إنها بذلك قد قطعت الشوط على أى حال .

وجفف أبى دموعه .. وقال :

— إن الذى يرى الموت غير الذى يسمع عنه... وأنا قد رأيته... عشت فيه... تعذبت به... كنت أشعر بأن الذى يموت هو « أنا » وليست هذه الطفلة... وأن الذى يتعذب هو « أنا » وليست هذه الابنة... فكيف أستطيع أن أجربه مرة أخرى... وعلى صورة أبشع... كيف أقوى على أن أتركك تبدأ الشوط... وقد رأيت بعينى هاتين الجراح التى أثخنت قدمى... كيف أبجعاك تمسى وتصبح فإذا بأخت لك تعمل راقصة فى ملهى... كيف أستطيع أن أغمد فى صدرك هذه السكين... وهل يجرؤ أب على أن يفعل ذلك... هل يجرؤ والد على أن يقتل ولده بيديه؟... إبنى وإن كنت قد فعلت ذلك مرة... فقد فعلته لأننى لم أكن قد عرفت حرارة النار... لأننى لم أكن قد اكتويت بها... حقيقة كنت أعرف أنها نار... ولكن معرفتك للشئ غير تجربتك له... إننا مهما شاهدنا اشتعال النار... وسمعنا دمدمة جمراتها... فإذا لا نستشعر حرارة لها إلا إذا احترقنا فعلا... وأنا قد احترقت فكيف كنت أستطيع أن أحترق مرة أخرى؟!...

قلت لها هذا كله... وبصرتها بنتائج هذا كله... قلت لها إن الذى يعيش فى الظلام هو وحده الذى يعرف نعمة النور... وأنا وهى قد عشنا فيه... أنا وهى... قد عرفنا قيمة هذه النعمة... فكيف نحرم غيرنا منها... قلت لها إننى أدفع لها كل ما تريد... أدفع لها حياتى... فقط ألا تحرم « ابنى » من حياته... -

قلت لها إن مالى قسمة بين الاثنين .. ابنى .. وابنتى .. أهب لها نصف ثروتى لتهبه هى بدورها إلى الفتاة .. قلت لها هذا .. وكنت من الصادقين .. ولكنها ركبت عقلها وأصرت على تنفيذ ما تريد .. على أن أعترف رسمياً بينوة الفتاة .. وإلا أشهرت فى وجهى السلاح الذى تملكه .. ووضعت على رقبتي السكين التى تحتفظ بها لهذا اليوم .. وكانت تملك حقيقة هذا السلاح الباتر الذى تستطيع أن تقتلى به ... كانت تحتفظ بالخطاب الذى أرسلته لها .. وهى فى المستشفى .. واعترفت لها فيه بينوة الطفلة .. وكانت تحتفظ أيضاً بهذا التاريخ .. تاريخ اليوم الذى أدخلتها فيه المستشفى لتلد فيه .. وقيدتها فى دفاترها الرسمية بأنها زوجتى ... كانت هذه الأسلحة ماضية من غير شك .. كنت الوحيد الذى يعلم كيف أنها قاصمة للظهر ... لذلك لم أبجد بدءاً من ... أن أفعل ما فعلت .. من أن أرتكب جريمتى ... من أن أقتلها ... من أن أسفك هذه الدماء على الرغم منى ... وصمت أنا هذه المرة .. وصمت طويلاً .. ثم قلت وكأننى أناطب نفسى :

— ولهذا كان حرصك الشديد على أن تعرف منى أولاً بأول سير التحقيق فى هذه القضية .

— ولم أنم ليلة أن عرفت منك بأن الشبهات بدأت تتجه حول الشخص الذى انتقل إليه مفتاح هذا السر بعد مقتل المحبى عليها .. من المؤسف

حقيقة أنه كان الوحيد الذى يعلم هذا السر .

— تعنى دسوقى ؟

— أجل . . هذا الرجل الطيب . .

— إذن أنت الذى قتل دسوقى أيضاً . .

— لأننى أردت أن ألقى بالمفتاح الذى كان فى يده إلى القاع . . كان

هذا هو الحل الوحيد . . . كان لا بد لى أن أفعل ذلك . . أن أعيد هذا

المفتاح إلى . . وإلى أنا وحدى . . لقد كان هذا السر كبيراً يابنى . .

فقلت وكأننى مرة أخرى أناطب نفسى :

— وهل فعلت ؟ !

— من المؤسف حقيقة أننا عندما نطمئن إلى شىء . . نكون قد

فقدناه دون أن ندري . . إن أستار الظلام عندما تنسدل ويعلو طبقاتها

ذلك السواد الذى لا تنفذ إليه عين . . . عند ذلك فقط تشرق الشمس . .

ومن المؤسف أننى كنت أجهل ذلك . .

ولم يصمت أبى هذه المرة . . . وإنما ابتعد الصوت الذى كان

يتحدث إلى . . . وغاب عن أذنى فى مكان سحيق . . . وتلاشى كنسمة

هواء . . . ذابت فى قيظ صحراء يتوهج حرها . . ففتحت عيني . . فإذا

بى وحدى أجلس فوق مقعد من المقاعد كجثة هامدة لا حراك فيها . .

ترى هل كنت كذلك . . حتى قبل أن يبتعد هذا الصوت . . . ويغيب

عن أذنى فى صحراء كبيرة . . . صحراء واسعة . . .

مكثت بعد ذلك .. عدة أيام ... وحدى ...
 كانت الأيام التى مكثتها وحدى .. تختلف عن هذه الأيام التى
 يعيشها الناس .. ويحياها البشر .. كانت من لون آخر .. وصنف
 آخر .. وطعم آخر .. كان نهارها غير الأنهر التى نعرفها .. وليلها غير
 الليل الذى نراه .. والشمس غير الشمس .. والقمر غير القمر .. حتى
 الناس كانت هى الأخرى غير الناس ..

هكذا عشت هذه الأيام ..

أنا لا أدرى على وجه التحديد كيف عشتها ... أو كيف
 قضيتها .. أو كيف مرت هى ؟ !

إن كل الذى أذكره ... هو تلك الأشباح التى كنت أنا واحداً
 منها ...

كنت أرى نماذج غريبة من هذه الأشباح .. تراقص أمامى كلما
 فتحت عيني ... نماذج من الخير ... ونماذج من الشر ... ونماذج
 من الضمائر التى ماتت ... وغدت أشبه بالحدث الذى فى الرمس ...
 ونماذج أخرى من الضمائر الحية ... التى كنت أحس بها تزداد غلياناً،
 وكلما ازدادت إحساساً بالتبعة ازدادت إحساساً بالمسئولية ...

كانت هذه الإحساسات تتبلور في أشياء كثيرة . . . أشياء كانت كلها حية وأسفاه . . الصلات المتعددة التي لا يمكن تجاهلها . . صلات الدم والرحم والحياة . . وهذا الرباط المقدس الذي يربط بين هذا جميعه هذه الأم التي فعلت ما فعلت . . وأصرت على ما أصرت . . . هل هي محقة أو غير محقة ؟ !

وهذا الرباط الذي يربط بين الدم والدم . . بين الرحم والرحم . . بين الأم وابنتها . .
أيمكن أن نخفله ؟ !

وهل يكون في مقدورنا إغفاله إذا أردنا ؟ !
وإذا نحن لم نقدر . . إذا أجزناه . . . إذا أجزنا لهذه الأم أن تفعل ما فعلت . . بدافع من هذا الرباط . . . بدافع الأمومة . . . فلماذا نحن لا نجيز لغيرها ذلك ؟ ! إن الصلة هي نفس الصلة . . والدم هو نفس الدم . . والأرحام هي نفس الأرحام . . . والصلب شو نفس الصلب . .

فلماذا لا نجيز للأب في سبيل الدفاع عن ابنه . . ما أجزناه للأم . . في سبيل الدفاع عن ابنتها ؟ !

ولكن هل هذه هي المشكلة فقط . . . ؟ !

ألا ليها كانت كذلك . . !

وأغمضت عيني مرة أخرى . . . وفتحتهما ثانية . . . ولكن على جثتين
 هامدتين . . . واحدة هتكت الرصاصات الثلاث فروة الرأس . . .
 وحطمت الجمجمة . . . ونفذت إلى المخ . . . وأحدثت الوفاة في الحال . . .
 وواحدة مزقت الصدر . . . وكسرت العظام . . . ونفذت إلى الرئتين . . .
 وذبحت القلب . . . وتركت الجثة مزقاً مزقاً . . . وثقوباً ثقوباً . . . تماماً كما
 كما يحدث البلى في الثوب ويتركه مزقاً مزقاً . . . وثقوباً ثقوباً .
 . . . ورنيت في أذني كلمات . . . ولا أدري لماذا ارتعدت لها فرائصي
 الآن . . . مع أنني عندما استمعت إليها أول مرة . . . لم أعرها التفاتاً :
 « أحياناً يكون غير الواجب هو الواجب » .
 يا لله ! . . . أمثل هذه الروح البريئة . . . هذا الضمير
 الحساس . . . هذه النفس النبيلة . . . يذهب دمها هدراً . . . تزهق
 روحها ظلماً . . . يتقطع لحمها هكذا مزقاً مزقاً ؟ !
 وهذه الأم . . . هذه الأم . . . التي كل جريرتها أنها طالبت
 بحق . . .

دافعت عن حياة . . .

تمسكت بابنة . . .

استماتت في وجود . . .

. . . تموت . . . تقتل . . . تسفك دماؤها . . .

أين القصاص ؟ !

أين السماء ؟
 أين عدالة الله ؟
 أين الضمير الذى يرضى ؟
 وتراقصت أمامى هذه الخيالات جميعاً .. وتراقص أيضاً غيرها
 .. وغيرها ..

إن هؤلاء قد ماتوا ..
 توارت بجثثهم فى التراب ...
 ولكن أولئك الذين يموتون ..

ما ذنبهم ؟
 أجل .. ما ذنبهم ؟
 هل تركهم .. حتى تزهق أنفاسهم أيضاً ؟
 زينات

هل تركها هكذا تعيش هذه الحياة ؟
 .. رباه .. لماذا أحبيت أنا هذه الفتاة ؟
 ولماذا أحبيتها أنا الآن .. أكثر من ذى قبل ؟
 بل لماذا أنا أحبيتها — الآن — كل هذا الحب الكبير ؟
 ... رباه ... إنى أسألك ...

وانسابت الدموع من عيني .. ومع ذلك لم تذهب هذه الخيالات ..
 ولم ينقطع هذا الحديث .. ولم تنقطع أيضاً هذه الدموع ...

... هل ستظل هذه الفتاة .. مية هذا الموت الدنيوى .. يلفها
 هذا الكفن .. كفن هذه الحياة التى تحياها ؟ !
 وهل سيظل المجرم .. يتمتع بكل هذا النعيم ... كل هذا الجاه ؟ !
 هل سيظل الوالد ينكر ابنته ؟ !
 ويظل الأخ ينكر أخته ؟ !
 هل تبدلت الأرض غير الأرض .. حتى يحدث هذا ؟ !
 وتبدلت السماء غير السماء ... حتى تبدل بعض الضمائر ...
 هذا التبدل ؟ !
 .. تموت هذا الموت ؟ !
 رباه !!
 ومرة أخرى .. رباه !!
 لماذا خلقت مثل هذه الضمائر الميتة ... ولماذا أيضاً خلقت غيرها
 حية .. تكاد تذوب من رقة حساسيتها .. ولماذا خلقتها كذلك ،
 وقدرت لها أن تتورط فيما تورطت أنا فيه الآن ؟ !
 رباه ... لماذا فعلت ذلك ؟ ! ..
 لماذا حملتنى هذا الحمل الثقيل .. وأنت تعلم أنى بشر .. أنى
 من دم ولحم ...
 رباه ... لأنى لم أكن رسولا .. ولا نبياً .. وأنت تعلم ذلك جيداً.

* * *

وأغمضت عيني مرة أخرى .. وكان أملى هذه المرة .. أن يظل
غمضهما إلى الأبد .. ولكن لم يتحقق هذا الأمل .. وأسفاه ...
لأن تلك القوة التي تفوق قوانا كبشر جعلتني أفتحهما ثانية .. ولكن
على وجه أبي هذه المرة ..

على وجه من أحب ..

... إنني لا أعرف .. في الثلاثين سنة التي عشتها ...

... في هذا العمر الطويل .. الذي قضيه ...

لا أعرف .. أنني أحببت ذات يوم هذا الوجه .. كما أحبه الآن ..

... أنني أتعشقه ... كما أتعشقه الآن ..

أو أنني شعرت بهذه العاطفة الجميلة .. الحلوة .. الرقيقة ...

كما شعرت بها الآن ... كم أنت غالية .. أيتها البنوة ... كم أنت

عزيزة على النفس ... أيتها الأبوة ...

... أهكذا سريعاً .. يمكن الاستهانة بك .. التفريط فيك ...

القضاء عليك ...

وبيد من ؟ ! ...

رباه ... إن القتلة .. وشاربي الدماء لا يجرؤون على ذلك ...

إن الأنبياء والرسل ... لا يقدرُونَ عليه ..

وأحسست أنني على استعداد لأن أفعل كل شيء .. كل شيء ..

أجل .. كل شيء .. فقط يبقى لي أبي ..

أحطم القدسيات جميعاً . . .
ولم لا ؟ ! . . .
أليست هذه هي قدسية أيضاً ؟ ! وإن لم تكن هذه قدسية . .
فما هي القدسيات إذن ؟ !
أجل سأفعل كل شيء . . .
سأرتكب أشنع الجرائم جميعاً . . .
أسرق . . .
أقتل . . .
أسفك الدماء . . .
أنبش قبور الموتى . . .
فقط يبقى لي هذا الوجه الذى أحبه . . .
وأحسست أننى أريد أن أراه . . . أن أرى هذا الوجه . . أرى
أبى . . . فقد افتقدته كل هذه الأيام التى مضت . . . الليالى السوداء
التى عشتها . . . الساعات الطويلة التى مرت وأنا أهتف بالغمض . . .
أهتف بمن يطفى هذه النار التى فى عيني . . . وكأنه هو أيضاً كان
يحس هذا الإحساس . . . ويتشوف لهذه الرغبة . . . لأننا التقينا بعد
عشرة أيام . . . التقينا مصادفة . . على باب القصر الذى ما زلنا نعيش
فيه معاً .
حقيقة إننا لم نتكلم . . ولم ننبس . . وإنما نظر كل منا إلى الآخر . .

وانصرف . . . وكأن كلاً منا يتأسف على شيء . . . وكأن كلاً منا يتأسف على هذه النظرة . . . التي بدرت منه إلى الآخر . . .

ولكني رأيته على أي حال . . . رأيت أبي . . . إن هذا فقط هو الذي كنت أريده . . . والغريب أنه قد أفادتني كثيراً هذه الرؤية . . . أفادتني في أشياء كنت أظن أنني لن أقدر عليها . . . لقد شدت من أزرى . . . وقوت من عزيمتي . . . لقد جعلتني أتردد في كل شيء . . . إلا فيما كنت قد عقدت العزم عليه . . .

وبهذه العزيمة الصادقة . . . وبهذه القوة التي تفوق قوى البشر جميعاً . . . ذهبت إلى مكنتي في هذا اليوم . . .

لقد كنت أذهب إلى مكنتي . . . في الأيام التي مضت . . . والتردد وخور العزيمة . . . وتبليبل الحاطر وضعف الإرادة . . . كل ذلك يلزم كل خطوة أخطوها . . . كل حركة تبدر مني . . . كل نظرة ألقها على شيء أما اليوم . . . فلم أكن أثبت قدماً . . . مما أنا فيه الآن . . . لماذا ؟ ! كنت لا أدري . . .

كان أول شيء فعلته . . . هو أنني استدعيت سكرتير التحقيق . . . وفاجأته بطلب دوسيه اجتيازة رقم ١١٠٧ ولما أحضره لي . . . طلبت منه أن يتركني . . . أراجع هذه الصفحات مرة أخرى . . . وأن لا يأذن لأحد في الدخول عليّ . . . ولما انصرف . . . قمت إلى الباب . . . وأغلقت خلفه . . . ومع أنني أغلقتة جيداً وأحكمت رتاجه أيضاً . . . إلا أنني عدت إليه مرة

أخرى لكى أتأكد من ذلك . . ومن ثم تناولت هذه الأوراق وراجعتها بدقة . . . راجعتها وكأني أقرأها لأول مرة . . وكأني لم أكن المحقق الذى حققها . . ولا راجعتها صفحة صفحة . . وقرأت كلماتها كلمة كلمة . . تعجبت . . تعجبت كيف أننا أحياناً نؤمن بالباطل كل هذا الإيمان . . . ومددت يدي إلى شيء . . والغريب أن أصابعي لم ترتعش هذه المرة . . . وهي تمتد إليه . . كما كانت ترتعش في كل مرة . . تمتد إليه فيها . . مددت يدي إلى ذلك الشيء الذى أحفظ به بين طيات ثيابي . . ولكن لم أكد أفعل حتى أعدته ثانية في رعب . . وأعدته سريعاً جداً . . لقد أردت أن أتأكد مرة أخرى . . هل أغلقت الباب فعلاً . . وأغلقتة جيداً . . وأحكمت رتاجه إحكاماً دقيقاً . . يا الله ! . . إلى هذا الحد أنا أخاف على هذا الشيء ؟ ! ترى هل أنا أخاف منه أو أخاف عليه ؟ !

ولما قمت إلى الباب . . وتأكدت من أنه محكم الإغلاق . . عدت إلى ذلك الشيء الذى أحفظ به بين طيات ثيابي وأخرجت تلك المذكرات . . التى كنت أدون فيها أولاً بأول معلوماتي . . وأثبت فيها جميع الحقائق التى وصلت إليها . .

فردت صفحات هذه المذكرات جميعاً أمامي . . وبدأت أقرأ . . ولكنى توقفت . . أحسست بأن هذه المذكرات ينقصها شيء . . وأن القصة تنقصها النهاية . . ولا كنت أشعر برغبة ملحة في القراءة . . .

وكان من غير المعقول أن أقرأ شيئاً ناقصاً . . . مددت يدي . . . وتناولت القلم . . . وأكملت النقص . . . كتبت كل الحديث الذي دار بيني وبين أبي . . . دونت كل جملة قالها . . . وكل لفظ فاه به . . . وكل اعتراف صدر منه . . . وحتى كل قطرة من الدموع انسكبت من عينيه . . . صورتها في موضعها . . . ووضعتها في مكانها من الحديث . . . وبذلك تمت القصة . . . واستقامت فصولا . . . ورحت أقرأ شيئاً كاملاً لا عوج فيه ولا لبس . . .

* * *

قرأت هذه المذكرات مرات عديدة . . . هذا هو الذي تأكدت منه . . . أما الذي لم أتأكد منه حتى الآن فهو عدد هذه المرات بالضبط . . . هل هي عشر؟ . . . هل هي مئة؟ . . . هل هي أكثر؟ . . . هل هي أقل؟ . . . هذا هو الذي لا أذكره . . . ثم لما استوعبت سطورها جيداً . . . وحفظت كل كلمة فيها عن ظهر قلب . . . طويتها لأعيدها إلى مكانها الأمين . . . بين طيات ثيابي . . . ولكن هل ستظل هذه المذكرات في هذا المكان ؟! وإلى متى ؟! وهل أنا واثق من هذا المكان إلى هذا الحد . . . حد أن أحفظ فيه بهذا الشيء . . . الذي هو حياتي ووجودي ودياري . . . دون أن تمتد إليه يد . . . أو تراه عين ؟! . . . وما دمت أنا أخاف عليه هذا الخوف . . . ومادام الشر . . . في وجوده . . . والإبقاء عليه . . . والنفع كل النفع

.. هو في إخفائه .. إلى الأبد .. مادام الأمر كذلك .. فلماذا
أحتفظ به .. لماذا لا أخفيه من الوجود نهائياً .. لماذا لا أجعله كذرة
من رماد .. أتركها تتطاير في الهواء .. إن الهواء هو الشيء الوحيد الذي
لا تراه عين .. ولا تمتد إليه يد ..

واستقر رأيي على أن أفعل ... و ... وفعلت .

مددت يدي إلى علبة من الثقاب كانت أمامي ...

ولكن هنا ؟ في هذه الغرفة ؟ فوق مكتبي هذا ؟ ولم لا ؟ ..
ولكن إذا اندلعت ألسنة النار وتطاير اللهب .. وتجمع الناس حول النار
وأخذوها .. قبل أن يتحول هذا الشيء إلى رماد كما أريد ... وبقيت
قصاصة .. ورقة .. أو حتى كلمة .. فماذا يكون الحال ؟ ! ...
لا .. لا ... إن هذا ليس مكان ذلك ...

... أي مكان إذن ؟ .. أي مكان غير هذا ؟ ... إذن سأظل
أحتفظ بهذا الشيء معي .. حتى أذهب إلى بيتي على الأقل .. وفي
بيتى أفعل ما أريد .. كما يفعل الإنسان في بيته ما يريد .. ورجحت
عندي هذه الفكرة .. وفكرت فيها جيداً .. ولكنني في النهاية .. لم
أستصوبها .. لقد تسلط عليّ وهم غريب .. وهم جعل فرائضي ترتعد ..
من مجرد التفكير فيه .. وهم جعلني أقلع عن هذه الفكرة .. نهائياً ..
إذ ماذا يكون الحال لو حدث بعد أن غادرت مكتبي الآن وأنا أحمل
هذا الشيء معي .. لو حدث لي حادث .. دهمتني سيارة مثلاً

اصطدمت سيارتي أنا . . . فاجأني الموت وأنا في الطريق . . . لا . . .
لا . . . لا . . .

وفكرت ثانية . . . ولكنى فكرت هذه المرة . . . فى الشقاء الذى يلاقيه السارق . . . بعد أن يسرق . . . والقاتل بعد أن يقتل . . . والمجرم بعد أن يرتكب جريمته . . . إن الشقاء لم يكن قط فى السكين التى تقتل بها . . . وإنما هو فى السكين التى نخفيها . . . وواتنى فكرة . . . ولا أدري كيف وאתنى . . . ولا أدري كذلك . . . لماذا فرحت بها ولها . . . ونفذتها على الفور . . .

ومددت يدي إلى علبة الثقاب التي أمامي . . ومددت يدي أيضاً
إلى هذا الشيء الذي أخاف عليه أو أخاف منه . . . لا أدري !
وأمسكت بكل ذلك في يدي جيداً . . .

كانت دورة المياه . . التي نستعملها نحن الرؤساء بعيدة عن دورة المياه العامة . . . كانت في مكان منعزل تماماً عن الناس . . فلماذا لا أفعل ذلك هناك . . لماذا لا أغلق هذا الباب على وأفعل ما أريد وبدل أن تتطاير تلك الذرات من الرماد التي تخلفها النار بدل أن تتطاير في الهواء لماذا لا تغيب في تلك البالوعة القدرة . . التي لا يغيب فيها إلا كل قدر وهل هناك أكثر قذارة من هذا الذي سأغيبه فيها ؟ ! . .

ونهبضت إلى الباب وفتحته . . ومن ثم رحت أخترق ذلك الممر الطويل

الموصل إلى هناك . . . وكنت أحترقه برباطة جأش . . . وبقدم ثابتة . . .
جداً . . . يعلم الله . . .

* * *

. . . وفتحت الباب . . . ودخلت . . . وفتحت أيضاً عيني ونظرت . . .
وإذا بي أرى شيئاً عجيباً لم يكن في تصوري أبداً أنه يحدث . . .
أنى سأراه . . .

لقد أخطأت الباب الذى كنت أقصده . . . وقصدت باباً آخر . . .
كيف حدث هذا . . . ؟ ؟ لا أدرى . . .

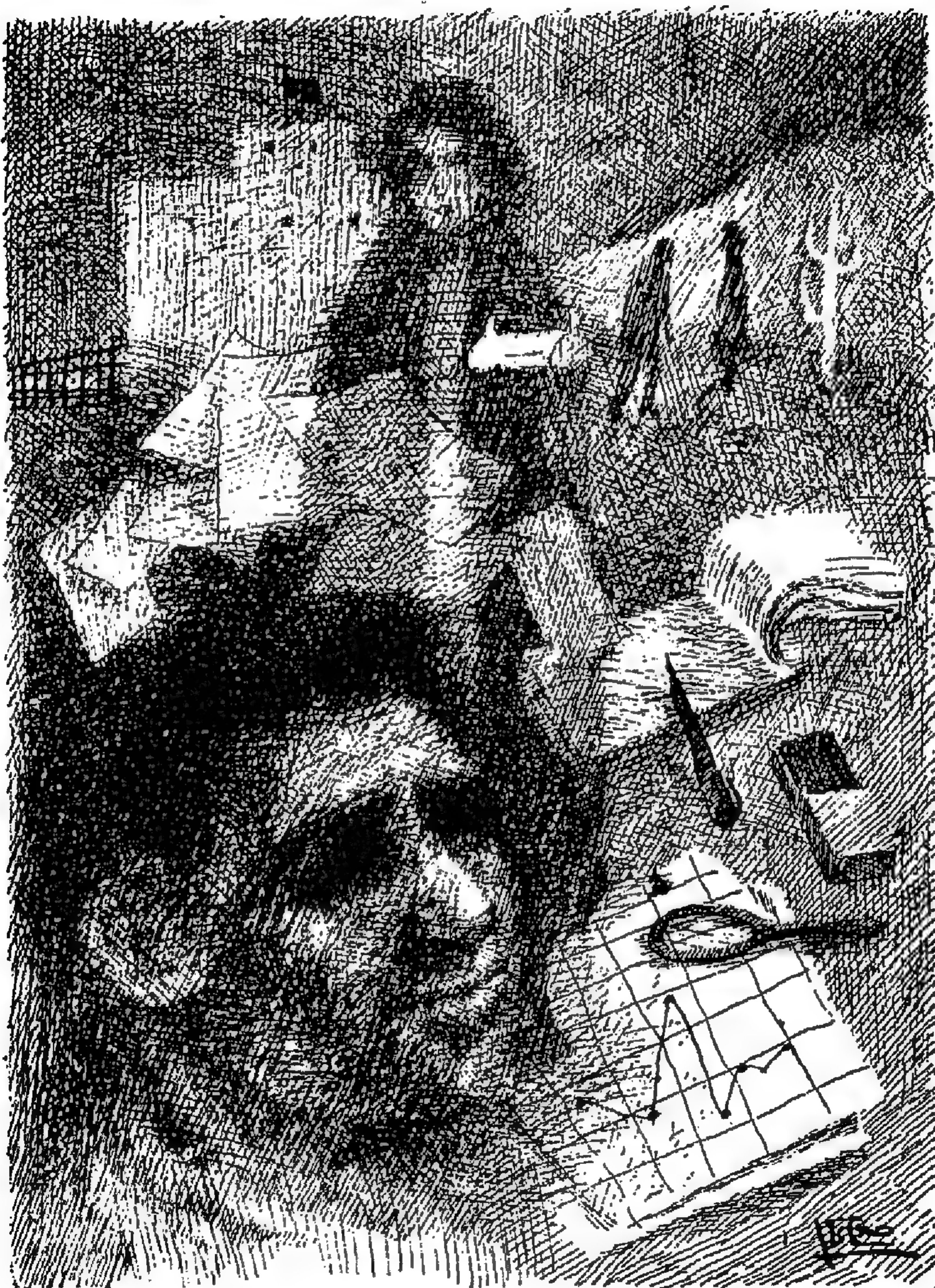
إن كل الذى حدث . . . كل الذى أذكره . . . هو أنى رأيت
باباً أمامى قد خلت . . .

. . . لم أفطن إلى ما حدث . . . لم أفطن . . . إلى أن هذا
الباب الذى فتحته ودخلت . . . هو باب غرفة مكتب - رئيس
النيابة - . . . نعم، لم أفطن إلى ذلك إلا . . . عندما رأيت نفسى أمامه
وجهاً لوجه . . . وعيناً لعين . . . ووجدتني أضع كل ما أحمل بين يدي . .
من أوراق فوق مكتبه . . . حتى علية الثقاب وضعتها هي الأخرى أمامه . . .
و . . . وانصرفت

.

.

أنا لا أستطيع بعد — هذه اللحظة — . . . أن أدون شيئاً مفيداً . . .
 إن كل الذى حدث بعد ذلك لا أعرف عنه شيئاً . . . لا أعرف حتى
 أين ذهبت . . . أو ماذا رأيت . . . أو سمعت . . . لقد كانت
 الرؤية غير واضحة أمام عيني . . . كنت أرى الأشياء . . . ولا أستطيع
 أن أتبينها . . . أو أرى الوجوه . . . فلا أستطيع أن أعرف عليها . . .
 وكذلك أيضاً كانت أذنى . . . كنت لا أسمع شيئاً . . . كانت
 الأصوات جميعاً تأتي عند أذنى . . . ثم تتضاءل . . . تتلاشى . . .
 تدوب . . . تصير إلى عدم . . . كانت مثل المراثيات تماماً . . .
 يختلط بعضها ببعض فى عيني . . . بحيث إننى كنت أجهد نفسى
 كثيراً لأميز بينها . . . ومع ذلك لا أذكر أنى ميزت شيئاً . . . إن
 كل ما كانت تقع عيني عليه . . . خيالات فقط . . . وكل ما
 كانت تسمع أذنى إليه صدى فقط . . .
 غرفة صغيرة . . . صغيرة جداً . . . كل ما فيها جامد . . . صامت . . .
 مطبق الصمت . . . لا تسمع فيها لغواً . . . حركة . . . نائمة . . . كل ما يأتى
 إلى أذنك فيها شئ . . . شئ غريب . . . لا هو يشبه الصوت . . . ولا هو



يشبه الصمت . . إنه أقرب ما يكون إلى الأنفاس . . الأنفاس المحترقة . .
الأنفاس التي تكاد تتلاشى قبل أن تبلغ الشفاه . . تحترق قبل أن تخرج
إلى الهواء . . ولكن أنفاس من هذه ؟ . . كنت لا أعرف . . كانت
أذني لا تميز . .

وكأذني تماماً . . كانت أيضاً عيناى . . ولكنهما كانتا أقدر
إلى حد ما على التمييز . . كنت أنظر إلى الغرفة فإذا بكل شيء
فيها أبيض . . ناصع البياض . . الجدار . . النافذة . . الباب الصغير . .
المشجب . . المائدة . . الإبريق الذي فوقها . . كوبه الماء التي عليها . .
السريـر الذي أنام فوقه . . الثوب الذي أرتديه . . الغطاء الذي فوق رأسي . .
وجه الفتاة التي تجلس إلى جوارى . . الثوب الذي ترتديه . . الغطاء
المنشـى الذي فوق رأسها . . الحذاء الذي في قدمها . . كل هذا كان
أبيض . . ناصع البياض . . لهذا فقط استطعت أن أميز . . استطعت
أن أعرف . . أعرف أنها غرفة في مستشفى . .

* * *

ضربات قلب . . تحصى . . تعد . . درجات حرارة تعلو . . تزداد . .
ترتفع . . تنخفض . . تقاس أولاً بأول . . درجة درجة . . ساعة ساعة . .
تحصى . . تثبت على الورق . . خط أسود يرتفع إذا سجلت مرة . .
خط أسود ينخفض إذا سجلت ثانية . . أكياس من الثلج توضع . .
تذوب . . يجيء غيرها . . تذوب أيضاً . . يجيء غيرها . . تذوب كذلك . .

إبر كأنياب الأفاعي تغرس في لحمي .. شراب كأنه العلقم يصب بين
شفتي .. يغص به حلقى .. تتجمد مرارته فوق لساني .. فوق شفتي
لهذا فقط عرفت .. عرفت .. عرفت أنني مريض .

* * *

رجع لهمس .. صدى لصوت .. زفرات لألم .. أنفاس لحزن ..
همسات لدموع .. همهمة لشفاه .. وشوشة لصمت .. تأتي إلى أذني من
مكان بعيد .. بعيد جدًا .. ومع ذلك تذهب .. تذوب .. تتلاشي ..
لا يبقى منها في أذني سوى خيالات .. خيالات لألفاظ .. أشباح
لكلمات .. صور لمعان .. هبوط شديد في القلب .. انهيار زائد في
الأعصاب .. فقدان كبير في الذاكرة .. لهذا فقط عرفت .. عرفت
بماذا أنا مريض ..

* * *

طبيب يخرج .. طبيب يدخل .. طبيب آخر يجيء .. ممرضة تنهض
.. ممرضة أخرى تجلس .. شبح يظهر من بعيد .. يقترب .. يقترب
.. يقترب .. ثم يختفي فجأة .. يتلاشي .. لا يرى له أثر .. ثم يظهر
فجأة .. يرجع .. يعود .. يقف أمامي في ثياب سوداء .. هو فقط
الذي يرتدى السواد .. يقترب مني .. ينظر إلى .. يحدق في وجهي ..
يتفرس في عيني .. يصمت .. يصمت طويلاً .. لا ينبس .. لا يطفرف
.. لا تختلج له عين .. لا تتحرك له شفاه .. إنه تمثال .. تمثال من

حجر .. تمثال من صخر .. ولكنه يبكى .. تسفك عيناه الدموع ..
دموع .. دموع كأنها النار .. تتساقط نقاطها على يدي .. على وجهي ..
على صدري .. ترى لماذا هو يبكي ؟ ! .. ترى من هو هذا الشبح ؟ !
من هو هذا الشخص الواقف أمامي .. يبكي .. ينتحب .. تسفح
عيناه كل هذه الدموع .. من هو ؟ .. ما صلته بي .. ترى هل
رأيتَه قبل الآن ؟ .. ومتى رأيته ؟ .. وأين وقعت عيني عليه لأول مرة ؟ ..
ولماذا هو يبكي كل هذا البكاء ؟ ؟ .. لماذا هو يرتدي السواد ؟ ! ..
هل هو الوحيد الذي يرتديه ؟ ! .. هل هو يعلم أنني سأموت ؟ .. أو
أن أحداً تربطه بي صلة قد مات ؟ .. وما صلته بي .. بي أنا ..
.. أجل أنا .. أنا من ؟ كنت لا أدري ..

* * *

ولما كان يجهدني التفكير كنت أعود فأنظر إليه ثانية .. ولكني أراه
قد غاب .. ذهب .. تلاشى .. صار إلى عدم .. إلى خيال .. حتى هذا
الخيال كان غير واضح لعيني .. كان يبدو لي أشبه ما يكون بفتاة أعرفها
.. تربطني بها صلة .. صلة كبيرة .. عزيزة .. جميلة .. حلوة ..
كنت أحبها ذات يوم .. وكانت هي أيضاً تحبني ذات يوم .. ولكن
من هي هذه الفتاة التي كنت أحبها كل هذا الحب ؟ .. ما اسمها ؟
مثل أسرتها ؟ .. من أبوها ؟ .. من أمها ؟ .. كيف ولدت ؟ ..

كيف نشأت ؟ .. كيف عاشت ؟ .. كيف تعرفت عليها ؟ .. كنت
لا أعرف .. أجل ، كنت لا أعرف ..

* * *

.. هكذا كنت .. وهكذا ظلت .. ظلت طويلاً .. حتى بعد أن
شفيت وأذنوا لي بالخروج .. كل الذي كنت أراه خيالات .. خيالات
فقط .. وكل الذي كنت أستمع إليه صدى .. صدى .. صدى
فقط .. حتى الذي حدث لي أخيراً .. كان هو الآخر صدى .. صدى
لا أذكر منه شيئاً .. ولا أستطيع حتى اليوم أن أميز منه شيئاً .. كل
الذي أذكره .. أميزه .. هو هذه الخيالات .. هذه الخيالات التي
ما زالت تروح وتجيء أمامي إلى اليوم ..

قاعة رحبة .. رحبة جداً .. فسيحة إلى حد كبير .. غاصة
بالناس .. جمع غفير من البشر .. من الوجوه .. إنني أعرف أكثر
هذه الوجوه .. أعرف أكثر هؤلاء الناس .. قضاة .. مستشارون ..
رؤساء محاكم .. أعضاء نيابة .. وزراء .. رجال قانون .. كل هؤلاء
يحيطون بي .. يلتفون من حولي .. يثنون عليّ .. نظراتهم تتعلق
بي .. يذكرون اسمي .. يوجهون عبارات إلى .. همسات ..
همهمات .. نظرات .. شخص كبير .. مهيب .. يتقدم إلى ..
إلى أنا .. يده تمتد إلى .. إلى صدري .. تضع عليه شيئاً .. تقلدني
وساماً .. عاصفة من التصفيق .. تنطلق .. تدوى .. تعربد في

سمعى . . تقصف كالرعد فى أذنى . . تنهال كالججارة على وجهى . .
تدق رأسى بلا رحمة . . تمزق صدرى . . شىء فى قلبى يتحرك . .
يضطرب . . يخاف . . يرتعد . . يرتجف . . يتمزق . . دموع فى عيني
. . تتجمع . . تسيل . . تنفطر . . تنهمر . . تنساب على وجهى . .
تغمر شفتى . . تغرق صدرى . . صورة بغیضة . . بغیضة جداً تلوح
لعينى من بعيد . . من بعيد جداً . . إنها تقترب . . إنها تدنو . . تقف
أمامى . . تراقص فى عيني . . هى فقط التى أراها واضحة . . واضحة
جداً . . راية سوداء . . ترتفع فوق أحد السجون . . ترتفع فى السماء . .
ترتفع أمام عيني . . أخاف . . أغمض عيني . . أغمضهما جيداً . .
ولكنها مازالت ترتفع . . ترفرف أمام عيني . . مازلت أراها . . إنها لا
تريد أن تبتعد . . لماذا هى لا تريد أن تبتعد ؟ . . لا تريد أن تغيب عن
عيني ؟ . . الشبح الأسود يظهر فجأة . . يظهر ثانية . . يلوح لعيني
من بعيد . . إننى أراه . . أراه جيداً . . إنه يقترب . . يدنو . . يتجه
إلى . . إنه أيضاً يتجه إلى مكان أتجه أنا إليه . . ربوة صغيرة فى مكان
قفر . . الراية السوداء تعلو . . تعلو . . ترفرف فوق رأسينا . . ها هى ذى
الربوة بيننا . . إنها قبر . . قبر فى مكان قفر . . قبر ترتفع فوقه تماماً
الراية السوداء . . ها هوذا الشبح يمد يديه إلى . . يلمسنى . . يرتقى فوق
صدرى . . يهتف بصوت كالرعد ولكنى لا أسمع شيئاً . . لا أميز
شيئاً . . إنها كلمة واحدة . . واحدة فقط . . هى التى ميزتها . . وما زلت

أميزها إلى اليوم . . أخى . . وكلمة أخرى . . كلمة واحدة أيضاً . . كلمة
تماثلها تماماً . . أختى . . هذه الكلمة هي التي مازلت أميزها أيضاً . .
ولكن من أين يجيء هذا الصوت . . أهو من القبر ؟ . . أهو من
الأعماق ؟ كنت لا أدري . .

* * *

. . وهذه الأخت . . أخت من ؟ . . وهذا الأخ . . أخو من ؟ . .
وهذه الراية السوداء التي مازالت ترفرف أمام عيني . . ما شأنها ؟ . .
وهذا القبر . . هذا القبر الذي في هذا المكان القفر . . قبر من ؟ . .
أهو قبر أحد أعرفه ؟ . . أحبه ؟ . . ولكن من هو هذا الذي أحبه كل
هذا الحب . . وما زلت أحبه . . كل هذا الحب ؟ . . رباه ! إننى . .
إننى . . أسالك . .

. . من هو هذا الرجل ؟

. . من هو هذا الشبح ؟

. . من هي هذه الأخت ؟

. . من هو هذا الأخ ؟

. . وهذه الراية السوداء ما شأنها ؟ . .

رباه . . رباه . . رباه . .

إننى أسالك . . أجل إننى أسالك !

منطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ١٩٩٩/٨٩٦٢

I.S.B.N 977 - 01 - 6186 - 1



المعرفة حق لكل مواطن وليس للمعرفة سقف ولا حدود
ولاموعد تبدأ عنده أو تنتهى إليه.. هكذا تواصل مكتبة الأسرة
عامها السادس وتستمر فى تقديم أزهار المعرفة للجميع. للطفل
- للشاب - للأسرة كلها. تجربة مصرية خالصة يعم فيضها ويشع
نورها عبر الدنيا ويشهد لها العالم بالخصوصية ومازال الحلم
يخطو ويكبر ويتعاضم ومازالت أحلم بكتاب لكل مواطن ومكتبة
لكل أسرة... وأنى لأرى ثمار هذه التجربة يانعة مزدهرة تشهد
بأن مصر كانت ومازالت وستظل وطن الفكر المتحرر والفضيلة
والحضارة المتجددة.

سوزان مبارك

Bibliotheca Alexandrina



0542176

٢٠٠ قرش

مكتبة الأسرة

١٩٩٩
مهرجان القراءة للجميع

مهرجان الأسرة
للطفل - للشاب - للأسرة
جمعية الرعاية المتكاملة